هموم أمة

الدكتور
سعيد إسماعيل على
أستاذ أصول التربية - جامعة عين شمس

عالم الكتب

علي ، سعيد إسماعيل .

هموم أمة / سعيد إسماعيل علي . - القاهرة : مكتبة عالم الكتب ، (٢٠٠٩) .

٢٩٦ ص ، ١٧× ٢٤ سم

رقم الإيداع : ٩٤١٢ / ٢٠٠٩

تدمك : 2 - 725- 232 - 977 تصنيف ديوى ٣٠٥,٠٤

المطبعة : أبناء وهبة محمد حسان

١ - الأحوال الإجتماعية . مقالات ومحاضرات .

أ- العنوان

عالم الكتب

نشر ، توزيع ، طباعة

الإدارة :

١٦ شارع جواد حسني - القاهرة

تليفون : ٢٣٩٢٤٦٢٦

فاكس : ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٩٠٢٧

المكتبة :

٣٨ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون : ٢٣٩٢٦٤٠١ - ٢٣٩٥٩٥٣٤

ص.ب : ٦٦ محمد فريد

الرمز البريدى : ١١٥١٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

رقم الايداع ٩٤١٢ / ٢٠٠٩

ISBN: 977-232 - 725 -2

مطبعة أبناء وهبه حسان

٢٤١ (أ) ش الجيش - القاهرة

تليفون : ٢٥٩٢٥٥٤٠

E-mail : hassaanpress@hotmail.com

الموقع على الإنترنت : www.alamalkotob.com

البريد الإلكتروني : info@alamalkotob.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــــــة

يضم الكتاب الحالى عددا من المقالات التى كتبت فى صحف مـصرية متعددة ، فى أوقات مختلفة ، الخيط الرابط بينها جميعا هو أنه تمثل بالفعل " هموما " للمواطن ، بل وللأمة كلها ،والطابع الغالب عليها هو أن معظم مـا تتناوله من مسائل ومشكلات وقضايا يكاد يخص مجالا بعينـه ممـا يمكـن تسميته بالمجال السياسى ، هذا المجال الذى لابد لمن يتابع المؤلف فيما يكتب أن يلحظ أنه يستقطب اهتمامه بدرجة أساسية .

إن تفسير ذلك إنما يرجع لعلة معروفة فى دول العـالم المتخلـف ،مـع الأسف الشديد ، حيث يفتقد المواطن " الموضوعية " فى النظام القائم ،ويعيش احتكار السلطة ، وانفتاح المدى الزمنى لها ،وهى "كبائر " – فى نظرنـا – يتولد عنها ما يصعب حصره من الأخطاء والمشكلات ، ومن ثم فهى تشكل " البنية الأساسية " للجماعة ، وبالتالى يمكن ، بغير ما مبالغـة أن نقـول أن الاقتصار على تناول مشكلات التعليم – مثلا – وهو تخصـصنا الأكـاديمى والمهنى ، يصبح عبثا لا طائل من ورائه طالما اسـتمرت هـذه الـسوءات الكبرى فى النظام القائم ، ولا نريد أن نشرح هذه المقولة ، فقد سبق لنـا أن تناولناها مرارا وتكرارا ، حتى أصبحت من " البدائه " و " المسلمات " .

وهناك بعض يرى أن الموضوعات السياسية التى يـتم نتناولهـا علـى صفحات الصحف اليومية والأسبوعية ، يغلب عليها وصف " الآنيـة " ، أى أنها تختص بتناول مسائل عارضة على المسرح الاجتماعى ،وبالتالى تقـل فائدتها للقارئ ، حيث هناك احتمال بزوال مظاهرها أو أسبابها .

والحق أننا لا نتفق مع هذا الرأى ، فهناك أولا ، قضية " التوثيق " ، فأوراق الصحف ، عادة ما يلقيها الناس إلى هنا وهناك مما يؤدى إلى " انمحاء " ما فى الصحيفة من موضوعات ، لكن جمعها فى كتاب يحفظ استمراراها حيث ستدخل ضمن الموروث الثقافى .

وثانيا ، فإننا شعب بحاجة إلى التنشيط المستمر للذاكرة ، إذ يبدو أن التدافع المستمر للخطوب والبلايا ، يؤدى – نفسيا – إلى المحو المستمر لما حدث من قبل ، حيث قد لا تتحمل نفس المواطن وشخصيته هذا الكم الكبير من المشكلات والأزمات ، حتى لقد شاع بأن " النسيان نعمة " ، وهو الأمر الصحيح جزئيا ، حيث لا يجب أن يكون هذا شعارا عندما يكون الموضوع هو حاضر أمة ومستقبلها ..فلابد من أن تظل الذاكرة حية ، لعل وعسى أن يشعر هذا وذاك بأنه من غير الطبيعى أن يحدث كذا وكذا ،وعدة مرات ، ثم لا تتحسن الأوضاع ولا تتحرك إلى أمام .

وثالثا ، فإن التوثيق لما يكتب عن الأحداث الجارية ، من شأنه أن ينبهنا إلى أى مدى نتقدم أو نتأخر ، أو نظل فى مواقعنا لا نبارحها ؟

وعلى أية حال ، هى وجهة نظر الكتاب ، قد يصيب فيها ،وقد يخطئ ،وفى كل الأحوال يرجو المولى عزوجل أن يكون بهذا قد قدم لبنة أخرى تضاف إلى لبنات سابقة لصرح الفكر والثقافة .

والله ولى التوفيق

المؤلف

مصر الجديدة فى١٦، من فبراير ٢٠٠٩

عذاب القبر وعذاب الشارع*

فى أغسطس ١٩٨٦ أسعدنى الحظ بمصاحبة د.حمدى زقزوق ونفر آخر من أساتذة الفلسفة الإسلامية وعلوم الدين، للمشاركة فى ملتقى الفكر الإسلامى بالجزائر، وكان فى مدينة " معسكر ". ولما جاء يوم جمعة فى فترة انعقاد الملتقى فوجئت بأن المنظمين قد وضعوا اسمى ضمن من سيتولون خطبة الجمعة فى بعض المساجد القائمة، فأسرعت لأنبه أننى لست عالما من علماء الدين، وإنما أستاذ تربية بالدرجة الأولى، وإذا كان لى اهتمام كبير بالتربية الإسلامية، فهذا لا يتيح لى أبدا أن أقف خطيبا على المنبر يوم جمعة وأؤم الناس.

تلك حقيقة لابد من الاعتراف بها والتنبيه عليها أولا، عندما أقول بعض ملاحظات عما يخص عددا غير قليل ممن يخطبون فينا فى صلاة الجمعة.فأول ما حفزنى للحديث الحالى أن خطيبا كرس خطبته كلها على وجه التقريب للحديث عن عذاب القبر وهول ما يلاقيه الإنسان فيه وكان الجمع من المصلين من الفقراء البسطاء والمساكين ممن يعيشون عذابات كثيرة فى حياتهم الدنيوية، ولا يد لهم فيها. وإذا كنا نسلم بداية بأن ما ثبت بنص فلا جدال فيه، لكن أليس من الأولى لمثل هذا الخطيب أن يحدث مستمعيه عما يلاقونه كل يوم من " عذاب الشارع " مثلا، بحوادثه، وفوضى مروره، وندرة نظافته، ومطباته، وازدحامه، وضوضائه، وما يغلب على مفرداته اللغوية من قبيح الألفاظ ؟ إن الدنيا مزرعة الآخرة، والعمل على التخلص من قطاع من صور السوء فيه خطوة أولى وهامة حتى ندخل القبور بسلام وطمأنينة.

---

* صوت الأزهر، العدد الثامن عشر ، ٨ يناير ٢٠٠٠.

وخطيب فى مسجد ملحق بمدينة جامعية ٩٩% من المصلين فيه طلاب، وعدد قليل من العمال والحرس فأجده يتحدث عن عادة كثيرة من المعارين والعاملين فى إحدى البلدان العربية.. التى تضع فى الاعتبار توقف العمل عندما يؤذن للصلاة – حيث ينتهزون الفرصة فى تضييع وقت طويل بحجة أنه وقت تأدية الصلاة، فتفوت وتتأخر بعض المصالح الخاصة بالجمهور، فأتساءل: ألم يكن من الأجدر أن يدور الحديث عن قضية أو مشكلة مما يواجهه هؤلاء الطلاب الجامعيون فى بلادهم، وهى بالعشرات والحديث فيها لا يمكن أن ينتهى، وهم بعيدون تماما عن هذه القضية ؟

وهناك من الخطباء من لا يحسنون التحدث باللغة الفصحى ولا ينبغى أن نستهين بهذا الأمر، لكننا نؤكد على أن التحدث بصحيح اللغة دائما من شأنه أن يعود أذن المصلين عليها فتترسخ فى لا شعورهم " حاسة لغوية " تعينهم على أن يقرأوا القرآن الكريم قراءة صحيحة، فضلا عما هو معروف عما تتسم به اللغة العربية الصحيحة من جمال يجعل الحديث بها أقرب على القلوب وأسرع فى الفهم والاقتناع !

انتماء*

كثيرا ما نسمع ونقرأ اتهاما للشباب بأنهم ضعيفو الانتماء إلى الوطن ، ومن ثم لابد أن نقوى هذا الانتماء لديهم ، وفى رأيى المسألة تحتاج إلى قدر من التدقيق فى استخدام المفاهيم والمصطلحات.

إن الانتماء الوطنى ليس مسألة من تلك المسائل التى يمكن أن نغرسها بالتربية والتعليم لسبب بسيط للغاية ، وهو أنها تولد مع الإنسان حال ولادته ، فهو إذا كان فى مصر ولأب وأم مصريين فمن المحتم أن يولد مصريا ، وولادته مصريا تعنى أنه " ينتمى " فعلا إلى مصر.

إن الانتماء هو تلك الرابطة العضوية التى تربط بين الإنسان وبين جماعة بعينها ، بعضها شبه حتمى، مثل انتمائه إلى أسرة بعينها أنجبته ، وبالتالى الوطن الذى يعيشان فيه ، وأيضا الدين الذى يدينان به ، والنوع " ذكرا كان أو أنثى "٠٠ وهكذا بالنسبة لكثير من الروابط الفطرية أو الحتمية ٠ ثم هناك عدد من الروابط التى تجئ طواعية واختيارا ، فقد ينضم الإنسان إلى حزب ما فيصبح منتميا إليه ، أو جمعية من الجمعيات الأهلية ٠ وهو بحكم عمله ينتمى إلى فئة مهنية أو حرفية أو ناد من النوادى ..

لكن هناك مصريين تشغلهم هموم الوطن وطموحاته ، فتجدهم يغرمون بتاريخه وأثاره ويشعرون إزاءها بالفخر والإعجاب والتقدير، وتجدهم يحرصون على متابعة أخباره وحوادثه السياسية العامة ، يفرحون لانتصاراته وتوفيقاته ويألمون لانتكاساته وإخفاقاته ، وربما ينشغلون بمقدار تقدمه ونموه الاقتصادى ويحزنون عند المقارنة بين مستويات المعيشة فيه ومثيلاتها فى الدول الأخرى إذا كانت المقارنة فى غير صالحه ، والعكس

---

* صوت الأزهر، العدد الواحد والعشرون ،١٨ فبراير ٢٠٠٠

صحيح ، وإذا كان فى سفر إلى دولة أو دول أخرى شعر بـــالاعتزاز بأنـــه مصرى وينتفض ضيقا وغضبا لو تحدث عن مصر أحد بسوء.

إن هذا النفر من المصريين يقابلهم نفر آخر، أقصى ما يهتمون به هو مقدار ما يقدمه لهم الوطن من تيسيرات فى كسب لقمة العيش وما يتجـــاوز الحد الضرورى للحياة منها ، فإذا ووجه بـــصعاب ومـــشكلات راح يلعـــن الظروف التى جعلته مصريا ، وراح يتمنى أن لو يخرج مهاجرا ، فإذا مـــا ظهر إخفاق على مستوى الوطن هنا وهناك راح يعلله بأننا قوم غير مؤهلين للنجاح ، وأننا لا نستحقه ، وإذا ما حدث العكس راح يفسره بأنه ضربة حظ وصدفة أو بسبب خارجى ، وهو ضعيف الثقة فى قدرة مصر على مواجهة أعداء الخارج فهم غالبا الأقوياء فى نظره !

الفئتان معا ، بحكم مصريتهما هما " منتميان " لمصر، لكن الفئة الأولى لها " ولاء " للوطن ، على العكس من الثانية ، وبالتالى فإذا كان الانتماء يعبر عن تلك الشحنة الوجدانية التى تنبث فى شرايين وخلايا الإنسان فنجده فـــى حالة تتدرج وفق مستويات ، فقد يكون عند مستوى " الاهتمام " ، وقد يتعدى هذا المستوى ليرتفع إلى مستوى التقدير والإعجاب ، ثم قد يعلو أكثر فـــأكثر ليصل إلى مستوى الحب والعشق.. وهذه الشحنة الوجدانية لا تعيش " وجدانا " فحسب ، بل تدفع صاحبها إلى تحصيل المعرفـــة الخاصـــة والـــضرورية لموضوع حبه أو اهتمامه ، وهى أيضا تدفعه إلى أن يعمل ويمارس ما يدفعه إلى أن يعمل ويمارس ما فيه عز ورفعة شأن الوطن.

الانتماء والولاء*

إن الفرد منا يكون عند الميلاد " مواطنا " مصريا (أو منتميا " لكنه – وفقا لأسلوب التنشئة والخبرة – يمكن أن يتحول ليصبح " وطنيا " (أى على ولاء)، وأمر كهذا لا يتم بمجرد الوعظ والإرشاد والدعاية الفجة ، والهتافات والأناشيد ، إنها قد تضع على الشخصية " قشرة " وطنية ، لكنها تكون قشرة خارجية هشة، يمكن أن تزول لأوهن الأسباب ، فما السبيل المنهجى العلمى الذى يمكن أن يتم عن طريقه تحول المواطن إلى " وطنى " ؟

فى كتبنا المتداولة بين الطلاب فى التعليم العام نرى الخلط واضحا بين " الدعاية " وبين " التثقيف الوطنى " ... بين " التلقين السياسى" و " التثقيف العلمى " . إن الحديث من زاوية المدح والتحسين والتزيين للنظام القائم أمر يمكن أن يتم فى أجهزة إعلام مثل التليفزيون والإذاعة والصحف الحكومية ، ومن حق أى نظام أن يفعل هذا ، ولكن ليس من حقه أبدا أن يجعل قاعات العلم فى المؤسسات التعليمية ساحة لذلك لأنها ساحات " علم " أولا وقبل كل شئ وملك للوطن وليست ملكا للنظام .

إن هناك العديد من القضايا والزوايا يجد المواطن نفسه فى حاجة إليها ، وعلى سبيل المثال : إذا أراد أن يستخرج بطاقة شخصية ، ما الإجراءات التى يجب اتخاذها ؟ وعند استخراج رخصة قيادة سيارة ؟ وكيف ولماذا يجب أن يدلى بصوته فى الانتخابات ؟ وكيف يستخرج جواز سفر ؟ وما هيكل الحكم المحلى ، وسلطات المحافظ ، وتشكيل المجالس المحلية ، ومجلسى الشعب والشورى والفرق بينهما ؟ وما وظيفة الدستور والفرق بينه وبين القانون واللائحة والقرار الوزارى ؟ والفرق بين القطاع العام

---

* صوت الأزهر، العدد الثانى والعشرون ،٢٥ فبراير ٢٠٠٠

والخاص؟ والفلسفة التى يقوم عليها كل منهما ؟ وما وظيفة الأحزاب السياسية؟ وما موجود منها فى مصر ؟ وحكاية الجمعيات الأهلية ووظيفتها ؟

هذا بعض من كل ، أؤكد أن الطالب فى مدارسنا لو وجد مقررا يعلمه هذا وما سار على دربه ، فسوف يشعر بأنه يلبى حاجاته إلى " التثقيف المدنى " ، أى مجموعة من المعلومات الضرورية كى يستطيع ممارسة وظائفه ومعاملاته فى المجتمع المدنى ، هذا بطبيعة الحال فضلا عن ضرورة التدرب على السلوك العملى حيث أن مجرد " العلم " لا يعنى بالضرورة السلوك وفقا له ، وأمر مثل هذا لا تكون مهمته من مسئولية مقرر بعينة نسميه التربية الوطنية ولكنه مسئولية " المناخ التعليمى" بكل ما يشمله من أركان وعناصر ، إدارية وفنية واجتماعية ، بل قل ، هو مسئولية المناخ المجتمعى العام بكل ما فيه .

ويمكن البدء بهذا النوع من التعليم منذ السنوات الأولى ، فمثلا :يمكن أن نقدم قصصا للأطفال تدور أحداثها حول قيمة أو قيم معينة، فهذه قصة تحكى عن أنواع مختلفة من الحيوان ، فهذا أسد، وهذه زرافة ، وهذه قطة ، ، كل منها يحتاج غذاء ، فهل نقدم لهم صنفا واحدا ! كلا ، فالأسد يحتاج إلى لحم نئ ، والزرافة إلى عشب، والقطة يمكن أن تشرب لبنا ،.. هكذا عقل الإنسان.. لابد له من غذاء ، وغذاء العقل هو الفكر..وبين عقول البشر اختلافات لا تكاد تحصى ، فهل نقوم بتغذيتها بنوع واحد من الغذاء؟ كلا ، إذا لابد من (تنويع) الفكر ، ولابد من (التعددية) ٠ هذه قيمة سياسية واجتماعية ووطنية مهمة لا نقدمها عن طريق دعاية فجة تضر أكثر مما تفيد بأن مصر فيها كذا حزب ، فكلنا يعرف حقيقة الأمر ، ولكن عن طريق قصة مبسطة ترسخ ركنا من أركان الحياة الديمقراطية فى المجتمع الحديث ، وبمثل هذا الأسلوب يمكن أن نعلم أبناءنا الكثير مما يعدهم كمواطنين منتمين إلى بلدهم وعلى ولاء لها إذا نشئوا وعاشوا قيم المواطنة والوطنية.

اللغة عماد الهوية*

إن أحدا لا يستطيع أن يمارى فى حدوث تغير فى الكون وفى الإنسان فهذه سنة الله فى خلقه لكن هناك حدودا للتغيير ، وأظهر ما يمكن أن نسوقه فى هذا المجال هو سنن الله فى خلقه نفسها فهى هى لا تتبدل • وهناك فى عالم الإنسان والحيوان قسمات أساسية لا تخضع للتغير ، فقد عرفنا من تاريخ البشرية منذ بداية التدوين التاريخى أن الإنسان ظل كما هو إنسانا ولم يتبدل إلى كائن أخر. ولم نجد كلبا تحول إلى كائن أخر .. وهكذا.

لكن الأمر قد يختلف بالنسبة لحركة المجتمع ، ففيه بالفعل تكوينات طبقية متناقضة ، كما نجد بين الأغنياء والفقراء ، وصراع لابد أن نسلم بإمكان حدوثه ، لكن القول بـ " حتمية " تحكم مثل هذا التناقض وفق قوانين تعمل آليا ، لم يعد مما يردده البعض كما كان الأمر من قبل ، وأخشى أن أقول أن الزمن قد تجاوز هذا ، فللإنسان قدرته وإرادته التى تمكنه ، بل مكنته بالفعل من أن يحطم كيانات تاريخية ضخمة لتسير الأمور وفق توجهات مغايرة تماما.

وفضلا عن ذلك فإن استطاعت طبقة أن تهزم طبقة أخرى من خلال عمليات الصراع ، فهذا أمر لا يدوم أبدا ، فلقد تصور منشئو البلشفية فى روسيا أن طبقة العمال قد هزمت البرجوازية ومحتها من الوجود لكن ها هو الأمر يعود إلى ما كان عليه قبل قيام هذه الثورة.

وهكذا نجد أن القول بأن الهوية تعنى المقومات الأساسية التى تجعل الشئ يحتفظ بذاتيته هو سنة إنسانية وكونية ، وأخطر ما يمكن أن نسمعه حقا هو أن هذا أمر يتلاشى فى ظل الكوكبية التى تعنى ذوبان الكيانات الفرعية ، إلا إذا كان المقصود من هذا القول أنه "مراد" لنا حتى يتخلى كل مجتمع من

---

* صوت الأزهر، العدد الواحد والثلاثون ،٢٨ إبريل ٢٠٠٠

مجتمعاتنا عن هويته ليذوب فى " الكوكبية " أو " العولمة " والتى هى ليست إلا تسييدا لثقافة بعينها على البشرية كلها ، هذه الثقافة هى الثقافة الأمريكية وحدها.

ومن هنا صدقت تلك الأصوات التى بدأت تتعالى مؤكدة أن هذه إن هى إلا صورة جديدة من صور الإمبريالية والهيمنة ، وهو الأمر الذى بدأت تنبه له مجتمعات داخل العالم الغربى نفسه، بل ومن داخل الولايات المتحدة نفسها ، وآية هذا ما حملته الأنباء لنا من مظاهرات ومظاهر احتجاج كلما عقد اجتماع تحت مظلة العولمة الاقتصادية .. فما بال مفكرى بلادنا يصرون على أن يكونوا عولميين أو كوكبيين أكثر من أهل البلاد التى انطلقت منها هذه الدعوات ؟! هل كتبت علينا التبعية حتى فى هذا .. ويحرص مفكرونا على أن يواصلوا دور الريادة حتى على هذا الطريق ؟

إننا نؤكد ما سبق أن قلناه ، كتابة وشفاهة ، عدة مرات أن تحذيرنا من مخاطر الكوكبية على هويتنا لا يمكن أن يعنى بأى حال من الأحوال مخاصمة ومقاطعة لتيار الثقافة الوافد من مواقع إنتاجها ، غربا كان أو شرقا ، بل إن هذه المخاصمة والمقاطعة غير مستطاعه الآن فى ظل ثورة الاتصالات القائمة فضلا عن احتمالات المستقبل ، ويصبح من المطلوب أن نصبح قادرين على الانتقاء والاختيار وألا يذوب كياننا القومى وألا تتمحى معالم ذاتيتنا الثقافية التى تجعل المصريين مسلمين ومسيحيين ،مصريين ، والعرب عربا والمسلمين مسلمين.

إن السبيل الأساسى لهذا الذى ننبه عليه هو لغتنا القومية.. لغتنا العربية . لا بد من التضافر بكل ما أوتينا من قوة وبكل ما نستطيع من سبل أن نمدها بأسباب القوة ، وقبل ذلك بأسباب العودة إلى حياتنا بعد أن أغار عليها الإعلام – وما زال – وقصر بإزاءها التعليم – ومازال- فأخذت تضعف شيئا فشيئا حتى كادت تصبح غريبة فى بلادنا العربية .

لغة النصر*

على الرغم من أن التجربة التاريخية معلم على درجة كبيرة من المصداقية ، إلا أن البعض إذ يفتقد الوعى التاريخى ، يعجز عن الاستفادة منها فيكرر أخطاء ثبت بعشرات الأمثلة ما هى عليه من تهافت ، من ذلك على سبيل المثال أن " الآخر " عندما يكون هو الأقوى يصبح من العبث مواجهته ، ومن الحكمة أن تعيش معه فى سلام ، إذ مما لا يخفى على كل ذى بصيرة أن مثل هذا السلام لن يكون إلا استسلاما مهينا ، لا يملك إزاءه الراضى به إلا أن يرضخ لما يملى عليه من شروط ، ولا يحصد الناهج له إلا الهوان !

كذلك فإن مما يقوم عليه هذا المنطق من خطا أنه يقوم على معنى ناقص للقوة ، فهى عند هذا النفر من الناس تتمثل فى قوة مسلحة، وربما يضيفون إليها قوة مادية وأخرى علمية ، لكنهم ينسون مظهرا أخر للقوة هو قوة الإرادة القائمة على الإيمان بحق تملكه ، ولا نريد أن نمل القارئ بالعديد من الأمثلة التاريخية ، ويكفى أن نذكر بما حدث فى فيتنام للأمريكيين من هزيمة منكرة على يد فريق امتلك قوة الإرادة ، وقوة الإيمان بحقه فى التحرر ، وإن لم يمتلك ما يماثل قوة غريمه من النواحى العسكرية والمادية والعلمية.

وعندما ألقت الثورة الفلسطينية السلاح قبل أن تبدأ التفاوض ، تصديقا منها لدعوات القوى المتخاذلة والقوى المهيمنة أن ذلك هو الطريق إلى نيل الحقوق الفلسطينية ، فقد أعطت بذلك للعدو الصهيونى أولى خطواته نحو إملاء شروطه ، وعبثا كنا- مع كثيرين غيرنا- ننبه إلى خطورة هذا ، خاصة وأن أطفال فلسطين قد أعطوا المثل الأعلى عندما استطاعوا "

---

* صوت الأزهر، العدد السابع والثلاثون ، ٩ يونيو ٢٠٠١

بالحجارة " أن يدوخوا الجيش الإسرائيلى ويرغموا قادته على البحث عن حل ، لكن حدث ما حدث، وإذا بالثورة الفلسطينية تدخل فى نفق مظلم من الاستجداء لم ولن تنل عن طريقه إلا فتاتا يستحيل أن يثمر أو يغنى من جوع.

كذلك فقد استطاعت قوى المقاومة اللبنانية بقيادة حزب الله أن تضرب لنا مثلا آخر ، لكن عددا من المتخاذلين كانوا يشككون دائما فى هذا الحزب ، ويتهمونه بالعمالة لإيران ، ولقد شاهدنا هذا بالفعل على لسان كاتبة صحفية فى إحدى المجلات القومية الأسبوعية على قناة فضائية عربية مما أشعرنا بالكثير من الخزى أن تبدو هذه الكاتبة وكأنها تعبر عن الرأى العام المصرى ، وشاء الله أن يخيب ظنونها فإذا بالجميع الآن يلهج بالثناء والتقدير لحزب الله ، وكيف استطاع فى فترة نذوق فيها مرارة انهزام عربى عام ، أن يرد لنا الروح ويجبر القوات الإسرائيلية على أن تهرب وتهرول عائدة إلى مواقعها فى فلسطين.

إننا نأمل من القوى المتخاذلة فى مختلف أرجاء الوطن العربى ، والتى لا تخطئ موقفها عين مراقب ومتابع لحركة الأحداث أن تعى الدرس جيدا فتكف عن ترديد هذه المقولة السخيفة ألا وهى مقولة العجز العربى وأننا لا نستطيع أن نواجه إسرائيل إلا بالمفاوضات ، فالمفاوضات التى تقوم بغير حراسة المقاومة عبث ما بعده عبث ، ولا تنتج إلا إذعانا مهينا يتلبس ثياب سلام ، ونأمل أن تثوب القيادة الفلسطينية إلى رشدها ، وإن لم تستطع أن تعيد سلاح المقاومة، فعلى أقل تقدير ألا تسلم من يسعون للمقاومة إلى أعدائنا وترشد عنها.

ولسنا فى هذا دعاة حرب ، فديننا تحيته الشهيرة تقوم على " السلام عليكم " ، ولكن السلام المطلوب لابد أن يكفل ألا يستأثر طرف بكل ما يريد ، ولا يكون أمام الآخر إلا أن يقنع بما يبقيه له ، ولن يتحقق التكافؤ فى نيل

المطلب إلا بتكافؤ فى موازين القوة ، وإذا لم نملك القوة العسكرية ، فإن للمقاومة مظاهرها التى أثبتت على مدى التاريخ القديم والمعاصر أنها هى الطريق القويم الذى يحفظ للأمة مكانتها ، ولا مكانة لأمة تفرط فى كرامتها بدعوى العجز عن المقاومة، وتوهما بإمكان قيام سلام يقوم على التفريط فى حقوق الأمة الأساسية .. وإلا فإننا نطلب منهم أن يتكبدوا بعض مشقة فعيدوا قراءة التاريخ ، وإذا كان هذا أمرا شاقا لدى البعض ، فأعيدوا النظر فيما حدث على يد " وكيل الأمة " ، كما أسميناه منذ مدة فى مقال فى هذا المكان – حزب الله !!

نعم مسلمون ... ولكن![*]

فى كثير من صور النزاع الفكرى التى تشهدها الساحة الثقافية فى عالمنا العربى يحرص فيها البعض على بيان رأى الدين – وفق اجتهاده – فى القضية مثار النزاع ، وينبرى بعض آخر للاستنكار ، مدافعا عن استنكاره هذا بقوله ، إننا جميعا مسلمون وحريصون على الإسلام ، ولا نقبل أن يتصور هؤلاء المفتون بأنهم وحدهم الذين يدافعون عن الدين وفق تصورهم ، وأن الذين يتهمونهم فى دينهم يدعمونه ويعززونه أيضا ولكن وفق اجتهاداتهم هم أيضا.

والحق أن هذه المسألة تحتاج إلى مناقشة... إن الأمر هذا شبيه بما يمكن أن يقوله البعض بأننا – بحكم الجنسية – كلنا مصريون ، ولكن هل يمكن أن نساوى فى المصرية بين " على خنفس " ، الذى خان الثورة العرابية عندما هبت تقاوم الغزو البريطانى ، وبين أحمد عرابى؟ المصرية " جنسية " تعطى قانونا بشروط حددها القانون ، لكن هناك من المصريين من لا يثقون فى بلادهم ولا فى الشعب الذى ينتمون إليه. وهناك مصريون يتفانون فى خدمة بلادهم ..هناك مصريون قد يبيعون أنفسهم لجهة مخابرات أجنبية ويبيعون أسرار وظنهم للأعداء .. وهناك مصريون قد يحتاجون إلى جنيه واحد يأكلون به ويرفضون ألوفا تعرض عليهم لخيانة بلادهم • ومن هنا فرقنا بين من يكون مصريا وكفى، وبين من يكون مصريا وطنيا.

وفقا لهذا القياس فقد يكون هناك مسلمون بحكم الميلاد ، وهو الغالب طبعا على الجمهرة الكبرى من المسلمين ، لكن هناك من لا يمارسون أى عبادة من عبادات الإسلام ، بينما يحرص بعض آخر على ممارستها ، فهل نساوى بين هؤلاء ونفر آخر ، إذ يمارس العبادات ، نجدها تنعكس على

---

[*] صوت الأزهر، العدد التاسع والثلاثون ، ٢٣ يونيو ٢٠٠٠

سلوكه فلا يأتى الفحشاء والمنكر ودائما ما يدعو ويعمل بالمعروف ويسعى إلى خير الناس؟ لكن المشكلة تكمن فيمن يصدر حكما على هذا بأنه مسلم حقيقى وذاك مسلم شكلا، وبان فلانا ليس له من إسلامه إلا أسمه وما دُوّن فى بطاقته وجواز سفره.

الحق أقول إنه على الرغم من أن هناك مظاهر كثيرة ومعايير مختلفة تمكننا من إصدار مثل هذه الأحكام ، لكننى لا أرى فتح الباب لأى إنسان كى يدعى قدرته على هذا ، فمثل هذا الباب هو الذى ينفتح للبعض بأن يعطى لنفسه حق التكفير ، وهذا خطر كبير لابد من تجنبه بحيث لا يمارس هذا الحق إلا سلطة الإفتاء الرسمى أو القضاء .. وما على الآخرين إلا الحوار مع صاحب الرأى المظنون بمخالفته لأصول الدين وأركانه .. حوار يلتزم عفة القلم واللسان ، ويستند إلى البراهين العقلية والأدلة المنطقية والنصوص الدينية ولا يترتب عليه عدوان وعنف ، حتى ولو بالكلمة، فما بالك بغيرها؟

الحرية لنا والإقصاء للآخر ..!*

كلنا يغنى للحرية ويحلم بها وينادى بالتمتع بها .. لكننا عند الممارسة نعكس موقفا ترجمته العملية ، أن تكون الحرية لنا فقط ، أما الآخر فلابد من إقصائه.. ولعل أبرز مثال لذلك أن الذين يفزعون من الغضب على عمل أدبى أو فنى يتجرأ على أساسيات العقيدة الدينية منطلقين من فرضية تقول إن للمبدع حرية مقدسة حيث أن العمل الإبداعى لا ينبت أو يزدهر إلا فى مناخ يقوم على الحرية بغير خوف من تسلط وقهر.

ولعل نموذجا، ضمن عشرات النماذج، يبين لنا أن التهمة التى نوجهها للطرف المقابل هى نفسها يمكن أن تنطبق على السلوك الذى نمارسه بكل الأسف وبكل الأسى تجاهه ، كيف؟ كانت نقابة الصحفيين قد دعت إلى مائدة مستديرة بعنوان " ثوابت الأمة وحرية التعبير" ، على أساس أن هذه هى القضية الأساسية التى شغلت الرأى العام طوال الشهر الماضى، وهو أمر مفروض أن تُشكر عليه النقابة، خاصة وأنها جهة يمكن وصفها بالحيادية إزاء القضية ، ولكن فلننظر إلى كيفية تغطية هذه الندوة صحفيا ؟

بداية يعترض أحد التحقيقات الصحفية على عنوان ندوة النقابة ، متسائلا بسخرية : هل هى الثوابت الفرعونية أو القبطية أو الإسلامية ؟ رغم علمه أن الذى أثير على الساحة كان ما يتصل بثوابت العقيدة الإسلامية ، ومع ذلك فيظل المبدأ قائما ، وهو النأى عن السخرية والمساس بكل ما يتفق عليه الجمع من الأمة من " ثوابت تدخل فى المقومات الأساسية للمواطن المصرى " ، سواء أكانت هذه المقومات مما ينتهى إلى الإسلام أم المسيحية أم الثقافة أم التاريخ ، وفى الوقت الذى تثار الدنيا فيه على المفكرين الذين يلقون الاتهامات على غيرهم ، يمارس التحقيق صورة أخرى من صور

---

* صوت الأزهر، العدد الأربعون ،٣٠ يونيو ٢٠٠٠

التكفير الأخلاقى فيشكك فى نية النقابة متهما إياها بأن اختيارها للعنوان يشير إلى وجهة غير بريئة لها !!

وعندما تنظم النقابة حوارا ، فمن المعروف أن الحوار لا يكون إلا بين مختلفين ، ومن ثم فكأن من الطبيعى أن تدعو النقابة أطراف القضية التى كانت مثارة ، سواء أكانوا من المؤيدين أو المعارضين ، لكن التحقيق – الذى يرفع راية الحرية – يوجه نقدا عنيفا للنقابة لأنها دعت واحداً ممن شاركوا فى كتابة تقرير مجمع البحوث الإسلامية ! فهل كان المراد أن يكون المشاركون فى الحوار من طرف واحد فقط ؟ إذا فلن يكون حوارا ولكن " مظاهرة " وهو الأسلوب المعتاد فى حياتنا الثقافية ، فما يسمى بالحوارات ، ليست حوارات ولكنها " مظاهرات ثقافية" ، إذ يدعو كل طرف أنصاره " للتفاكر " حول قضية ما، دونما محاولة لتحقيق هذا الشرط الجوهرى " للحوار " ، وهو أن يكون بين مختلفين .

ويبدو أن هذا النهج هو سر هذا النقد والهجوم الذى نسمعه ونقرأ عنه بين حين وآخر على البرنامج الشهير فى قناة الجزيرة بعنوان " الاتجاه المعاكس " لأنه نموذجى فى تحقيق هذا الشرط الذى أشرنا إليه بينما عقليتنا لم تتعود عليه بعد. وعندما يقف بعض الناصريين دفاعا عن الدين ناقدين محاولات المساس به، يسارعون فى اتهامهم بأنهم يتحالفون مع الإخوان المسلمين ضد الإبداع !! فالمطلوب إذن أن يقف كل إنسان مع هذا الطرف الذى نشير إليه وإلا سلطت عليه سهام التكفير السياسى والعياذ بالله !!

هل أخجل من عروبتى*

منذ أن هيا لى الله فرصة السفر إلى الخارج لأول مرة عام ١٩٧٥ لحضور مؤتمر تأسيس اتحاد التربويين العرب فى بغداد ، وأنا أعتبر نفسى من " المجنونين" بالعروبة ، وكم أشعر برعب شديد أن تقترب منى هذه الأيام لحظة أشعر عندها بالخجل من عروبتى!

ومن قبل ، فعلها الزعيم الليبى القذافى ، وأعلن أنه يكفر بالعروبة وارتمى الرجل فى أحضان الأفريقية ، وعلى الرغم من أنى كنت ضمن منتقديه فى ذلك، إلا أننى الآن بدأت ألتمس له العذر ، فالكل كان يعرف أن الحصار على ليبيا كان أكثر من ظالم وأنه صورة من صور العقاب لدولة أرادت أن تخرج من بيت الطاعة الأمريكى ، ومن بين واحد وعشرين دولة عربية لم يجرؤ أحد من الزعماء على أن يخترق الحصار ويركب طائرته ويزور ليبيا ، لكن عددا من الزعماء الأفريقيين فعلها ، فماذا حدث لهم؟ لا شئ ، لأن التحرك لم يكن فرديا ، " وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية منها " ، فماذا لو كان عدد الزعماء العرب فعلها قبل الزعماء الأفريقيين جماعة ؟

وها هو سيناريو مماثل قد بدأ يحدث بالنسبة لشعب العراق. وأنا واحد ممن يؤمنون إيمانا جازما بأن الغزو العراقى المشئوم للعراق فى صيف عام ١٩٩٠ كان من أقذر الجرائم التى شهدها التاريخ العربى فى العصر الحديث وأبشعها، وأكثر إضرارا بالأمة العربية، كما أؤمن إيمانا لا يتطرقه شك بأن حاكم العراق هو من أسوا من شهدتهم الأمة العربية من حكام.

لكنى فى نفس الوقت أومن إيمانا أكثر رسوخا بشعب العراق وعراقته الحضارية وأحقيته فى الحياة وأنه قد تلقى أكثر مما يكفى من العقاب ، وبالتالى فقد أن الأوان لأن ترفع هذه الغمة من عليه.

---

* صوت الأزهر، العدد السابع والأربعون ، ١٨ أغسطس ٢٠٠٠

والدول العربية التى تعجز عن الاتفاق على عقد اجتماع على مستوى القمة منذ فترة مع أن مصيرا خطيرا يتهددها ونحن بإزاء ما يسمى بالحل النهائى للمشكلة الفلسطينية وثالث الحرمين الشريفين تحيط بها النمور والسباع والأفاعى ، هذه الدول العربية تجتمع – بكل الحزن والأسى – على استمرار تجويع الشعب العراقى متناسين أن كل نقطة دم تنزف من شعب عربى هى خصم من دماء القوة فى المجموع العام.

إنها الحجة الواهية : احترام الشرعية الدولية ! وهى نكتة سياسية حقا، وإلا فكم من قرارات دولية خرقتها إسرائيل وتجاهلتها ، ومع ذلك هرول البعض لإقامة علاقات معها علنا والبعض سرا، فهل هذا حلال لإسرائيل حرام على شعب عربى؟ وإذا كان العراق قد أخطأ بما فعله تجاه الكويت فكم مرة أخطأت إسرائيل تجاه العديد من الدول العربية ؟ أم هذا حلال لدولة الصهيونية وحرام على شعب العراق ؟

ها هو فارس شجاع ، من أمريكا الجنوبية يملك الجراءة فى الحق، فيتجاهل الحصار البشع اللاإنسانى ويزور العراق .. لكن زعيما عربيا لم يفعلها! ثم ها هو زعيم أخر .. عبد الرحمن وحيد رئيس اندونيسيا يستجيب لنداء الضمير، فيعلن عزمه على أن يفعل ما فعلة الرئيس الفنزويلى .. فمتى نسمع ونرى زعيما عربيا يفعل مثل هذين الزعيمين غير العرب ؟

ثلاث حالات*

هى حالات ثلاث أرجو ألا يظن القارئ إنها وحيدة ، وإنما هى " عينة" من بين آلاف مثلها أردت أن أشرك القارئ معى فى دلالتها على مأزق كبير يعيشه مواطنون من هذا البلد .. هو طبيب تخرج فى أواخر السبعينيات كان يعشق دراسته وسعى إلى أن يحصل على درجة الماجستير فى الطب النفسى ، مع أن حصول أحد على مثل هذه الدرجات من خارج الكلية أمر جد عسير ، لكنه لم يستطع الاستمرار، فهو يريد أن يتزوج ويكون له أولاد ، وما يتلقاه لم يكن يكفى أبدا، فكان أن خرج مثل مئات الألوف للعمل فى بلد عربى وعاد بعد سنوات يريد أن يحقق حلم حياته : أن تكون له عيادة ، وأن يكمل دراساته العليا .

فإذا بما عاد به من مال يتبخر فى مجرد الحصول على شقة وفرشها ، ويعجز عن فتح عيادة ويواجه عجز الإنفاق بعد أن أصبح " ذا عيال " ، ثم يجد نفسه مضطرا إلى العودة للعمل بالخارج مرة أخرى مضحيا بالدراسة ، ولأن البلد الذى ذهب إليه يضع شروطا لإقامة الأولاد ذهب بزوجته وابنتيه وترك ابنه ذى السبعة عشر عاما وحده لأول مرة فى حياته ، مع ما هو معروف من نتائج متوقعة لشاب يعيش منفردا فى مثل هذه السن من آثار نفسية ومخاطر فساد ..

أما الثانى فهو عضو هيئة تدريس بدرجة " أستاذ " .. لم تعد السنوات المسموح بها للإعارة تكفى ، فولداه بكليتى الطب والصيدلة يكلفانه شهريا ألوفا مؤلفة من الجنيهات ، دروساً خصوصيا ، وكتبا وأدوات فاضطر إلى أن يجئ بعقد عمل لزوجته ليكون مرافقا ويكمل مشواره ، ولا تريد الجامعة أن تعطيه إذنا بالعمل مع أن الجميع يعرف أن المرافق لابد أن يعمل ، نسأل

---

* صوت الأزهر، العدد الثامن والأربعون ، ٢٥ أغسطس ٢٠٠٠

: ما دام القانون يسمح له بمرافقة الزوجة ، فلماذا لا يؤذن له بالعمل ؟ أم أن الأصح أن يجلس بالمنزل خارج مصر لتتفق عليه زوجته ؟

وأفزعتني الثالثة ، وهي تخبرني بأنها سوف تسافر للعمل بإحدى الدول العربية ذلك لأنها باحثة تدرس معي من الطراز الممتاز ، وهي على وشك الانتهاء من رسالتها للدكتوراه ، ويمكن لها أن تنتقل من عملها كمدرسة بوزارة التربية للجامعة، وأسألها متضايقاً : لماذا السفر ؟ وتجئ الإجابة أنا متزوجة منذ عشر سنوات ، وزوجي المدرس بالجامعة لا يعود يوميا إلا بعد ما يقرب من خمسة عشر ساعة محاضرات هنا وهناك ، وقلما يرى أولاده ، ومع ذلك فمازلنا نسكن في شقة متواضعة في منطقة غالية في التواضع ونتشعلق في المواصلات العامة أنا وأولادي الصغار الثلاثة ... وهي لن تستطيع مواصلة الدراسة في الخارج فسوف تكون في منطقة وزوجها في منطقة أخرى ويضيع اليوم دائماً ما بين العمل والسفر الداخلي !

إننا نكرر دائما الإلحاح على مشاعر الانتماء والولاء للوطن ونذيع الأغاني التي تتغنى بمصر .. أغلى إسم في الوجود ، ولكن قبل كل هذا فلابد ألا ننسى أن الشعور بالوطن هو الشعور بالأمان.. الأمان الاقتصادي ، والكرامة الشخصية .. وهذه الحالات الثلاث هي أمثلة صارخة لآلاف المواطنين الذين اضطروا للخروج لأنهم لم يجدوا في وطنهم الحدود الدنيا التي تجعلهم يشعرون بمقومات الانتماء والولاء..

وباء المحمول*

سألنى أحد المعارف عن رقم تليفون منزلى فأعطيته له، ثم سأل عن تليفون مكتبى ، فحصل عليه كذلك ، ثم إذا به يسألنى : وتليفونك المحمول ؟ قلت : ليس لدى هذا الذى تتحدث عنه ! ويبدو أن الأمر كان مدعاة لشديد اندهاش لديه مما رأيته من علامات على وجهه ، ولم ينتظر طويلا ، إذ بادر بالتعليق قائلا : دا أصبح فى أيدى " العيال " على الأرصفة فى كل مكان ، فكيف لا يكون معك وأنت الأستاذ الكبير " هكذا " ، قلت على الفور ، لهذا السبب ياسيدى – أن يكون فى أيدى حتى " العيال" الذين يتسكعون فى الشوارع – أصبحت عازفا عزوفا كليا عن حمله ، وإن كنت قد أهديته لزوجتى ولابنتى وابنى " المتزوجين" ، أما أنا فمازلت حتى الآن مصرا على مقاطعته ! فعندما ظهر هذا المحمول كنت فى مقدمة السعداء به ، وفهمت أنه ليس لكل إنسان وإنما لفئات متعددة عملها يحتاج إلى مكالمات إسعافية ، مثل الصحفيين ، الأطباء ، الفنانين ، رجال الأعمال ، الأمهات ، رجال الإدارة العليا .. وهكذا ، أما أن يحمله كل من هب ودب فإنه يتحول بذلك إلى سفه و " منظرة " واستنزاف رهيب مخجل للطاقات المادية والوقت ، إلى الدرجة جعلت منه بالفعل مرضا وبائيا انتشر فى كل مكان.

لا أقصد بمرض المحمول تلك الآثار السلبية على الصحة التى تتناقلها وكالات الأنباء ، إذ لا أزعم لنفسى فهما صحيحا لها ولا طاقة لى بمتابعة الأبحاث التى أجريت أو تجرى حولها ، ولكنى أقصد ما تحول إليه من أثار اجتماعية واقتصادية سلبية تحتاج إلى بحث عن شركات المحمول!

فهؤلاء الألوف من الصبيان والبنات صغار السن المتسكعين على الأرصفة والنوادى والشوارع ، لا يكاد يفارق أسماعهم : فى ماذا

---

* صوت الأزهر، العدد التاسع والأربعون ، ١ سبتمبر ٢٠٠٠

يستخدمونه؟ فى الدردشة وحكى الحكايات وتناقل الإخبار دقائق طويلة ، وكل دقيقة بمبلغ وقدره ، فكم من مئات الجنيهات يكلفونها أباءهم وأمهاتهم؟ وكم من الوقت يستهلكونه. وكم من الصحة يتلفونها. إنه إحدى الوسائل التى " ثلجت" العلاقات الإنسانية ، فعلى قدر ما نقر فيه بأن وسائل الاتصال الحديثة قدمت الكثير من التيسيرات لحياتنا الحديثة ، لكن من أبرز أثارها السلبية أنها قللت فرص التلاقى المباشر بين الناس ، فأصبحوا يميلون إلى التعامل عبر أسلاك التليفون والفاكس ، ولم تعد هناك ضرورة لهذه الزيارات العائلية المنزلية، وجلسات الأصدقاء والسمر، فلا وقت عندنا ، والكل يلهث ، ما دام مثل هذا اللهث يدر نقودا ، أما أن تختفى قيم وتضمحل علاقات أو تبرد أو تتوارى من حيث الأهمية " فلا شئ يهم" ، على رأى الراحل إحسان عبد القدوس!

بل إن " الشأن الخاص " لم يعد " عورة " نداريها ..

وقس على هذا من مظاهر هى مظاهر مرض اقتصادى واجتماعى وثقافى حقيقى، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

شبهات فى الوحدة الوطنية*

من الأحاديث التى تتردد من حين لآخر وخاصة منذ أوائل السبعينات ذلك الحديث المتصل بالوحدة الوطنية ، وعندما يشير أحد فى مصر إلى هذه الوحدة ، فهو يعنى بذلك العلاقة بين المسلمين والأقباط ، هذا الحديث الذى يغلب عليه التأكيد على نفى أية شروخ بين الفئتين ، وهذا النفى يكون عادة ردا على شبهات تتردد لدى البعض فى الداخل أو الخارج بأن هناك حقوقا للأقباط مغيبة ، مما يشير إلى " اضطهاد لهم " واعتراف مقدما أن الحديث فى هذه القضية طريق ملغوم بكم كبير من الحساسيات ، لكن المواجهة الصريحة الصادقة لابد منها، فمصر بلدنا جميعا وليست حكرا على فئة دون أخرى ، ومن ثم فإن أية شبهات تريد أن تنال من قوتها الداخلية تكون بحاجة أكثر من غيرها أن تكشف ، وخاصة فى مثل الوقت الحالى الذى لا تثور فيه هذه القضية ومن ثم فلربما يساعد المناخ الهادئ البعيد عن التوترات على تفكير أكثر جدية وردود فعل بعيدة عن العصبية والانفعال.

وجوهر القضية يكمن فيما يقال من " تفرقة " تميل إلى صالح المسلمين ، والذى أود لفت الانتباه إليه أن المسألة قد بولغ فيها أكثر من اللازم لأن صور التفرقة والتمييز لا تقتصر فقط على المسلمين والأقباط وإنما قامت وتقوم فى فئات متعددة ، وشرائح اجتماعية مختلفة ، ولعل أشهرها- وإن كانت قد خفت إلى حد كبير – ذلك التحيز الذى كنا نراه بين أبناء أقاليم مختلفة فى مصر، وأذكر وأنا مجند بالجيش فى أول الستينيات أن كان التمييز صارخا داخل الوحدة التى التحقت بها، فقد كان " شاويش " المجموعة التى انتمى إليها من المنيا ، ومن هنا كان يسأل ويهتم جدا بالمحافظة التى أتى

---

* صوت الأزهر، العدد الخمسون ، ٨ سبتمبر ٢٠٠٠

منها المجند ، فإذا كان منياويا، يصبح محظوظا بالامتيازات فـــى المأكـــل والخدمة والإجازات .

ونظرا لأن ثورة يوليو ثورة عسكريين ، شهدنا كذلك تمييزا صارخا لصالح العسكريين سنوات طويلة ، وكان المبرر الذى يساق هو أن الشخصية العسكرية تتميز بالضبط والربط والقدرة على الحسم والتنظيم ، هذا فـضلا عن حاجة قادة الثورة إلى من يثقون فى ولائهم ، وكان المدنيين مشكوك فى ولائهم!! وداخل العسكريين كانت هناك صور أخرى من التفرقة ، فكثيرا ما كنا نرى. مثلا – أن هذا الضابط محظوظ ونو حيثية لأنه من دفعة شـــمس بدران صاحب السطوة الكبيرة حتى هزيمة يونيه ١٩٦٧، وأن هـــذا أو ذاك من " شلة المشير " ، إذ كان هذا يعنى أن تفتح له الأبواب على مصراعيها!

وغنى عن البيان هذه التفرقة التى كانت تبنى على أساس " العصبيات العائلية " بحيث إذا هيئ لواحد من عائلة ما كبيرة أن يحتل موقعـــا مرموقـــا يكون هذا إيذانا بأن " يجر " وراءه عددا غير قليل ممن ينتمون إلـــى نفـــس العائلة، بحيث يحظى أبناء عائلة المسئول بالعديد من الامتيازات.

فإذا لاحظنا أن بعضا من هذا الذى أشرت إليه قد بدأ يختفى تدريجيا، فبسبب زيادة نسبة الوعى والتعليم وأن أية صورة من صور التفرقة بين أبناء الوطن الواحد إنما هى علامة تخلف ، ولا سبيل لمواجهتها إلا بالديمقراطية، ومزيد من التقدم العلمى والفكرى.

درس النصر*

فى نفس الشهر الذى سبق أن شهد العرب فيه هزيمتهم الأولى ، مايو ٤٨ ، إذا بهم يشهدون فى الخامس والعشرين من مايو العام الحالى انتصار أول حركة تحرير شعبية عربية فى العصر الحاضر ، فلقد اضطرت إسرائيل إلى سحب جندها المدجج باقوى الأسلحة ، من الجنوب اللبنانى تحت ضربات حزب الله ، والذى لا يملك واحدا على ألف مما تملكه إسرائيل من العتاد العسكرى وفسر باراك – رئيس الوزراء الإسرائيلى – هذا الانسحاب بقوله : إنه لم يكن فى مقدور إسرائيل فى ظل الحكومات المختلفة قتل كل بعوضة فى لبنان ، وكان الحل الأفضل هو إغلاق المستنقع !!

وهكذا تشير كل الدلائل إلى أن انسحاب إسرائيل من لبنان كان نتيجة مقاومة باسلة مستعدة للتضحية وتحمل الضربات ، دون أن تشيع فى جنودها وأعضائها بوادر إحباط ويأس بزعم القوة المهولة التى تملكها إسرائيل ، واستطاع حزب الله – حسب تعبير د. إدوارد سعيد – أن يمارس حرب حركة كشفت ترهل ولا فاعلية قوات إسرائيل على الرغم مما تحفل به التقارير الدولية عن تفوقها العسكرى أرضا وجوا ، وقدراتها التدميرية الساحقة ، فيما أثبت مقاتلو حزب الله حنكة وشجاعة أكثر بكثير من جنود الجيش المحتل الذين عانوا من الإحباط والخوف .

ولم تستبد نشوة النصر بحزب الله بحيث يركبه الغرور الذى يدفع إلى قلة التبصر ويقلل من فاعلية منهج الرشدانية السياسية فى التعامل مع نتائج النصر ، ومن هنا قرأنا فى خطاب الحزب ما عمد إلى أن يوضحه للجميع من نهج اعتدالى ، فلم ينسب الانتصار للحزب وحده على الرغم من دوره المركزى فى المقاومة ، وإنما لقوى كثيرة ، منها الشعب اللبنانى نفسه الذى

---

* صوت الأزهر، العدد الثالث والخمسون ، ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٠

كان ظهيرا أمنا للمقاومة ، والمحرومين من أبناء الجنوب ، والحكومة اللبنانية التى لم تضيق الخناق على الحزب أو تمنعه ، وإنما شجعته ونسقت معه ، ومن مظاهر ذلك أن الرئيس إميل لحود كان يعتبر المقاومة الذراع الضاربة ، ويتصرف سياسيا ودبلوماسيا على هذا الأساس ، وكانت هناك أيضا القوى السياسية والحزبية المختلفة التى آزرت جهود حزب الله فى المقاومة .. وقد أدت هذه النقلة النوعية فى التعامل مع المقاومة اللبنانية ، إضافة إلى الإجماع الشعبى عليها ، بحيث إنها لم تكن على الإطلاق مقاومة فئوية ، بل مقاومة شعبية ، يقودها حزب الله .

ومن هنا فلابد أن نصغى جيدا وبجدية إلى تصريحات المفكر الفلسطينى المعروف د. أحمد صدقى الدجانى من حيث حثه على إعطاء انتصار المقاومة اللبنانية على إسرائيل حقه وتوظيفه لمواجهة الغطرسة الإسرائيلية ، حتى يتم الاعتراف بكثير من الحقوق العربية التى لم تنل بعد ، ومنها الانسحاب من هضبة الجولان ، والإقرار بما للفلسطينيين من حقوق ثابتة فى الأرض المحتلة .

كذلك جاء فى هذه التصريحات أهمية الالتزام بنهج المقاومة بمعناها الشامل وبجميع أشكالها وصورها ، كل حسب قدرته ، ووفق ظروفه ، حتى تتخلى إسرائيل عن نزعتها العنصرية وتفئ إلى أرض السلام الذى لا ينبغى أن يعنى أن تنفرد هى وحدها بالحصول على ما تقول به من حقوق .

ولقد بدأت توا أصداء الانتصار نراها فى المسار الذى سارت إليه آخر مفاوضات بين السلطة الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية ، بمشاركة أمريكية على أعلى مستوى ، فهناك قوى فى إسرائيل شعرت بالإهانة الواضحة خلال الانسحاب ، وتريد أن تعوض ذلك ، ومن هذا يجئ تشدد باراك فى مباحثات الوضع النهائى مع الفلسطينيين ، وفى المقابل فإن عرفات شعر بكثير من الحرج أمام الفلسطينيين الذين رأوا كيف أدى نهج المقاومة المسلحة أن

تنسحب إسرائيل مرغمة من غير أن توقع على اتفاق ، فإذا به يقف موقفا مغايرا إلى حد ما عن مواقفه السابقة ، ويصر على عدم إعطاء مزيد من التنازلات بغير مقابل لا يقل عنها قيمة ووزنا ، وهكذا تفشل تلك المحادثات !

وبدأت أصوات متعددة تسمع مرة أخرى من بين فلسطينى الأرض المحتلة تشير إلى احتمال العودة إلى المقاومة ، ومن هنا فقد أصدرت لجنة العشرين ، وهى مكونة من عشرين شخصية فلسطينية لها مقامها وقدرها فى الوجدان الفلسطينى ، مثل بسام الشكعة وأخرين ، بيانا ثابت بعنوان " الوطن يناديا " يؤكد على ضرورة أن النهج وفق الطريق الذى سلكه حزب الله فى لبنان ، ألا وهو طريق المقاومة ينبغى أن يكون خيارا مطروحا بشدة ، وأنه لا خيار إزاء الإخفاقات المتتالية للنهج التفاوضى ، وخاصة منذ أوسلو ، وكان بيان أول قد صدر من قبل ذلك بعدة شهور يحمل نفس العنوان " الوطن يناديا " يحث السلطة الفلسطينية على العدول عن النهج التفاوضى .

لكن الموقف المريب الذى اتخذته الأمم المتحدة من مسألة الانسحاب الإسرائيلى من الجنوب اللبنانى فى البداية كان متحيزا للجانب الإسرائيلى ، وكان يمكن أن يضعف هذه الفرحة الغامرة التى أمتلأت بها قلوب الجمهرة الكبرى من أبناء الوطن العربى ، وهو ما يذكرنى بتلك الأحداث التى تداعت فى أعقاب الانتصار المدوى لنا لأول مرة على الجيش الإسرائيلى فى أكتوبر عام ١٩٧٣ ، فسحبت كما غير قليل من مشاعر الفخر والفرحة التى غمرت قلوبنا جميعا .

فلقد صرح مصدر لبنانى رفيع المستوى لصحيفة الحياة بأن الأمين العام للأمم المتحدة كوفى عنان اتصل بالرئيس اللبنانى لحود بعد ظهر الجمعة ٦/١٦ وقال له : إنه أنهى اتصالا للتو مع باراك الذى أبلغه أن القوات الإسرائيلية أنهت انسحابها ، فكان رد الرئيس لحود : أن باراك ليس هو الذى يقرر إذا كان الانسحاب قد اكتمل ، فهناك فريق لبنانى عسكرى –

تقنى على الأرض يقوم بمعاينة الانسحاب مع قوات الطوارئ ، وحين يعود رئيس الفريق العميد أمين حطيط بالنتائج نستطيع أن نقول إذا كانوا قد أكملوا انسحابهم أم لا ، خصوصا وأنه قد تبلغ أن هناك مناطق بالفعل لم ينسحبوا منها !

ومع ذلك فقد اجتمع مجلس الأمن يوم السبت ليصادق على تقرير قدمه عنان يزعم فيه أن الانسحاب قد اكتمل ، بينما أكدت مصادر الفريق اللبنانى أن تقرير عنان صدر قبل ساعتين وثلث الساعة من الاجتماع الذى عقده الفريق اللبنانى مع فريق الأمم المتحدة فى مقر قوات الطوارئ فى الناقورة .

وأشارت ملابسات تقرير عنان إلى أنه لم يكلف نفسه عناء أن يسأل الدولة صاحبة المصلحة الأساسية فى الانسحاب وهى لبنان ، بينما يتطلق قرار مجلس الأمن المعروف رقم ٤٢٥ بهذا الانسحاب الإسرائيلى من الأرض اللبنانية .

وأشارت جريدة " الحياة " نقلا عن مصدر لبنانى تعبيرا عن دهشته لاستعجال عنان فى رفع تقرير باستكمال الانسحاب قبل التأكد من الطرف اللبنانى أن هذا الاستعجال تم بحجة سرعة إبلاغ مجلس الأمن قبل سفر عنان فى جولته إلى بلدان الشرق الأوسط ، فهل كان على الأمم المتحدة انتظار الانسحاب ، خاصة وأن إسرائيل سجلها متخم بتلك العادة التى مارستها منذ أولى اتفاقياتها للهدنة عقب انتهاء حرب ٤٨ من سرعة " قضم " المزيد من الأراضى ، أو استبقاء بعض منها حتى تزيد من مساوماتها ؟ .. وهل ننسى تلك المساحة الصغيرة التى أبقتها فى حوزتها فى طابا حتى أجبرت بحكم قضائى دولى على التخلى عنها ، ويومها كان البعض زاعمين أنها مساحة صغيرة للغاية ، وكان الرد المشرف أن المسألة سيادة أمة وسيادة دولة ، التى لا ينبغى أن تخضع للمساومة حتى ولو على متر واحد .

ولقد ظللنا عدة أسابيع ننظر إلى ماذا سوف تنتهي إليه المسألة ، وأظهر ما تأكد إصرار حزب الله على ألا يلقى السلاح كما وعد على أساس أن الانسحاب لم يكتمل ، وطالما ظلت مساحة ما من الأراضي اللبنانية تحت الاحتلال فمن حق المقاومة أن تعاود نضالها .. وهكذا أثمر الموقف الصلب للحكومة اللبنانية ومعها حزب الله ، صامين آذانهم عن تلك الأصوات المتخاذلة بالاحتياج ونقد المقاومة إذا حققت إنذارها ، وكأن لسان هذه الأصوات يقول : فلنحمد الله على هذا الانسحاب الإسرائيلي ونقنع بما تم ! إنه درس عظيم من بلد صغير عسكريا ، لكنه كبير بإرادته ، وهو أيضا عودة إلى مقولة عبد الناصر " أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة " .

عودوا من حيث جئتم *

منذ أواخر القرن التاسع عشر بدأت إرساليات دينية أمريكية فى المجئ إلى مصر ، والمفروض أن أهل مصر جميعا ممن يؤمنون بالله جل شأنه مسلمين ومسيحين ، فما الذى كانت تستهدفه هذه الإرساليات ؟ كانت تستهدف تحويل أبناء مصر من المسلمين إلى المسيحية ، وتحويل أبناء مصر من الأقباط من الأرثوذكسية إلى البروتستانتية ، فضلا على أهداف سياسية واقتصادية لا تخفى على أحد.

وكانت الكنيسة القبطية على درجة عالية من الوعى الوطنى والدينى الذى جعلها تدرك جيدا أهداف هذه الإرساليات، فكان أن سعت إلى حث الأقباط على ألا يرسلوا أبناءهم إلى مدارس هذه الإرساليات الأمريكية.

ويصف المبشر " يوهنا هوج " فيما يروى الراحل ووليم سليمان قلادة فى دراسة له عن تيارات الفكر المسيحى فى مصر، مقابلة جرت بينه وبين البطريرك بحضور القنصل الأمريكى حاول فيها القنصل أن يقنع البطريرك بالعدول عن مقاطعة الإرسالية وقال له : إن هؤلاء المرسلين الأمريكان لا يعلمون الناس إلا الإنجيل الظاهر ، فكان ينتظر أن تكون غبطتكم شاكرا أفضالهم لأجل الخير الذى يفعلونه لأولاد الأقباط وغيرهم ، فرد البطريرك العظيم فى حدة : الإنجيل الطاهر؟! وهل الأمريكان وحدهم الذين عندهم الإنجيل ، ولماذا لا يعلمونه لعبيدهم " الزنوج " إذا كان عندهم الإنجيل ؟ إن الإنجيل عندنا قبلما تولد أمريكا فى الوجود ، إجابة واعية ذكية من رجل وطنى حقا .

هل نحن بحاجة إلى بيان الأدلة التاريخية والوقائع الحديثة والمعاصرة التى تشير إلى ما عاناه المسلمون منذ قرون فى الحروب الصليبية ، ثم عن

---

* صوت الأزهر، العدد التاسع والسبعون ، ٣٠ مارس ٢٠٠١

طريق الحركات الاستعمارية طوال العصر الحديث من صور حصر لها من العدوان والتعسف والاضطهاد من جانب قوى الهيمنة الاستعمارية فى الغرب ؟ لا أظن ، ومع ذلك فها هم الاستعماريون الجدد ، أبناء العم سام ، يرسلون إلينا ، وفى عقر دارنا بلجنة للتحقيق من مدى اضطهادنا لإخواننا الأقباط فى مصر الذين أوصانا بهم النبى – صلى الله عليه وسلم– خيرا.

لست فى حاجة أيضا لأن أسوق العديد من الأدلة والبراهين المؤكدة على أن الإسلام – بحكم مبادئه وتوجهاته وأخلاقياته – لا يمكن أن يقر اضطهادا على وجه العموم لمن لم يرتضه دينا، وخاصة من المسيحيين ، وأن مصر بصفة خاصة عرفت منذ فجر التاريخ بالتسامح الدينى والتجانس بين أبناء الوطن على اختلاف مللهم ونحلهم ، وإذا كان الأمر لم يخل من حوادث هنا أو هناك فإن غالبيتها كانت لأسباب " مدنية " وليست دينية مثل تلك التى تقع بين المسلمين أنفسهم.

إن الأمر ينبغى أن يؤخذ فى سياقه المجتمعى العام ، ففى الفترة الأخيرة بدأنا نرى وقائع غريبة شاذة لا تتفق أبدا مع المسيرة التاريخية للمصريين ، رأينا تلاميذ يعتدون على معلميهم ، ورأينا زوجات يعتدين على أزواجهن ، ورأينا أبناء يعتدون على أبائهم ، بل وعلى أمهاتهم ، إلى غير هذا وذاك من وقائع لابد أن نشير إلى خلل مجتمعى عام ، بحيث لا تصبح بعض الأحداث التى وقعت أو تقع جزءا من هذا السياق المجتمعى .. لكن ما حكاية هذه اللجنة الأمريكية؟

لقد بدأت المسألة عندما كتب محام يهودى مقالا فى صحيفة " وول ستريت " عام ١٩٩٥ يريد أن يعقد تحالفا بروتستانتيا يهوديا ضد المسلمين ، فأخذ يذرف الدموع متباكيا على ما ادعاه من أحوال سيئة للمسحيين الذين يعيشون فى بلدان إسلامية ، دون أن يعمم القضية فيشير إلى ما يعانيه المسلمون فى بلد اليهود، إسرائيل ، وكان هذا بداية حركة واسعة انتهت

أخيرا بما سمى بقانون الاضطهاد الدينى ، وتشكلت من عشرين شخصا يمثلهم فى الزيارة التى تقوم بها إلى مصر، ثلاثة أبرزهم : إليوت إبرامز وهو رئيس اللجنة، عمل فى معهد هيدسون وهو معهد متخصص فى الشئون الدينية المسيحية- الصهيونية ، وهو حاليا عضو فى مجلس الشئون الدولية الخارجية والمجلس الاستشارى للجنة الأمريكية اليهودية، وهو يهودى عرف بالتعصب.

لكن المصريين الوطنيين الذين لا تخفى عليهم أهداف هؤلاء كانت لهم مواقفهم الرافضة، وعلى رأس هؤلاء لابد من التحية للبابا شنودة الثالث الذى رفض استقبال اللجنة ، على أساس أن أقباط مصر يرفضون أى تدخل أجنبى فى شئون مصر الداخلية ، وأنه إذا كانت هناك مشكلات فأقباط مصر قادرون على حلها اعتمادا على جهودهم الخاصة، وبالتعاون مع إخوانهم المسلمين ، كما جرت العادة عبر قرون طويلة ماضية ، وتواصلت صور الرفض فأصدرت مجموعة من الكتاب والمفكرين والصحفيين وأساتذة الجامعات من مسيحى مصر ومسلميها بيانا أدانت فيه مهمة هذه اللجنة.

لو كان هؤلاء الأمريكيون حريصين بالفعل على حرية العقيدة ويبحثون عنها فى مختلف دول العالم لرفعنا لهم يدنا بالتحية ، فما من أسبوع يمر منذ بداية انتفاضة الأقصى إلا وتطالعنا شاشات التليفزيون فى مختلف القنوات العربية وغير العربية بجموع المصلين المسلمين الذين يفترشون الساحات الخارجية والشارع حتى يمكن أن يؤدوا صلاة الجمعة خارج المسجد الأقصى لأن سلطة الاحتلال تمنعهم من ممارسة شعيرة أساسية من شعائر دينهم ، لكن هذا لا يلفت نظر اللجنة الأمريكية.

إننا نعترف حقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية ربما كانت أكثر من غيرها ، من حيث أنها تتيح فرصا ملحوظة للمسلمين وغيرهم لممارسة عقيدتهم داخلها، لكن المشكلة أنها تقف موقفا مغايرا خارج حدودها ، فلا

يقض مضجعها ما يتعرض له مسلمون فى بلد مثل ألمانيا ، وأحيانا فرنسا ، وبعض البلدان الأوربية الأخرى ، وماذا نقول عما حدث ويحدث فى الشيشان؟ يقولون إنها حركة انفصالية ، فلماذا شجعوا انفصال سكان تيمور الشرقية عن اندونيسيا ؟ وكذلك ما ظل يحدث عدة سنوات فى البوسنة والهرسك ، والمقابر الجماعية التى تكتشف بين حين وآخر لجموع من المسلمين ذبحوا وقتلوا وقطعت أوصالهم وبقرت بطونهم؟

أيها الأمريكيون ... عودوا إلى دياركم ، صيحة يصرخ بها فى وجوهكم كل من يحمل الجنسية المصرية مسلما كان أو مسيحيا.

إسلامو فوبيا*

منذ فترة غير قصيرة وأنا أتابع ما ينشر فى الصحف والمجلات من مظاهر تؤكد مدى الظلم الذى يتعرض له الإسلام والمسلمون من قبل القوى العالمية وخاصة تلك التى ترفع راية حرية الفكر والعقيدة وتتدد بالتفرقة العنصرية وتتنادى بالسلام والتعايش السلمى بين الأمم والشعوب ، حتى لقد تضخمت المادة التى حصلت عليها وأصبح من الممكن أن تشكل مادة كتاب كامل.

لكننى أثناء هذا لاحظت بكل الأسف وبكل الأسى ، أن كما غير قليل من مادة ممائلة تصدر من هنا من دول إسلامية ، بل ويالليهول ، على رأى الراحل يوسف وهبى ، ومن داخل بلدنا مصر، أى والله حتى أدى بى هذا أن أصرف النظر عن الموضوع الأول ، إذ لم نعد فى حاجة لأن نثبت ونبرهن على تلك المعركة التى تخوضها قوى عالمية ضد الإسلام والمسلمين ، وأظهر مظاهرها، أنه على الرغم من انتهاء الحروب الساخنة والباردة ، فإن الدم الوحيد الذى ما زال يراق على الأرض ربما كل يوم إنما هو دم مسلمين.

وإذا كان عداء قوى الخارج للإسلام والمسلمين " مفهوما " فإن ما يوجع القلب حقا أن يشارك فى هذه الحملة مسلمون يقيمون بيننا سواء على مستوى أفراد أو هيئات أو نظم سياسية.

ولن نسمح لأنفسنا بالجلوس موقع القضاة لنحكم على هؤلاء وهؤلاء بأنهم بما يفعلون يخرجون عن الإسلام ، فهذا أمر من اختصاص الخالق سبحانه وتعالى الذى يطلع على القلوب والنوايا ، وإنما فقط نحاول أن نسجل

---

* صوت الأزهر، العدد ١٠٢، ٧ سبتمبر ٢٠٠١

شواهد ومظاهر تثير تساؤلات وتثير ظنونا نرجو من الله العلى القدير أن تكون هذه الظنون التى تملأ جوانحنا غير صحيحة.

والمناسبة هى مناسبة ردود الفعل تجاه داعية شاب ظهر فى الفترة الأخيرة نال من التشكيك والتنديد والسخرية من جهات رسمية ومن صحفيين وكتاب لكنه ويا للعجب نال عكس ذلك تماما من جماهير الناس : الإقبال والإعجاب والتقدير، وهو أمر له دلالته المزعجة لو أن قومى يعلمون.

من قبل كنت بين حين وأخر أسمع عن داعية واثنين وثلاثة ، وجدل كبير يثور حول كل منهم ، وكالعادة هجوم من كتاب وصحفيين وإقبال منقطع النظير من الجماهير فكنت لا أعير كثير اهتمام لهذا ، لكننى فى المرة الحالية تصادف قبل أن تثور الزوبعة أن كنت أشاهد الرجل فى إحدى القنوات الفضائية وكان جلوسى فى البداية لمجرد قضاء بعض الوقت للراحة بعد ساعات طويلة من العمل ، وتكرر الأمر مرة أخرى فى يوم أخر.

أقول الحق لقد شدنى الرجل كثيرا وشعرت بتقدير عال له ، كنت أنظر إليه بعين إنسان أتاح الله له أن يشتغل بالعمل التربوى ما يقرب من أربعين عاما حيث يكون المدار فيه هو "الاتصال" بين المتحدث والمستمعين ، أيا ما يكون المتحدث "مدرس ، مذيع ، داعية ، خطيب" ، فظهر الرجل وكأنه قد استوعب خلاصة الخبرة العلمية والعملية للتربية وأصبح غاية ما تكون المهارة فى " توصيل " المعلومات إلى الناس ، فضلا عما رافق هذا من وجه باسم بشوش، وروح متحمسة وقدرة على " التمثيل " لما يحمله ما يقول من مضامين ودلالات، فإذا بالسامعين وكأن على رؤوسهم الطير مشدودون لا يشعرون كم من الوقت يمر يتحدث الرجل ، فإذا بالدموع تسيل من الأعين.

كان الرجل ذكيا بشكل ملحوظ ، فهو ليس " فقيها" فى العلوم الشرعية، ومن هنا فهو لا يخوض فى حديث يتصل بما يجب أن يكون عليه المفتى فى المسائل الشرعية من عميق علم ، وإنما خاض الرجل فى مسائل تتسم

بالطابع الأخلاقى التاريخى ، وكذلك هو يعلم حساسية الدولة من تناول القضايا العامة اقتصادية واجتماعية وسياسية ، فتحاشى أن يقترب منها على الرغم مما هو معروف من شدة اهتمام الناس بها . ومع ذلك فإن هذا لم يجعله يسلم من النقد الحاد والهجوم العنيف ، بل والمطاردة والمنع إلى الدرجة التى دفعتنى أن أعاود الفحص والتفكير فيما قال ويقول لعلى أجد فى حديثه ما يشكل خطرا على الشباب وعلى المجتمع ، فلم أجد إلا أن يكون الحديث فى الأخلاق من وجهة نظر إسلامية هو نفس الذى يشكل خطرا .. واللهم اجعل ظنى هذا غير صحيح.

قالوا إنه داعية المجتمع الارستقراطى، حيث تتركز أحاديثه فى أبنائه عامة وشبابه خاصة .. وعجبت هل هذا مدح أو ذم ؟ فشباب الأكابر يتكالب على الأغانى والموسيقى المجنونة التى يسمونها " شبابية " ، وصدق من صحح هذا فسماها " هبابية " ، فضلا عن فراغ طويل لدى هؤلاء يدفعهم أن يشد اهتمام هذا الفريق إلى أن يسمع كلاما فى الأخلاق من خلال قصص ومواقف ونصوص دينية.

علقت كاتبة فاضلة فقالت: إنها حضرت حديثا للرجل ولاحظت أنه بعيد عن هموم المواطنين والوطن ، وخاصة ما يجرى على أرض فلسطين ، فوجهت إليه سؤالا بهذا الخصوص ، فاحتج حاضرون آخرون ، بأن الحديث ليس فى الشأن السياسى ، وعجبت الكاتبة من هذا الموقف مؤكدة أن الشأن السياسى هو أساس لابد من أن ننشغل به ، فكيف للداعية أن يدير ظهره للأحداث الكبرى التى تمر بالأمة، ويحلق فى أجواء مثالية أخلاقي ة؟ وددت لو كنت حاضرا وأسأل الكاتبة الفاضلة : وهل الحديث فى الشأن السياسى فى الملأ العام ، ومن خلال حديث دينى أمر مسموح به ؟ إنه إن فعل فسوف تنهال عليه السكاكين والرماح متهمة إياه بأنه يستغل الدين للمتاجرة بهموم الناس.

وعلى العكس من ذلك تماما يجئ خبر عن حضور فضيلة الدكتور شيخ الأزهر صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر ٨/٢٤ وقيام مظاهرة من المصلين تهتف مساندة لانتفاضة الفلسطينيين الباسلة، وجاء فى الخبر أن بعضا من أعضاء إحدى الجماعات ذات التوجه الإسلامى شاركوا فى هذا .. إذن ها هنا نرى سدا للثغرة المشار إليها فى الحالة السابقة، ومع ذلك فالصحيفة التى نشرت الخبر فسرت المشاركة بأنها رغبة من أعضاء الجماعة ركوب الموجة وحصد مكاسب سياسية لهم.

فكأننا أمام من يقول لك إذا فتحت الشباك أن هذا يجلب لنا هواء ملوثا يسبب أمراضا ، فإذا قمت بقفله وجدت من يقول إنك بهذا تريد أن تمنع الهواء عن الناس فيختنقوا ، فإذا ما احتار دليلك وقمت بتكسير الشباك أو إلغائه كانت فرصة ذهبية لأن يتهموك بالإرهاب!

فى الوقت الذى منعوا فيه الداعية الشاب من الظهور على شاشة التليفزيون أو الالتقاء بالناس كانت شاشة تليفزيوننا تعرض تلك الحفلات التى تقام فى منتجع الأكابر بمارينا ويغنى فيها من يسمونهم مطربين تصحبهم الموسيقى الصاخبة.. وألوف الشباب الحاضرين يهللون ويصفقون ويترنحون ذات اليمين وذات اليسار .. هذا الأمر طيب ومطلوب .. ولا خطر فيه على الناس.

قولوا لى أفادكم الله : هل نستمر فى الغضب من الصهيونية والإمبريالية العالمية نتهمهما بمحاربة الإسلام والمسلمين ، وبين ظهرانينا من يفعل مثل الذى يفعلون ؟ ليت الذين يفعلون ذلك فى بلادنا يلتزمون الصدق مع النفس ومع الناس فيعلنونها صراحة أنهم لا يطيقون رائحة الإسلام ، لكنهم ، فى غالب الأحوال لا يجرؤون ، بل والأدهى والأمر أنهم يقولون إنهم بما يفعلون يخدمون الإسلام والمسلمين .. عجبى !!

عرب فى قاع الزمن*

أريد أن أهرب من الكتابة فيها، بالكتابة عن موضوع أخر، لكنها تمسك بتلابيبى أينما توجهت .. إنها القضية الفلسطينية. بدأت أشعر بأن الكتابة فيها قد تحولت إلى صورة من صور الولولة ولطم الخدود وشق الجيوب ، وصراخ ونحيب ، ثم لا شئ بعد ذلك ، فالنتيجة الوحيدة المطلوبة هى تلك التى يسطرها على أرض واقع فلسطين، عندما يرمى أطفال حجارة على النازيين الجدد .. عندما يفجر شاب فلسطينى نفسه مدمراً هدفاً صهيونيا .. عندما يفجر سلاح بسيط لا يملك إلا إياه فلسطينى يدافع به عن أرضه المحتلة.

أما على الساحة العربية ، فالقوم لا ينتظرون فقط إعلان وفاتهم ، كما سبق أن تساءل الراحل نزار قبانى فى قصيدته " هل نعلن وفاة العرب "؟ ذلك لأنهم قد توفوا بالفعل ، وياليتها وفاة كأى وفاة من تلك الوفيات التى تكون بشرف وكرامة ، إن الوفاة هنا فى الحقيقة ليست للأمة العربية ، وإنما للنظم العربية ، فالشعوب العربية أصبحت شعوبا مغلوبة على أمرها .. تكاد تكون رهن الاعتقال حتى الخروج إلى الشارع للتعبير عن الغضب ، ممنوعة منه ! منذ أسابيع أبدى مصدر رسمى فى مصر بلهجة حادة استياء الحكومة المصرية من تصريحات مسئول فلسطينى انتقد فيها المواقف المخزية للنظم العربية الرسمية ، وكان هذا ظلما من جانبنا حقا ، لأن ما قاله المصدر الفلسطينى يردده كل إنسان يعيش على الأرض العربية من المحيط إلى الخليج !

كانت صورة مختزلة للموقف العربى فى جلسة افتتاح وزراء الخارجية الأخير الذى لم يعره أى منا اهتماما من قبل أن ينعقد ، ذلك أننا أصبحنا لا

---

* صوت الأزهر، العددان ١٠٣، ١٠٤، ١٤ ، و٢١سبتمبر ٢٠٠١

ننتظر شيئا ، فقط ضحكنا وفقا للمنطق القائل : شر البلية ما يضحك، عندما ثار اختلاف : هل تعقد الجلسات علنية أم سرية ؟ وتغلب الرأى المطالب بالسرية، لا لأن هناك مباحثات ومناقشات على جانب كبير من الخطورة يراد حجبها عن إعلان، ولكن الحقيقة المرة ، هى: حتى لا يعلم الناس شيئا عن الدول المتخاذلة التى لا تستطيع أن تسبب أى أذى يمكن أن يجرح ماما أمريكا ، والفك المفترس .. إسرائيل ! انخفاض متتال لسقف القضية حتى انخفضت عن طول قامتنا. كنا نسمى القضية منذ عقود: الصراع العربى الإسرائيلى، وأن هذا الصراع هو صراع " وجود " لا صراع " حدود " فأصبح بعد ذلك " نزاع عربى إسرائيلى ".

ثم توالى التخفيض حتى " تقزمت " الآن لتصبح مجرد " عنف " ! كان الطريق إلى الحل واضحا وضوح الشمس ، إذ ما هو الحل لأهل وطن سلبت أرضه واحتلت ؟ هل هناك طريق آخر غير التحرير والمقاومة ؟ أصبح حلمنا الآن أن تنفذ توصيات لجنة ميتشيل ؟ وما جوهرها ؟ وقف العنف !! كنا ننشد ونصيح : يا مجاهد فى سبيل الله ، دا اليوم اللى بنستناه .. وننشد : فجرد سلاحك من غمده ، فليس له بعد أن يغمدا، لنسلم رقابنا لمن ؟ لرئيس المخابرات الأمريكية " تينيت " ! ننادى، ونطالب، ونتمنى أن يعطف شارون علينا ويقبل هذا ، ولا أريد أن أسترسل شارحا معنى أن نتمنى تطبيق اقتراحات رئيس المخابرات الأمريكية ؟

أى هوان وصلنا إليه ؟! أى درك أسفل سقطنا فيه ؟ .. ليتنى مت قبل هذا ولم أك شيئا ! ما تفسير ذلك ؟ قالها المثل العامى المصرى من قرون طويلة : يا فرعون ، إيه اللى فرعنك ؟ قال: مالقيتش اللى يردنى ؟ فليقتل النازيون الجدد ما يريدون قتله من الفلسطينين ، وليدمروا ما شاءت لهم شياطينهم أن يدمروا ، فما دام العرب ، حتى اليوم لا يحركون ساكنا ، فلا لوم على المعتدين.

حتى المقاطعة.. أصبحنا لا نستطيعها ، فلقد عقد منذ فترة بسيطة مؤتمر فى دمشق لهذا الهدف ، فغاب عنه أكثر من نصف الدول العربية ، وفى مؤتمر وزراء الخارجية الأخير أبدت مصر والأردن وقطر تحفظها من هذه القضية. ويستمر مسلسل التمرغ فى الوحل والهوان فتقف الولايات المتحدة فى مجلس الأمن لتحول ، كالعادة بينه وبين أن يصل إلى قرار ، لا لحل القضية ، ولكن لإرسال مراقبين دوليين ، ثم لا يمنعنا الحياء من تاريخنا ، ومن أمتنا ، ومن أجيالنا فتواصل هذه المقولة المخزية حقا بأن الولايات المتحدة هى راعية السلام .. وكل ما حولنا يصرخ بأعلى صوت أنها فى الحقيقة " راعية الإرهاب " النازى الجديد على أرض فلسطين !!

يرسلون إليها الوفود والرسل ، ونبرر هذا بضرورة أن نضعها فى الصورة وتعلم ما الذى يحدث على أرض فلسطين ، كأنها لا تعلم ماذا يجرى ، ولديها المخابرات المركزية التى تسمع دبيب النملة داخل الجدران ، ونتمادى فنناشدها بأن تتدخل وبعد أيام ، جاء الرد: صفعة أخرى من مئات الصفعات على وجوهنا .. الرئيس الأمريكى يقف ليقول : " أوضح الإسرائيليون تماما أنهم لن يتفاوضوا تحت تهديد الإرهاب " – يقصد بطبيعة الحال المقاومة الفلسطينية –وإذا كان السيد عرفات مهتما بإقامة حوار ، فإننى أدعوه بقوة إلى أن يحث الإرهابيين الفلسطينيين على وقف التفجيرات الانتحارية " !

وهكذا يسمى الرئيس الأمريكى ما يحدث بين الفلسطينيين والنازيين الجدد بأنه إرهاب من الطرف الأول للطرف الثانى .. الطرف الأول ، أصحابه الذين لا يملكون إلا الحجارة وبعض أسلحة شرطة خفيفة ، وبين من يملكون الطائرات والصواريخ والدبابات والمصفحات ، بل والقنابل الذرية ، ليتساوى القاتل والمقتول ، والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه !

(٢)

نشرت صحيفة نيويورك تايمز للصحفى الأمريى الصهيونى توماس فريدمان ، الذى كنا استقبلناه منذ فترة فى مصر واحتفينا به احتفاء كبيرا باعتباره من فلاسفة العولمة والحديث عن المستقبل ، مقالا داعيا الولايات المتحدة وإسرائيل وقوات حلف الناتو إلى احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة ، وإقامة دولة فلسطينية يدير حلف شمال الأطلنطى شئونها على غرار ما تم فى كوسوفا، وقال فريدمان أن المطلوب بالنسبة لإسرائيل هو تسليم هذه المناطق إلى الناتو، أو قوة مماثلة، وتكون للفلسطينيين دولتهم، ولكن دون جيش وتحت العين الساهرة للناتو !!

ومن قبل هذا أطلق نائب الرئيس ، ديك تشينى تصريحات مماثلة ، وصفها السفير الأمريكى السابق فى القاهرة " إدوارد ووكر " فى مقال له بصحيفة واشنطن بوست بأنها عززت الشكوك الموجودة فى أنحاء كثيرة فى العالم العربى بأن الرئيس بوش قد أعطى الضوء الأخضر لسياسة إسرائيل الحالية فى اغتيال الناشطين الفلسطينيين. وكان تشينى قد أعلن أنه إذا كان لديك منظمة تآمرت أو تتآمر لبعض الهجمات التفجيرية الانتحارية على سبيل المثال ، وإن كان لديهم " الإسرائيليون " دليل قوى عن هويتهم وأماكنهم ، فإننى أعتقد أن هناك بعض التبريرات فى محاولتهم حماية أنفسهم عن طريق القيام بإجراءات مسبقة.

وذكر السفير الأمريكى الأسبق فى القاهرة " ووكر " أيضا أن أصدقاء إسرائيل أكدوا أن شارون خرج من أول اجتماع مع الرئيس بوش وهو مقتنع اقتناعا ثابتا بأن عمليات القتل التى تقوم بها إسرائيل لأشخاص محددين قد نالت موافقة البيت الأبيض.. وأعلن ووكر أنه عندما كان سفيرا فى مصر (من عام ١٩٩٥)، كانت حوادث العنف فى ذروتها، وكانت تلك الحوادث تتسبب فى قتل مواطنين مدنيين أبرياء بينهم نساء وأطفال ومع ذلك فقد كان

يتلقى تعليمات بالتنديد بما كانت تقوم به السلطات المصرية من مواجهة مسلحة ضد الإرهابيين كانت فى كثير من الأحيان تنتهى بقتلهم أو إجراء محاكمات صورية لهم، وتساءل الرجل : فكيف نفعل اليوم عكس هذا ونؤيد ما تقوم به إسرائيل ضد الفلسطينيين؟

وفى الوقت الذى نصر فيه على اعتبار الولايات المتحدة هى راعية السلام، ونرسل لها الوفود توسلا أن تحكم بيننا وبين إسرائيل بالعدل (!!)، تقف هذا الموقف الشهير بالنسبة لمؤتمر مناهضة العنصرية، والذى أدى إلى الضغط على مارى روبنسون المفوضة العليا لشئون حقوق الإنسان بالأمم المتحدة بحيث تتبنى الموقف الأمريكى برفض اعتبار الصهيونية شكلا من أشكال العنصرية، وبالتالى لهذا لن يتم طرحه فى المؤتمر. وإذا كنا مازلنا نجمل وجه الولايات المتحدة ، فها هى ذى أصوات من داخلها تبين خطأنا نحن الذى ننتمى لأسرة المقتولين على أرض فلسطين ، فقد شنت منظمات الحقوق المدنية فى الولايات المتحدة هجوما عنيفا على إدارة الرئيس الأمريكى جورج بوش بسبب تهديدها بمقاطعة مؤتمر مناهضة العنصرية.

ولسنا نبالغ ونغلو عندما نردد الدعوة إلى الكف عن اعتبار الولايات المتحدة راعية السلام ، وأنها يمكن أن تقوم بوساطة بين الفلسطينيين والدولة الصهيونية ، فها هو " أورى ديفيس " الذى يصف نفسه بأنه " مناضل فلسطينى يهودى " يصرح لجريدة الأهرام فى ٨/٢٦ عندما سئل عن مدى اتساق موقف الولايات المتحدة من القضية الفلسطينية فى مؤتمر دربان مع موقفها تجاه ما يحدث من مذابح يومية ضد الفلسطينيين على أيدى قوات الاحتلال الإسرائيلى، فقال : " الحقيقة أن الموقفين لا يختلفان أو الأصح فإن الموقفين يتسقان مع دعم الولايات المتحدة لسياسات استمرار الاحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية، ودعنى أوكد أن الموقف الأمريكى فى هذا

الصدد خطا فادح ، ويجب على كل من لديه ضمير سواء فى الولايات المتحدة أو فى أى مكان فى العالم أن يقف معارضا لتلك السياسات ".

بل ويزيد ديفيس على هذا قوله بأن الولايات المتحدة فى موقفها الداعم لإسرائيل فى مؤتمر مكافحة العنصرية مدفوعة برؤيتها لإسرائيل كرصيد استراتيجى لها فى منطقة الشرق الأوسط.

وأعود إلى ما بدأت من تلك المعاناة التى يشعر بها الكاتب وهو يحاول أن يكتب عن القضية الفلسطينية هذه الأيام، بحيث لا يجد أخيرا أمامه إلا أن يردد مع " نزار قبانى"

أحاول أن أتصور ما هو شكل الوطن
أحاول أن استعيد مكانى فى بطن أمى
وأسبح ضد مياه الزمن
وأسرق تينا ولوزا، وخوخا
وأركض مثل العصافير خلف السفن
أحاول أن أتخيل جنة عدن
وكيف سأقضى الإجازة بين نهور العقيق
وبين نهور اللبن
وحين أفقت .. اكتشفت هشاشة حلمى
فلا قمر فى سماء أريحا
ولا سمك فى مياه الفرات
ولا قهوة فى عدن ...!!

الخلاص الفردى*

كنت قد تلقيت دعوة كريمة مع أخرين – من سفير المملكة العربية السعودية للمشاركة فى المؤتمر العالمى الذى أزمعت جامعة الملك سعود بالرياض أن تعقده من ١١-١٤/ ١١/ ٢٠٠١ بمناسبة مرور عشرين عاما على تولى الملك فهد سدة الحكم ، ولما عرف عدد من تلاميذى فى عدد من كليات التربية المصرية المعارين إلى المملكة بوجودى دعونى لقضاء أمسية معهم ، ففضلا عن التلاقى والتعبير عن الشوق إلى الرؤية ، فهى فرصة للمناقشة وتبادل أطراف الحديث عن الأهل والوطن فى مصر ، الأمر الذى كان من الطبيعى أن أرحب به بطبيعة الحال .

من خلال المناقشة برزت قضية لتفرض نفسها على مسار الحديث وذلك عندما أبديت ملاحظة لأحد الزملاء من أننى لم أره منذ أكثر من خمس عشرة سنة ، حيث استمر فى العمل بالمملكة فترة طويلة تجاوزت كل الحدود ، فإذا به يروى مجموعة ظروف أحاطت به عقب عودته من البعثة فى أوائل الثمانينات وكيف حاصرته هذه الظروف لتضيق عليه العيش والمعاملة مع زملائه ، مما دفعه دفعا إلى هذه الهجرة .

كان تعقيبى على حديثه مع تسجيل تقديرى لكل ما قاله من حيث الظروف الدافعة ، أنه بالفعل قد تمكن من حل معظم مشكلاته المعيشية على أحسن ما يكون الوضع لكن المشكلة الحقيقية هى أن الكثرة الغالبة من الخارجين من مصر للعمل مثله ، وخاصة منذ أوائل السبعينيات ، موسم الخروج الكبير أو الهجرة إلى بلدان النفط ، إذا كانت قد تمكنت من حل مشكلاتها الخاصة ، لكنها من حيث لا تقصد ولا تدرى فاقمت من مشكلة مصر القومية ، كيف؟

---

* صوت الأزهر، العدد ١١٣، ٢٣ نوفمبر ٢٠٠١

كان العامل بعد عودته يسعد بطبيعة الحال أنه قد عاد ليتمكن من شراء سيارة وشقة سكنية وجمع مبلغا من المال يرصده لأبنائه وللمستقبل ، والبعض تمكن مما هو أكثر من ذلك سواء بشراء قطعة أرض للبناء أو أرض زراعية أو الدخول فى عالم المشروعات الاقتصادية، وكل هذا يعد حقا للمواطن ، وخاصة هؤلاء الذين يكونون هيئة أعضاء التدريس بجامعاتنا ، إذ كان مما يؤسف له حقا أن يعيش الواحد منهم وهو عاجز عن توفير ما أصبح حدا أدنى للمعيشة الكريمة لمثله ، مما أفرز بعد ذلك مجموعة من المظاهر السلوكية المؤسفة ، وربما المخجلة ، نتيجة ما بذر من بذور " سُعار " مادى إذا كان قد بدأ لسد الاحتياجات الأساسية ، فقد تنامى وكبر وأصبح عادة متحكمة كالنيران المشتعلة كلما غذيتها ، قالت : هل من مزيد ؟

ونحن نعلم من بعض المتخصصين فى الاقتصاد ، أن كل وحدة نقدية هى فى الأصل تقابل وحدة إنتاج ، ومن ثم فإذا زادت الوحدات النقدية عن الوحدات الإنتاجية تسبب هذا فى " التضخم " الذى يرفع الأسعار ، وعندما بدأ العاملون فى الخارج يجيئون بمئات الملايين من الدولارات والجنيهات معهم إلى مصر ، لم يكن ذلك مقابل وحدات إنتاجية دخلت عالم التنمية فى بلدنا ، مما ترتب عليه ارتفاع مستمر فى الأسعار ، كانت عواقبه الوخيمة يدفع ثمنها الجمهرة الكبرى من الفقراء .

ولو سقنا مثلا بسيطا لوضحت المسألة أكثر ، فهذا مواطن عائد من الخارج فى إجازة الصيف يريد أن يشترى ولو " بطيخة " فإذا كان سعر الكيلو خمسين قرشا ، وطلب البائع جنيها ، فإن هذا الجنيه لا يعد شيئا مذكورا لهذا المعار ، فيوافق بسرعة ، ويتكرر هذا مع ألوف غيره ... والشئ نفسه بالنسبة لما يصعب حصره من السلع ، وخاصة الأراضى والشقق السكنية حيث يزداد الطلب عن المعروض .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد استطاع السوق النفطى أن يسحب من السوق المصرى أكثر ما توافر فيه من خبرات ومهارات وعلم متمثلة فى قوى بشرية من مجالات مختلفة مما كان له أثره السيئ على كفاءة العمل فى الداخل ، ففى الجامعات على سبيل المثال كان هذا يؤدى إلى قلة واضحة فى أعضاء هيئة التدريس مما كان يلجئ البعض إلى السماح للمعيدين والمدرسين المساعدين بالتدريس وتحميل عضو هيئة التدريس ضعف ما يستطيع ، وترتب على هذا وذاك الضالة المستمرة لمستوى التعليم والبحث ، وكذلك افتقاد العلاقة الحميمة بين أستاذ الجامعة والطلاب ، وجنح عدد غير قليل إلى السرعة والعجلة فى تأليف الكتب والبحوث ، ومن قبل فى إعداد الرسائل للماجستير والدكتوراه والهبوط فى مستوى الأداء المستمر ، كان لابد أن يجر معه سلوكيات تناسبه ، مما أفسد مناخ الحياة الجامعية بشكل مؤسف حقا .

وإذا تأملنا فى حرفة مثل " السباكة " فسوف نجد أن هجرة الكثيرين منهم ، إذ أدت إلى تفريغ السوق المصرى من العمال الماهرة ، انجذب إلى العمل أنصاف المهرة ، ثم ضعيفو المهارة ، وما ترتب على هذا وذاك من هبوط وتدن مستمر فى مستوى الأداء ، مع تزايد مستمر فى الأسعار والتكاليف ، وأصبح عاديا أن تكتشف بعد التركيب أو الإصلاح أن ما تم يحتاج إلى إعادة نظر .. وقل مثل هذا على العديد من المجالات الأخرى فى حياتنا الاقتصادية والاجتماعية .

وحدث ولا حرج عما أدت إليه ظاهرة الخروج الجماعى ، بدءا من أوائل السبعينيات من بذر بذور تطلعات استهلاكية أنهكت الاقتصاد المصرى والبيوت المصرية ، فهذا جار ، إذ يرى جاره قد أصبح يمتلك كذا وكذا ، أصبح حلمه أن يخرج هو الآخر ويقتنى هذه السلع الاستهلاكية ، التى بدأت " بمروحة " و " مسجل " فى يد كل عامل عائد من دول النفط ويحتاج الأمر إلى بحوث ودراسات مطولة لو شئت أن تنظر فيما تركه هذا من آثار مدمرة

على القرية المصرية ، وما حدث للأرض الزراعة من تجريف ، وميل الفلاح إلى السهر أمام برامج تافهة بالتليفزيون ، بدلا من الاستيقاظ فى الفجر للذهاب إلى العمل فى الحقل ، وما يجره هذا عليه من وخم وكسل !

وقد يقول البعض : إن هذا الفرد وذاك عندما خرج وعاد بكثير من المال ، فإن هذا من شأنه أن يضخ الكثير فى الاقتصاد ، فإننا نعاود القول بأن الكثرة النقدية عندما تضخ من غير إنتاج داخلى يقابلها ، تؤدى إلى التضخم.. هذا العدو الشرس لجموع الفقراء الذين يشكلون فى مصر نسبة قد تصل إلى ٤٠% ، وفضلا عن ذلك فليس المجتمع هو مجرد حاصل جمع حسابى لهذا مع ذاك ، وبالتالى فإن ما تصوره وعمل عليه كل فرد من " خلاص " على المستوى الشخصى لم يكن بالضرورة يصب فى خانة الخلاص القومى ، بل نكاد أن نقول إنه عمل على تعقيد الوضع بالنسبة للخلاص القومى .

ولو كانت مصر قد رزقها الله بمسئولين منذ أوائل السبعينيات يفكرون فى توفير مشروعات تنمية تستقطب هذه الأموال التى انهمرت من العائد من دول النفط لأصبح الخلاص الفردى بالفعل مؤديا للخلاص القومى ، لكن هذا لم يحدث مع الأسف ، ومن هنا فقد ظهرت ظاهرة شركات توظيف الأموال التى أدت ، لا إلى العمل للخلاص القومى ، بل حرقت ألافا من نماذج الخلاص الفردى ، فخسر المواطن الفرد ، وخسر الوطن فى آن واحد !!

دفاع إنجليزى أمريكى عن الإسلام![*]

تعود القارئ أن يسمع ما يصعب حصره من الكتابات والتصريحات التى تصدر من مواقع غربية متعددة تعمد إلى تشويه صورة الإسلام فى العقل الغربى ، لكن هذا لا ينبغى أن يحجب عنا محاولات أخرى ، على قلتها ، فإنها على العكس من ذلك تسير فى اتجاه تصحيح الفهم الغربى للإسلام ، ولعل أقرب ما يمكن التذكير به تلك العبارات التى أطلقها الأمير تشارلز ولى العهد البريطانى، عندما قال: يمكن للإسلام أن يعلمنا طريقة للفهم والعيش فى عالم كانت المسيحية هى الخاسرة عندما فقدته ، ذلك أننا نجد فى جوهر الإسلام محافظته على نظرة متكاملة إلى الكون ، فهو يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة والكون ، وبين الدين والعلوم وبين العقل والمادة ، وقد حافظ الإسلام على نظرة ميتافيزيقية وموحدة عن أنفسنا وعن العالم من حولنا.

ومن أشهر الشخصيات التى تقوم بدور كبير فى الوقوف مع القضايا العربية والإسلامية بول فندلى الذى كان عضوا عن ولاية إلينوى فى الكونجرس الأمريكى ما يقرب من اثنين وعشرين عاما، والذى أخذ على عاتقه الدفاع عن كثير من قضايا العرب والمسلمين ، فاضحا عددا من صور الزيف الإسرائيلى، وله كتاب مشهور " من يجرؤ على الكلام " ، فقد أصدر مؤخرا كتابا بعد أحداث سبتمبر الماضى ، يحاول من خلاله أن يصد بعضا من هذا الطوفان من الافتراءات وصور التجنى والظلم الفاحش للإسلام والمسلمين، سمى هذا الكتاب: " لا سكوت بعد اليوم " .

ومما يذكر أن وزارة الخارجية الأمريكية كانت قد أصدرت عام ١٩٩٩ تقريرا عن الإرهاب العالمى حيث كانت مادلين أولبريت هى وزيرة

---

[*] صوت الأزهر، العدد ١٣٨ ، ١٧ مايو ٢٠٠٢

الخارجية، ففى هذا التقرير نجد إعلانا عن أن الشرق الأوسط هو الذى يمثل المصدر الرئيسى للإرهاب ، ويتضح الافتراء فى هذا الإدعاء إذا تصفحنا التقرير نفسه ، فالكثير من الحوادث الإرهابية التى يذكرها نجد أن محل حدوثها هو بعض دول أمريكا اللاتينية وشرق أسيا وأوروبا، أما الشرق الأوسط المتهم بالإرهاب، فإن ما يشير إليه التقرير من أحداثه قليل قياسا إلى المناطق الأخرى ، وهذا ما دفع فندلى إلى أن يكتب أن وزيرة الخارجية السابقة فيما يبدو بحاجة إلى دروس فى كيفية الالتزام بالصدق فى الرواية.

وإذا كان فندلى يكتب فى الصحافة مصححا صورة الإسلام والمسلمين إلا أننا ندرك أن الصحف مهما علا توزيعها فتأثيرها يتضاءل إذا قيس بتأثير جهاز مثل التليفزيون. إن مناط هذا هناك غيره بطبيعة الحال التزام دينى بغير تعصب ينبع من القلب ويهتدى بالعقل.. التزام ينطق به السلوك مع الله ومع النفس ومع الآخرين ولا يعتقل فى مجرد عبادات.

احتموا بشعوبكم*

عقب إعلان عبد الناصر تأميم قناة السويس فى ٢٦ يناير ١٩٥٦، عاد إلى القاهرة بالقطار، وعندما خرج من محطة مصر إلى ميدان باب الحديد، كنت واحدا من ألوف اكتظ بهم الميدان وكأن الجميع قد أصابهم " ماس " كهربائى واحد جنونا بما فعله الرجل ، فإذا بالجماهير ترفعه على أكتافها ، وكان أقصى أمنياتى أن أقترب من الرجل إن لم أستطع أن ألمسه فعلى الأقل تستطيع عيناى أن تكتحل أكثر بصورته ، لكنى لم أستطع بجسمى النحيل – فى ذلك الوقت ، وقد انتهيت من الفرقة الأولى بآداب القاهرة– أن أحقق ذلك.

ولم تكن هناك دبابات تحرسه ، ولا كلاب بوليسية، ولا أجهزة فائقة التقنية تسمع دبيب النملة وتسجل خواطرك ، ولا أشرطة علنية ومتخفية على الرغم من أنه كان مستهدفا من قوى كثيرة داخلية وخارجية .. لماذا ؟

لقد تحول كل فرد من هذه الألوف من الجماهير إلى حارس خاص على استعداد أن يفديه بروحه وجسده ، وتظل تسأل : لماذا ؟ فأقول لك .. لقد بلغ درجة من الشجاعة وقوة الإرادة الوطنية أن حقق فى هذا الوقت مطلبا وأمنية لكل مواطن على أرض هذا البلد ، فاستقطب قلوب الجميع وعقولهم ، فأصبح كل منا وكأنه هو عبد الناصر، وأصبح عبد الناصر وكأننا جدميعا قد تشخصنا فيه ، فهل يصيب أحد نفسه بالتهلكة؟

دع جانبا ما صارت إليه الأمور بعد ذلك مما يمكن أن نأخذ من ملاحظات وتحفظات على مسار ثورة يوليو ، ولكنى أقف عند لحظة بعينها ، حدث فيها اندماج مذهل بين الكثرة الغالبة من المصريين بعضهم بعضا ، وبينهم وبين زعيم البلاد ، فإذا بهذا الرجل يشعر بقوة مذهلة ، لم تكن متمثلة فى جنود وضباط ولا فى أسلحة متطورة ومتقدمة، ولا فى قوة اقتصادية، بل

---

* جريدة الأسرة العربية، ٢ يناير ٢٠٠٦

كان الحال مما لا يسر بأى مقياس من المقاييس ، لكن جماهير الناس عندما تتجمع حول زعيم ، تتأكد من شجاعته ووطنيته ، وتجتمع على أمر واحد ، تجد قوة عجيبة قد توافرت تكاد أن توزاى قوة نووية – بغير مبالغة !

أدر البصر بعد ذلك بعد عشرات السنين فى كل البلدان العربية ، فسوف تجد كل رئيس وملك وأمير قد أصبح يحيط نفسه بما لا يخطر على بال أحد منا من وسائل الحراسة لأمنه الخاص ، ونسأل نحن : لماذا ؟ ليكون الجواب الفورى : لأن كل وحد من هؤلاء لم يأت على أكتاف الناس . جاء بالقوة ، وظل محتميا بها ، سواء منذ عشرات طويلة من السنين فأصبح الحكم متوارثا ، أو على ظهر دبابة فأصبح قابضا على مقاليد السلطة بيد من حديد لا يستطيع عنها استغناء.

وعلى العكس من ذلك فى موقف هؤلاء المغتصبين للسلطة من جماهير الناس : يحيط كل منهم كل مواطن بجملة من الأوامر والنواهى ، والإجراءات والقوانين واللوائح بحيث لا يتعدى ما يصدر منه من فعل حدوده الشخصية ليصل إلى آخرين ، وإلا ففى غيابات السجون والمعتقلات يمكن – فى لحظة – أن يرى نفسه وقد وقع تحت أساليب ووسائل مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، من التنكيل والتعذيب وتمزيق أوصال بشريته وكرامته ، ويصبح حال كل مواطن مثله مثل ما وصف به أحد كتاب مصر فى عصر إسماعيل : " .. حتى أن أعظم عظيم فيه يخشى أن يحدث نفسه فى سرير نومه بشئ من دواعى الإصلاح خوفاً من الطيف أن ينم عليه " !! ولا أدرى حقا لو أن صاحبنا هذا عاش إلى اليوم : ماذا كان سيقول ؟ حيث أن الأمر تجاوز ما كان قبلا !

تداعت إلى ذهنى كل هذه الأفكار والخواطر عندما بدأت آلة القوة الشيطانية للولايات المتحدة الأمريكية تدور تجاه سوريا ، بنفس السيناريو الذى دارت به من قبل تجاه العراق ، والحجة المعلنة هى مقتل الحريرى، مع

أن لبنان شهد مقتل العديد من رؤساء الوزارة ورؤساء الجمهورية، مثل رياض الصلح، ورشيد كرامى ، وبشير الجميل ، ورينيه معوض ، ولم يحدث هذا رد الفعل.

أما الأسباب الكامنة، فهى أن سوريا هى السند الرئيسى لهذا الحزب الذى ما زال رافعا للسلاح فى مواجهة إسرائيل ، حزب الله ، وسوريا مازالت تفتح أبوابها لزعماء الفصائل الفلسطينية التى ما زالت تنتهج نهج المقاومة، ولم تركع بعدُ مثلما ركع الجميع على وجه التقريب.

ويخطئ الرئيس السورى لو تصور أن هناك زعيما عربيا واحدا يمكن أن يقف بجانبه ولو حتى بالكلام ، فما يُسير معظم البلدان العربية اليوم " زعماء" وإنما "جرذان" تقف مرتعدة فى القفص الأمريكى ، وكلهم اليوم يشيرون إلى الرئيس السورى بأنه لا حل أمامه إلا بأن يتحول إلى مثلهم ويقف معهم فى نفس القفص، وإلا سوف يكون مصيره مصير صدام المسجون ، أو عرفات المسمم! أما نحن الذين نقف فى الشارع، فنبصر طريقا آخر يمكن أن يمد الرئيس السورى بقوة تقف فى مواجهة هذه الآلة الشيطانية الأمريكية... إنه طريق جموع المواطنين ، لن نبالغ فنتصور مناطحة لهذه الآلة ، وإنما فتح الأبواب والنوافذ أمام المواطنين.. يفكرون كما هيأ لهم الله أن يفكروا.. ويكتبون بما تقدر عقولهم أن تمليه..

وبالإفراج عن كل معتقل ومسجون سياسى.... ويكوّنون الجمعيات الأهلية والأحزاب السياسية التى عن طريقها يمكن أن يمارسوا العمل الاجتماعى والعمل السياسى بثقة ، وبغير خوف.. بتداول للسلطة ، حتى لا تصبح حكرا على فرد أو أسرة.. بوقف نزيف الاستغلال من بعض القوى المستقوية بالسلطة.. بفتح الأبواب على مصاريعها للمعرفة المتقدمة الحقيقية وسبل تحصيلها ونشرها.

وقد يتصور البعض أن كل هذا يدخل في باب الأحلام ، ولكننا نؤكد انه مما يدخل في باب " الممكنات" ، بدليل واحد هو أنه متحقق في هذه الدول التي درجنا على تسميتها بالدول المتقدمة ، بل إن مثل هذا هو الذي مكنها أن تقف أمامنا رافعة عصا التهديد ، وما ضعفنا أمامها إلا لأننا نفتقد هذه الأمور .. لو طرق الرئيس السوري هذا الطريق فسوف يقف أفراد الشعب السوري كلهم حراسا لوطنهم وله، مما يحميه من استجابة للهزيمة، سواء بالدخول في بيت الطاعة الأمريكي طواعية كما هو حادث للجميع الآن، أو بمجرد المعاندة بغير الاستقواء الحقيقي بالشعب.

حكام ودول
فى بيت الطاعة الأمريكية !*

عندما احتلت قوات صدام حسين فى أغسطس ١٩٩٠ أرض الكويت، واجتمعت الآراء على ضرورة إخراجها، كان صوتنا من تلك الأصوات التى رأت ضرورة ألا يتم ذلك بجهد أجنبى بصفة عامة وأمريكى بصفة خاصة ؛ لأننا رأينا فى ذلك فتح الأبواب على مصاريعها للقوات الأمريكية لاحتلال غير رسمى لأراض عربية ، وكذلك بداية لعصر جديد تصبح فيه كلمة الولايات المتحدة هى الأعلى وكلمة الدول العربية هى الأسفل ، وأن من المهم أن يتم ذلك بجهد عربى.

وتخاذل من تخاذل ، وتحقق ما حذرنا – نحن وغيرنا- منه ، وتحررت أرض دولة عربية من قوات دولة عربية مجاورة ، لتصبح أرض دول الخليج كلها تحت الاحتلال الأمريكى ، وتبع هذا ما يصعب حصره من تداعيات الانقياد والتخاذل ، وتم بعد ذلك اقتياد عدد من الدول العربية إلى مدريد سعيًا نحو حل المشكلة الفلسطينية ، لا بما يحق مراد الفلسطينيين ، ولكن بما يحقق " الأمن" للدولة الصهيونية ، ثم استطاعوا أن ينفردوا بالقيادة الفلسطينية من وراء ظهر الجميع ، وفى الظلام ، ثم توقيع اتفاقية أوسلوا المشئومة ، ورضى ياسر عرفات بأن تتمزق الأرض الفلسطينية إلى " كنتونات" يمكن حصارها فى دقائق ليصبح كل جزء سجنا لسكانه ، ولما كان يُعاب على ذلك الحل الانفرادى، كان يرد أنه " يقتدى" بزعيمة العالم العربى مصر !! فنسكت ؛ لأن فى ذلك قولا حقا مع الأسف الشديد. وفرح بأن يوصف " بالرئيس عرفات" ، ويفرش البساط الأحمر كلما هبط من طائرة ، دون أن يسأل نفسه: رئيس ماذا؟! إلى أن واجه المصير المحتوم عندما حاول

---

* جريدة الأسرة العربية، ٢٣ يناير ٢٠٠٦

أن يكون " فلسطينيًا " وليس إسرائيليًا أو أمريكيًا ، فكان الحصار عام ٢٠٠٣ وسكت حكام العرب على أن ينال زميل لهم ما نال من حصار مصحوبا بالمهانة والإذلال.. إلى أن لقى مصيرًا آخر كانت نهايته.. مسمومًا بفعل فاعل ، وعرف حكام العرب بهذه الحقيقة ، لكنهم طأطأوا الرءوس ، ولم لا؟ أليست عروشهم وكراسيهم اليوم مرهونة لأسياد اليوم ؟

وعندما شاءت الإرادة الأمريكية أن تكمل حلقة السيطرة على منابع البترول فى شرق العالم العربى، بحيث لا تكتفى بدول الخليج ، وإنما تتوجها بالسيطرة على العراق ، كان من ترويج أكاذيب سعت كل أجهزة الإعلام والإدارة على المستوى الدولى أن تُكسبها مصداقية (واعترفوا بعد ذلك إنها كانت كاذبة) حتى يتم غزو العراق واصطياد حاكمها.. لا نقول: لم يجرؤ الحكام الأشاوس على الوقوف بجانب العراق فحسب ، وإنما " ساعدوا " و" آزروا " و"سهلوا" لقوات الغزو أن تلتهم هذه الأرض الغالية العزيزة أيضًا.

ولما تم إلقاء القبض على صدام وظهر بما ظهر به من منظر غاية فى الاهانة ، كرر الحكام الأشاوس مظاهر السكوت والتزام السلبية ، دون أن يعرفوا أن " الكلام لك يا جارة " ، وأن الدور لابد أن يلحق بكل من تسول له نفسه أن يُظهر ، أوة حتى يحاول أن يظهر اعتراضًا أو تضامنًا مع الرئيس الأسير .. وأصبح فى تاريخنا رئيسان تم تأديبهما عبرة لمن لا يخشى العصا الأمريكية : ياسر عرفات ، وصدام حسين.

وأسرع ثالث ، كان مشهورًا بالمغايرة والمقاومة والمؤازرة لقوى المقاومة ، وسلم نفسه طواعية ، ويعلن انضمامه إلى نهج " المسايرة " ، ولم يعدم أن يسوق المبررات ويقدم الاعتذار لا ليبيض وجهه أمام الجميع ، ولكن ليسكت صوت ضميره الذى قد يستيقظ ولو للحظات !! بقى حاكم رابع .. وهو الرئيس السورى ينتظره دوره الآن.

من حقك أن تسوق الكثير من الأمثلة على سوء نظام حكم الحزب الواحد واستدامة حاكم على سدة الحكم، وما يجره هذا وذاك من صور قهر واستبداد وفساد، ولكن .. لم لا نميز بين "نظام حكم" وبين " وطن " و"شعب" ؟ مهما كان النظام السورى ، فلابد له أن ينتهى فى يوم من الأيام ، ولكن سوريا الوطن سوريا الشعب، لابد أن تبقى.

صحيح أن المحافظة على النظام الحاكم هى إعطاء شرعية لاستمرار النهج غير المرغوب فيه ، لكن .. لماذا لا يكون حل الموقف الراهن من الداخل السورى نفسه- كما كتبنا فى مقال سابق لنا – لا بثورة وتمرد ، ولكن بإعطاء صوت العقل حقه فى أن يعلو ، بإعطاء المصلحة السورية الشعبية حقها فى أن تسود.. بعملية إصلاح جذرى ، تفتح أبواب الحرية ، وتتعدد الأحزاب ، وتتنوع الصحف ، وبتم تداول السلطة.

يتنادى زعماء فى لبنان بأن هذا لن يكون إلا برحيل النظام.. وسؤالنا هو: وأى النظم العربية لا تجرى فيه الأمور بمثل ما تجرى به سوريا ؟ رحم الله إحسان عبد القدوس فى عنوان روايته الشهيرة (يا عزيزى .. كلنا لصوص) !! ولو كان حيا لأصدر رواية أخرى تحمل عنوانا يسير على نفس النهج (يا عزيزى .. كلنا طغاة)!!

وأعجب ما نسمع، أن هؤلاء الزعماء اللبنانيين ، حتى إذا سلمت بمقولتهم ، يعلنون صراحة أن هذا الحل الذى تصوروه لابد أن يتم على يد قوة أجنبية. ولم يستوعبوا الدرس العراقى ، ولم يستوعبوا من قبله الدرس الكويتى .. أعطونى مثالاً واحدًا لقوات دولة كبرى ، فعلت شيئا مثل هذا المطلوب " لوجه الله " دون أن تقبض الثمن مضاعفًا .. والثمن هو رأس الوطن نفسه ، دون الاكتفاء برأس النظام.

كم هو حكيم هذا الذى قال ذلك المثل الشعبى العبقرى: (أنا وأخويا على أبن عمى ، وأنا وأبن عمى على الغريب) ! ومن العجائب اللبنانية حقا

أن تجد الزعماء الذين يتنادون بضرورة تحرير لبنان من السيطرة السورية ، يسكتون تمامًا على ما يمارس عليهم كل يوم ، بل وكل ساعة ، من سيطرة أجنبية أبرزها أمريكا وفرنسا فسفيراهما يمران كل يوم على هذا الزعيم وذاك علانية ، طبعًا ليس لمجرد شرب القهوة والشاى.. وطبعًا لسنا من السذاجة بأن نتصور إنهما يصدران أوامر، فقد انتهى هذا الأسلوب منذ زمن بعيد ، ولكن هناك أساليب أخرى لا دراية لنا بها ، ولكننا نعرف أن هناك " نارًا " عندما نرى الدخان قد تصاعد !!

وهم يبدون انزعاجا إذا تقدم طرف عربى ليقدم اقتراحًا ، ويرفعون الصوت عاليًا بأنهم لا يعترفون بمثل هذه المبادرات مادامت لا تجرى على الأرض اللبنانية وبمشاركة الأطراف اللبنانية ، ولم يتذكر أحد من المحتجين هذا عندما تم تأليف وزارة الميقاتى بعد الاستقالة الأخيرة لعمر كرامى، فيما لا يزيد على أربع وعشرين ساعة ؛ لأن السعودية وفرنسا وأمريكا اتفقت على ذلك !!

حقا لقد عاد " حكم الطوائف" الذى شهدته أرض الأندلس منذ عدة قرون ، وانتهى بأن اندثرت الدولة العربية الإسلامية، فهل نسير فى اتجاه نفسه، أم أن الشعوب سوف تستيقظ من نومها لتنقذ الأوطان من مهاوى الضياع؟!!

تجربة فى لبنان*

ارتبطت لبنان فى ذهنى عبر عقود بعدة صور، منها هذه الحرية غير المعهودة فى أى ركن من أركان الوطن العربى فى التعبير عن الرأى ، وما ترتبط بها من " تنوع " و " تعدد" فى الاتجاهات والمشارب ، على الرغم من أن هذا ليس حال المناخ الجغرافى .

ومنها هذا الزخم الكبير فى النشر الثقافى فى كل المجالات ، خاصة الترجمة ، وإن شابتها تعبيرات ومصطلحات نشعر بأنها نحتت نحتًا غير مألوف فى اللغة العربية. ومنها هذه الطبيعة الربانية التى لم أكن أرى صورها إلا من خلال ما يصور من أفلام مصرية سواء من القديم أو من الحديث. ومنها : هذه المقاومة الإسلامية التى من خلالها نرى بصيصًا من نور وسط " نوم " عميق يغط فيه العالم العربى مستسلمًا ، ذليلاً بقيادة حكام فرضوا علينا.. مقاومة تؤكد أن " السلاح " و " القوة " ركيزة التعامل الرئيسية مع شياطين هذا العصر من إمبريالية أمريكية واستيطان صهيونى.

ومنها بطبيعة الحال : هؤلاء المغنيات والمذيعات الخليعات اللاتى تمتلئ بهن شاشات التلفاز الفضائية التابعة لبلدان عربية مختلفة ، مما كان له أثره على بعض مذيعاتنا فى التأسى بهن .. لعنها الله " أسوة سيئة " !! لكن هذه الساحة الواسعة التى تموج بالحرية والتعددية تكتوى دائما بنيران " فُرقة " تتمكن من خلالها هذه القوة أو تلك من التدخل وفرض هيمنة وسيطرة تتحكم وتهيمن .. توجه وتُسير.

فإذا كانت لبنان هى البلد العربى الوحيد الذى يمكن أن ترى فيه " رئيسًا سابقًا " مما يشير إلى حياة سياسية ديمقراطية ، إلا أن المحزن حقا أن من يتم انتخابه من رؤساء لا يكون للبنانيين الحرية الكاملة فى اختياره ،

---

* جريدة الأسرة العربية، ٦ فبراير ٢٠٠٦

وإنما لابد أن يكون ذلك برضا قوة مهيمنة على الساحة هناك. فقد استطاعت مصر الناصرية فى فترة من الفترات أن يكون لها الرأى الحاسم فى اختيار رئيس الجمهورية اللبنانى .. وكان لإسرائيل فى فترة أخرى دور .. والولايات المتحدة الأمريكية وسوريا .. وهكذا.

وحتى يونيو عام ٢٠٠٥ لم أكن قد زرت لبنان على كثرة ما سافرت وطفت ، إلا مرة واحدة فى سبتمبر عام ٢٠٠٢، لكنها كانت زيارة لا تزيد على ثلاثة أيام منها يومان لا نكاد نغادر دار الإفتاء اللبنانية إلا للذهاب للفندق للنوم ، وفى اليوم الثالث استطعنا بالكاد – وبعد إلحاح – زيارة بعض الأماكن السياحية فى بيروت ، وعلى عجل .. إلى أن دعيت أستاذًا زائرًا لجامعة طرابلس الإسلامية لمدة خمس أسابيع لطلاب الدراسات العليا فى التربية الإسلامية. وعلى الرغم من أننى كنت عائدًا لتوى من جامعة اليرموك بالأردن لمهمة مماثلة ، لكنها كانت قد دامت ما يقرب من ثلاثة أشهر ونصف شهر، فلم أتردد فى قبول الدعوة إلى لبنان شوقًا وحبًا فى الاستطلاع قبل أى شئ آخر؛ حيث إن المقابل المادى غير مغر.

كانت البيئة التى وُجدت فيها طرابلس بعيدة تمامًا عما ارتبط فى أذهان الناس للأسف ببعض من أسميناهم " بالأسوة السيئة " ، فقد كان المناخ مما تمكن تسميته بالمناخ الإسلامى، على الأقل فى الشكل والسلوك العامين. صورة مختلفة تمامًا عما ترتبط به لبنان فى أذهان الغالبية من الناس خارج لبنان، وكأن لبنان هى فقط " نانسى عجرم " و "هيفاء وهبى " و " نوال الزغبى " وغير هذه وتلك مما تمتلئ بهن الساحة العربية بكل الأسف وبكل الأسى!

أذهلتنى المشاهد الطبيعية للجبال الخضراء، وشلالات المياه المتدفقة من بعضها إلى درجة شعرت معها بحقيقة المقولة التى تؤكد أن " من رأى ليس كمن سمع " فمهما شاهدت من أفلام ، ومن صور تصور جمال الطبيعة

اللبنانية ، فإن صعود الجبال ورؤيتها رأى العين والإقامة ساعات وساعات ، على فترات مختلفة هو أمر آخر بالفعل ، لا تستطيع فى كل لحظة إلا أن تنطق بصوت عال " سبحان الخلاق "!

ولم أكن أتصور أن للمسلمين وجودًا ملحوظًا مثلما رأيت .. خاصة أن طرابلس منطقة سنية إلى حد كبير ومع الأسف ، فليست لهم شوكة مثلما لغيرهم ؛ حيث إن غالبية الزعماء السنة السياسيين قد غلبت عليهم النزعة التجارية والأهواء السياسية ، والنهج الميكيافللى ، على غير ما رأينا بالنسبة لزعماء الموارنة . وفضلاً عن هذا، فحتى فى مجال العمل الديني تطل الفُرقة برأسها لنشهد " تشرزمًا " مؤسفًا .

وعلى الرغم من أن قاعة الدراسة فى جامعة طرابلس الإسلامية صغيرة ؛ حيث لا يزيد الطلاب على نيف وعشرين إذا بى أرى البعض من الطلاب يريد أن يأتى وقتما شاء ويخرج وقتما أراد ، ولا يرى الطلاب ضرورة للحضور – رغم نص النظام على ذلك – وإنما المهم هو حضور الامتحان !! وعند مناقشة مسألة ما فى موضوع المحاضرة ، لم أجد هذا النظام المألوف الذى تعودنا عليه هنا فى مصر ، وهو أن يرفع طالب الكلمة يده مستأذنا فى التعليق أو التساؤل ، فلما أبديت عدم موافقتى على قيام طالبة بالكلام بغير استئذان ، احتجت هى على ذلك مستندة على أنهم " ليسوا صغارًا فى مدرسة ابتدائية " ، وعندما كنت أشير إلى " ما يجب أن يكون " وأن هذا الذى يسلكونه غير مستقيم ، كانت الإجابة دائما: " هيك لبنان " !!

بعد فترة من التآلف بينى وبينهم بدأت أتيقن من أن الطبيعة الثقافية للبنان، لم تفرض فقط التعدد والتنوع بين " طوائف" و"أحزاب" و"مذاهب" و"أديان"، ولكنها وصلت إلى نخاع المجتمع اللبنانى ، أقصد إلى الأفراد أنفسهم ، فإذا بك تجد هذا غير ذاك ، لا فى تلك الحدود المعروفة المألوفة بين البشر حيث ما نعرفه من فروق فردية وتباين حتى بين الأخوة فى البيت

الواحد ، ولكن هذه الاختلافات التى لمستها كانت جذريـــة وملموســـة ، ولا يحاول أحد إخفاءها، فكأن هناك أراء ونوازع بقدر عدد اللبنـــانيين أنفـــسهم، وكأن كل فرد يريد أن يكون له " نظام" يخصه، ويتصرف بمقتضاه!!

كان تفسير هذا كامنًا فى نظام التعليم .. فليس هناك نظام " قومى " عام يتولى اللبنانيين صغارًا فى بوتقة واحدة ليوفر قواسم مشتركة بينهم ، وهـــذا هو أساس " المواطنة" الحقيقية . قمت مرة مفزوعًا من نومى على صـــوت انفجارات وطلقات رصاص ، حتى لقد تصورت عودة الحرب الأهلية، فـــإذا بها تعبيرًا عن فرحة البعض ممن نجحوا فى امتحان الثانوية العامة ؛ حيـــث إن حمل السلاح هناك هو أمر " معتاد "، وحمدت الله على ما نعيـــشه فـــى مصر؛ حيث طالما أبديت ضيقى من أصوات " البمب " الـــذى يـــدوى أيـــام الأعياد الإسلامية والمسيحية ، وقلت فى نفسى: حقًا البومب أرحم من طلقات الرصاص تدوى فى المساء لا فى الأفراح كما نرى فى الأقاليم المـــصرية ، وإنما فى أى مكان ، ولأى مناسبة فى لبنان ! لكن ماذا عن الشأن السياسى ؟ هذا هو ما نفرد له مقالاً آخر.

عواصف الجبل*

أما الجبل فهو " لبنان" .. وأما " العواصف" فهى أقل ما توصف به الأحداث بالفعل منذ مصرع الزعيم المعروف رفيق الحريرى فى الرابع عشر من فبراير من عام ٢٠٠٥، ونستطيع بالفعل أن نصف مخطط اغتيال الرجل بأنه " مخطط شيطانى " على درجة عالية من الدقة أريد به "زلزلة" أوضاع وأحوال فى المنطقة العربية حتى يكتمل مسلسل إسقاط هذا الوطن الكبير المنكود فى " جب " لا خروج منه!

فى أحد أيام يونيه من العام الماضى وأنا أستاذ زائر فى جامعة طرابلس الإسلامية ، وبعد انتهاء محاضرة صباحية رغب بعض الطلاب أن " يفرجونى" على بعض معالم طرابلس ، تلك المدينة المعروفة تاريخيا بأنها بالفعل عاصمة إسلامية من طراز متميز ، ولم أكن قد غادرت مقرى بسكن الجامعة منذ أن وصلت.

وبعد الطواف عبر شوارع متعددة ، عرضوا على أن نجلس فى أحد المحال لتناول " البوظة "، نظرا لشدة الحرارة فى ذلك اليوم ، فأظهرت امتعاضى الشديد من العرض " فالبوظة " ترتبط فى ذهنى بصور تبعث على الاشمئزاز، سواء من حيث تكوينها أو أماكن تناولها ، أو مستوى من يتناولونها ، فإذا بهم يضحكون، ويصححون لى تصورى بالقول بأن ما يسمونه " بوظة " هو ما نسميه فى مصر "أيس كريم"!

كان لابد أن يتطرق الحديث بيننا إلى الشأن السياسى ، خاصة ونحن فى ذلك الوقت كنا نعيش هناك فى ذروة الأحداث، وقد تمت توا الانتخابات النيابية التى فاز بالأغلبية تيار المستقبل الذى يرتبط بالحريرى ، وكان أبرز ما سجلته من ملاحظات لهم أن " الوراثة السياسية " معلم مهم فى السياسة

---

* جريدة الأسرة العربية، ١٢ فبراير ٢٠٠٦

اللبنانية ، فلابد أن يرث ابن " كميل شمعون " مـثلا- رئـيس الجمهوريـة سابق- ابنه، ولابد أن يرث العمل السياسى، بعد وفاة سليمان فرنجية - كان رئيسا للجمهورية أيضاً - ابنه... وهكذا ، وفقا للمنطق نفسه ، كان لابـد أن يرث رفيق الحريرى ، ابنه سعد ، على الرغم من أنه لم يُعرف عنـه أبـدًا اشتغال بالسياسة من قبل ، فضلا عن انغماسه التام فى العمل الاقتـصادى ، وتواجده أغلب الفترات خارج لبنان ، وخاصة المملكة العربية السعودية !!

وكنت واحدًا من الناس ممن يجدون فى أنفسهم "اطمئنانا" لوجود قوات سورية على الأرض اللبنانية ، لاعتبارات كثيرة ، وأن حادث الحريرى كان مقصودا به أن يُتخذ "تُكأة" لتفجير الغضب ضد سوريا والفصل بينها وبـين " توأمها " لبنان ، وينكشف "ظهر" المقاومة الإسلامية التى يقودها حزب الله فى جنوب لبنان ، فتطمئن إسرائيل من ذلك الإزعاج المستمر الذى تمثلـه هـذه المقاومة.

ثم إذا بجلسائى من الطلاب - كانوا طلاب دراسات عليا- يظهرون لى غير ما تصورت ، ويبدون ارتياحا لمغادرة القوات السورية الأرض اللبنانية ، إذ يبدو بالفعل أن السوريين لم يحسنوا التصرف فى الشأن اللبنانى ، فلـم تكن إقامة عسكرهم فى لبنان إقامة "ضيف" و"أخ" بل كانت إقامة "سيد" على أرض " مسود" وساقوا لى أمثلة متعددة من سجن واعتقال واسـتغلال ممـا يستحيل على منطق أن يبرره بأى حال من الأحوال.

ثم إذا بهم يؤكدون لى ذلك أن ما تم من انتخابات لعب فيها " المـال " دورًا ملحوظا، فسبقونا بذلك ، ولم تكـن "الرشـاوى" المـشهورة لـشراء الأصوات فى انتخاباتنا الماضية حدثًا فريدًا ، إذ يبـدو هكـذا تـصور ولاة الأمور للشعب العربى، فمثلما يباع الحكام ويُشترون من قبل القوى الكبرى ، فلا بد أن يباع المواطنون ويشتروا كذلك ، من قبل القوى الحاكمة التى تريد أن تحكم ، خاصة أن " آل الحريرى" يمثلون قوة مالية مذهلة.

ودعتنى دارسة فلسطينية إلى لقاء فكرى تنظمه جمعية هى مسئولة عنها فى أحد المخيمات الفلسطينية خارج طرابلس (نهر البارد) ، وكان موضوعها عن بعض المعالم التربوية من القرآن الكريم. كنت متشوقًا للغاية أن أزور مخيمًا فلسطينيًا ، حيث كان تصورى القديم من خلال كلمة " مخيم" أنه مكون من مجموعة " خيام" لكنهم أوضحوا لى أن البداية منذ سنوات بعيدة كانت هكذا بالفعل.. لكن تم بناء مساكن ، فحلت مكان الخيام لكن ظل الاسم "مخيم" قائما.

أقول الحق .. ما إن بدأت السيارة تدخل بى منطقة المخيم حتى لمست مباشرة ، تلك المأساة المتكررة فى مواقع شتى فى لبنان ، والأردن، مما يسمى "مخيمات" الفلسطينيين ، فهى تكاد تكون صورة طبق الأصل للمناطق العشوائية حول القاهرة أو داخلها (لكن على أسوأ) بحيث تسير السيارة بصعوبة بالغة من شدة ضيق الشوارع ، وكأنها تكاد تلامس المبانى على جانبى الطريق ، فضلا عن هبوط وصعود والتواء طوال الطريق ، ومئات الأطفال الصغار الذين " يسرحون" فى الشوارع ، وهم فى حال يرثى لها ، مما يذكرنى بحال " حارات قريتنا فى مصر ، وكيف تسرح فيها الدواجن !!

فضلاً عن ذلك فقد تبين لى أن المكان محدد المساحة وبطبيعة الحال، فهناك تزايد فى المواليد ، فيتزايد التكدس ، ولا يُسمح للمنطقة بأن " تتمدد " جغرافيا!

طوال الطريق أخذت مشاعر عاصفة تهاجمنى ، وتجسد لى مأساة هذا الشعب المنكوب ، فلما وصلت مكان الجمعية ، وكان بانتظارنا عدد لا بأس به ، وإن كان المكان ينطق بفقر ملحوظ وبؤس مقيم ، شعرت بأن ما كنت قد حضرته ذهنيا من أفكار لمحاضرتى قد طار من رأسى ، ولم يعد مناسبا قوله ، من شدة قسوة ما رأيت ولمست ، وتجسدت مأساة وطن وشعب أمام عينى لا تبارحهما، فماذا كانت النتيجة ؟

صارحت الحضور بما شعرت به وما حدث لى من " توقف " فى نطاق أفكار كانت مطلوبة ، فرأيت كيف أن من المحتم علىّ أن أسير فى تفكيرى فى طريق آخر.

لا سبيل إلى تجاوز ما يعيشه هؤلاء بصفة خاصة ، والمسلمون بصفة عامة، إلا بامتلاك أسباب القوة ، ولست بحاجة إلى التذكير بقول شوقى (وما استعصى على قوم منال إذا الأقدام كان لهم ركابا) وأيضا (وما نيل المطالب بالتمنى ، ولكن تؤخذ الدنيا غلابا)، وأن هؤلاء الذين ينادون بما يسمونه " بالسلام" إما أنهم " مخدعون" وإما " يخادعون"!

هنا عرجت على عدد من الأفكار والمقومات التى تتضمنها التربية الإسلامية سعيا نحو امتلاك " القوة" ، التى هى المعيار الحقيقى للحياة الكريمة فى عصرنا الحالى ، مع ملاحظة أن القوة إذا كانت تتمثل فى أشكالها الظاهرة المعروفة من حيث " السلاح" و"المال" فلها مجالاتها الأخرى التى لا تقل عن ذلك شأنا، بل هى المقومات الأولى التى بدونها لا نصل إلى امتلاك هذه المظاهر المادية المحسوسة.

غضب تأخر ! *

النظرة العجلى، تشير إلى " صحوة " عامة تسعد وتفرح ؛ لأنها تؤكد صلابة إيمان المسلمين ، وأنهم لا يخافون فى الحق لومة لائم ، وأنهم قد يصبرون مرة أو مرتين أو أكثر ، ولكن هناك خطوطًا حمراء ، إذا تجاوزها المعتدى ، فلا صمت ولا استسلام ، وهذا مما يطمئن القلب ويقنع العقل .. ليست رغبة فى السباحة ضد التيار.. وليس إعلانًا لتقاعس وجنوحًا إلى الاستسلام.

فكاتب هذه السطور لا يحتاج إلى أن يعلن أن حياته كلها قد لا تساوى ذرة تراب علقت بقدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لكنها محاولة تصحيح فهم ، ومن ثم تصحيح تفسير ، وتصويب مسار .. ولنعد إلى التساؤلين اللذين طرحناهما فى البداية . فى تصورى أن التشديد على حب رسول الله وتقديمه حتى على حب الإنسان الفطرى لنفسه، هو لأن الرسول هو الذى اختاره المولى عز وجل لخاتم الرسالات الإلهية إلى العالمين ، فإن حبه وتقديره وتقديمه .. كل ذلك إنما هو ترجمة لمدى الحب للرسالة الإسلامية وتقديرها ، فالحب والتقدير أمران لا يتعلقان بالشخص فى حد ذاته ، وإنما بما يحمل وما يؤمن وما يسلك وما يدعو إليه .. إلى غير هذا وذاك مما يتجمع فى عقيدة لحمتها وسداها فيما " وقر فى القلب وصدقة العمل ".

رأيت مرة مجموعة معتمرين من مصر بعضهم تعلق بأستار الكعبة المشرفة يدعو ويبكى بصوت مسموع، فأكبرت هذا الإيمان لدى هذا النفر .. وتصادف أن رأيتهم فى رحلة العودة إلى القاهرة، وشاهدت كيف يسعى البعض إلى أن يتجاوز دوره فى الصف ، والكثرة تحمل من الأوزان ما يتجاوز كل الحدود .. وفى القاهرة ، وبعد الخروج من المطار تبارى هذا مع

---

* جريدة الأسرة العربية، ٢٣ فبراير ٢٠٠٦

ذاك فى الفخر بذكائه الذى مكنه من أن يفلت من الجمارك بكذا وكذا مما هو ثمين.

وهل كان التعلق بأستار الكعبة والبكاء إذًا تعبيرًا عن حب حقيقى وتعلق بالعقيدة ؟! لا أظن هذا على المستوى الفردى الإنسانى ، نقول: إنك إن أحببت شخصًا عملت بكل ما فى وسعك على أن تأتى من الأفعال ومن الأقوال ما يسعده .. ما يطلبه. وما يدعو إليه ! نحن لا نسعى إلى الكشف عما فى صدور الناس ؛ فعالم الوجدان والقيم والعواطف والميول " كامن " بالقلب والمشاعر والأحاسيس ، لكن " الصب تفضحه عيونه"، كما يقول شاعرنا العربى فى وصف حال المحب، أى : أن " السلوك" هو تعبير عما وقر فى القلب وصدقه العمل ..

من هنا، فليتحملنى القارئ فى قولى:

إن كل تدنيس لأرض الإسلام والمسلمين من قبل قوى أجنبية استعمارية مستغلة، هو إهانة للإسلام والمسلمين، ومن ثم إهانة لرسول الله ..

وكل تعاون مع من دنسوا أرض الإسلام والمسلمين ، هو إهانة لرسول الله ..

وكل بغى وقهر يتعرض له المسلمون من قبل أولى الأمر ، هو إهانة لرسول الله ..

وكل تقاعس عن الأخذ بأسباب القوة هو تعريض للإسلام والمسلمين للتخلف ، ومن ثم للاستضعاف ، والوقوع فى براثن الذل والاستعباد ذلك هو النظر العلمى والفهم العقلى والصدق الإيمانى كما أراه وأفهمه.

ولقد خرج ألوف من المسلمين يظهرون غضبهم عدة أيام عندما اقتحم شارون أرض المسجد الأقصى ، واندلعت شرارة الانتفاضة العظيمة ، ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ لا شئ ! لماذا ؟ لأن رد الفعل هذا وقف عند حد التعبير العاطفى .. وتكرر هذا فى مواقف مشابهة عشرات المرات ، وسوف

نعود إلى الصمت بعد فترة وننسى ما وجُه إلى رسول الله من إهانة ! وما عرف التاريخ أمة يمكن أن تُبنى بالعواطف المشبوبة والمشاعر المتأججة.

هى ضرورة من غير شك ، لإعلان المواقف ، وشحن القلوب بالحمية والطاقة .. ولكنها خطوة أولى لابد أن تتبعها خطوات .. خطوات عمل وجهد . وإجراءات .. سعى نحو تغيير واقع ، فلما لم يحدث هذا راحت المظاهرات كأنها خدوش على سطح ماء !!

قالوا لكرومر – أول عميد للاحتلال البريطانى فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر– : لم تترك مصطفى كامل وصحيفته تشن الحملات الشعواء عليكم دون مصادرة واعتقال ؟ فكانت إجابته أن " العربى " – يقصد المصرى هنا – يرى غاية المراد فى الإعلان عن الغضب ، أن يخطب خطبة أو يهتف أو يكتب مقالاً ، فإذا تم له ما سعى على هذا الطريق ، شعر بأنه أفرغ شحنات الغضب المكتوم ، ونام بعد ذلك مطمئن البال ، كأنه قام بالجهاد المطلوب ! لا أقول ذلك سخرية من أنفسنا ، وإنما اعترافًا بحقيقة مازالت قائمة حتى الآن.

وما يثير دهشتى حقًا، هو أن مثل هذه الإهانات الطنية ، ليست جديدة ، وإنما هى سلسلة طويلة منذ سنوات بعيدة تصدر من الغرب (هل تذكرون رد الشيخ محمد عبده على هاناتو ، الذى كان وزيرًا لخارجية فرنسا فى تهجماته على الإسلام فى أواخر القرن التاسع عشر ؟)، بل لقد كنت أدرس لطلابى عام ١٩٧١ نصوصًا بشعة إظهارًا لهذا العداء الغربى للإسلام والمسلمين ، حتى لقد ذكر أحدهم – كبرت كلمة تخرج من أفواههم– أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان مصابًا بالصرع ، وخلال ذلك تأتيه أحلام بكذا وذاك مما يرويه بعد ذلك لصحابته ، موهما إياهم بأنها وحى من الله ، وأن الكعبة مركز يبث الجنون بين المسلمين . وأن وأن .. إلى ما يسير فى هذا الاتجاه !

ويصعب أن نحصر العشرات من الأمثلة التى تسير فى هذا الاتجـــاه، وتنهج هذا النهج ...

هل نسينا تمزيق المصحف والتبول عليه فى سجون جوانتانامو ، أم أن ذلك يتبع " أبانا الذى فى واشنطن " ، فلا يجرؤ حاكم مسلم على الاحتجاج ؟! ثم عندما " يذلنا" حكامنا كل يوم وكل ساعة ، ونظل فى حالة استسلام مخزية ، فهذا إعلان بأننا لا نستحق الاحترام ، فكيف نتصور أن يحترمنا الآخرون ؟!! ليس هناك طريق إلا أن نكون أقوياء نحترم أنفسنا ، ونـــرفض الظلـــم والقهر والاستغلال ، وعندها سوف يعملون لنا ألف حساب.

حتى أنت يا هيكل ! *

منذ سنوات لا أذكر كم هى ؟ وعندما كان الراحل العظيم عادل حسين يرأس تحرير جريدة الشعب الموعودة التى نسيها الجميع ، أرسلت إليه مقالاً أنتقد فيه رأيًا كان قد ساقه الكاتب الكبير فهمى هويدى فى أحد مقالاته بالأهرام ، وإن كنت لا أذكر الآن ما هذا الرأى الذى دفعنى إلى أن أسطر ما أسطر من نقد، على الرغم من أن كل ما يكتبه الأستاذ فهمى، على وجه التقريب ، يكاد يتطابق تمام المطابقة مع ما أشعر به وأفكر فيه.

ثم إذ بعادل حسين يرفض نشر المقال ، فلما استفسرت منه عن سبب ذلك الرفض ، قال بحجة لم أشاركه فيها ، وإن كنت فيما بعد أدركت أن الرجل كان أكثر بصيرة منى ، فقد قال : إن الإسلاميين هم موضع هجوم ونقد شديدين ، ويتم التعامل معهم وكأنهم متهمون دائمًا ، يُرجِعون إليهم كل مصيبة ويُلصقون بهم كل سيئة ، حتى كأن القضاء عليهم أو فكرهم سوف يخلص مصر والعالم العربى كلية من أزماته ومشكلاته، ومن ثم فلا يجب أن يشكل الكتاب المشاركون فى التوجه نفسه عبئًا زائدًا عليهم بتوجيه سهام النقد إليهم.

وكان المنطق الذى استندت إليه أنا أن الإسلاميين بشر مثل كل بشر، إذ ينشطون ويفكرون ويكتبون ، فهم معرضون للخطأ ، وأن من الضرورى أن يمارسوا النقد الذاتى ؛ بحيث لا نصفق دائما لكل ما يفعلون ولكل ما يكتبون. وقد تذكرت هذا ، مترحمًا على الراحل عادل حسين فقد كان أبعد نظرًا منى ، وأنا أشاهد الحلقة الأخيرة من لقاءات الأستاذ محمد حسنين هيكل على قناة الجزيرة يوم الخميس الماضى ٢٠٠٦/٦/١٥؛ حيث انصب الحديث كله على الإخوان المسلمين ، وربما كانت هذه هى المرة الأولى التى يصرح

---

* جريدة الأسرة العربية، ٢٦ يونية ٢٠٠٦.

فيها الرجل بموقفه ورأيه من الجماعة ، على الرغم مما يسعى إلى تأكيده من أنه مجرد " راوية " لوقائع تاريخية، فانتقاء الأحداث وتفسيرها ، والكشف عن بعض علاقاتها ، يحمل موقفًا منها ضمنيًا ، خاصة إذا كان الراوى رجلا بحجم هيكل حتى لو أنكر ذلك.

وأعلم علم اليقين أن الأستاذ محمد حسنين هيكل لا يرد أبدًا على من يبدون نقدًا لما يكتب ويتحدث فيه ، لمنطق معين يراه ، وهذا من حقه ، رغم ما قد يشير إليه هذا من تعال على الآخرين ، أو غض الطرف عما قد يكون لما يراه من أصداء ، وإن كان من الحق أيضًا أن نقول أن ما يكتبه هيكل يحظى بنسبة متابعة قلما يحظى بها أحد ممن يكتب بالعربية، ومن ثم إذا أراد أن يرد ويناقش فإنه يمكن ألا يستطيع أن يفرغ لنفسه ولما يكتب.

ورغم أن من المفروض أن الرجل يدير أحاديثه حول ثورة ٢٣ يوليو، لكنه ينساق كثيرًا إلى الاستطراد ، وخاصة فى العودة إلى الماضى ، وإن كنت لا أنكر أننا نستمتع كثيرًا ببعض الاستطرادات عن الماضى ؛ نظرًا لما تكشف عنه مما نجهله مما كان يحدث وراء الأبواب. لقد راح الرجل يشير إلى أحداث العنف التى وقعت من قبل الإخوان ، مما يتصل بمقتل النقراشى باشا والخازندار، وغيرها من أحداث وقعت فى ذلك الزمن ، وما أعقبه من مقتل المؤسس الكبير الراحل الشهيد حسن البنا.

صحيح أن الإخوان هم أولى بالدفاع عن أنفسهم ولكن هذا لا يمنع من أن يبدى "مراقب" مثلى، من موقع "صداقة" ، رأيه الخاص فى هذا الذى تحدث به هيكل. فمن المتوقع أن يكون هيكل على دراية بما يقع على الإخوان من أعمال اضطهاد وقسوة ومطاردة وتشريد وسجن وتعذيب وتلويث منذ سنوات بعيدة ، لا فى مصر وحدها ، بل فى معظم بلدان العالم العربى ؛ حيث يكون للجماعة وجود ونشاط ، ومن ثم فلو افترضنا جدلاً أن الإخوان قد أخطأوا فى الماضى بمثل هذه الأحداث من العنف ، فهل نزيد

العبء ونشارك قوى الدولة البوليسية ، فضلاً عما يصدر عن قوى الصهيونية والإمبريالية العالمية ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية فى الحملة على هؤلاء الناس ، والإخوان ، من حيث الإمكانات " المادية" أضعف فى الرد؟

إن التركيز يكون دائماً على أحداث عام ١٩٤٨ التى مر عليها الآن قرابة الستين عامًا، وينسون أن هذا الزمن كان مفعما بمثل هذه الأحداث حيث كان القصر الملكى وكان الاحتلال لا يزالا مستمرّين ، واغتصاب فلسطين قد أصبح حقيقة واقعة ، وتستمر مع ذلك " المعايرة " بمثل هذه الأحداث ، ثم نكيل بمكيالين مثل الولايات المتحدة ، وننسى لإسرائيل ومسئوليها ما فعلوه من جرائم وصلت إلى حد تدمير قواتنا المسلحة وقتل ألاف من أبنائنا والتسبب فى تخريب اقتصادنا وتأخير حركة التنمية ، ومع ذلك نصادق زعماءها، ونقابلهم بالأحضان ، رافعين شعار: عفا الله عما سلف ، وأن السياسة لا تعرف العداء الدائم والصداقة الدائمة!! فهل جماعة الإخوان أشد خطرًا وإضرارًا بمصر من إسرائيل ؟!!

بل إن رئيس الدولة نفسه فى السبعينيات ، الراحل أنور السادات ، كان قد شارك فى مقتل أمين عثمان وزير المالية عام ١٩٤٦، وكذلك شارك فى محاولة اغتيال مصطفى النحاس بإلقاء قنابل على قصره بجاردن سيتى، ورئيس الدولة قبله، جمال عبد الناصر، كان قد شارك فى عملية اعتداء مسلح على حسين سرى عامر، وإن كانت قد فشلت.

لا أقول هذا تبريرًا للعنف الذى حدث فكاتب هذه السطور ممن ينبذون العنف، أيا كانت صورته وأيا كان الغرض منه، إيمانًا بصحة القاعدة القائلة بأن العنف لابد أن يجر وراءه عنفًا مقابلاً ، وغالبًا ما يكون أشد منه ، ولأن الفكرة لا يمكن للقوة المسلحة أن تهزمها مهما بلغت درجة بطشها، وإنما تهزمها فكرة أخرى تقدم رؤية أفضل وحلاً أكثر نجاحًا. ولا أدرى: لماذا لا

يلتفت الناقدون إلى أن الإخوان منذ أن بدأ السادات يفرج عنهم فى أوائل السبعينيات – أى منذ أكثر من ثلاثين عامًا – لم تسجل الروايات الرسمية نفسها أية حادثة عنف واحدة أمكن نسبها إلى واحد من هذه الجماعة ؟! بل لماذا لا يشيرون إلى ما لاقاه هؤلاء الإخوان من صنوف تعذيب وعنف دولة مضاد عبر عشرات السنين منذ عام ١٩٤٨ وحتى الآن، مما لم تلقه جماعة من الجماعات ؟

أما حكاية الشعار الشهير " الإسلام هو الحل " ، وإنه شعار فضفاض لا يشير إلى برامج محددة فهو أمر مثير للدهشة حقا ؛ ذلك لأن بعض الدول والتنظيمات والهيئات كثيرًا ما تتخذ لنفسها شعارًا، وهو بطبيعته يكتسب عمومية شديدة ولا يُتصور أن يشير إلى برامج ، وإلا فهل عندما رفعت ثورة يوليو شعار الحرية والاشتراكية والوحدة ، ألم يكن شعارًا عامًا فضفاضًا ؟ ومن قبل عندما رفعت الثورة الفرنسية شعار: الحرية والإخاء والمساواة ... وهكذا ؟ فالبرامج التفصيلية لا تأتى بالشعار العام الذى مثله مثل علم البلاد ، لا يمكن أن يحمل دلالات كافية تتبنئ بالبلد الذى يمثله.

ثم أين هى مساحة الحرية للجماعة: بحيث تعرض أفكارها وبرامجها على الناس من خلال صحف ومجلات تصدرها ، ومؤتمرات وندوات تعقدها ، وتعرف الناس بها وتتلقى وجهات نظرهم ويناقشونها وتناقشهم؟ وأين هى الإذاعات والقنوات التليفزيونية التى تتيح لهم فرص هذا وذاك ؟ أليسوا دائمًا ما يُطاردون ويُعلقون وتصادر أموالهم وأجهزتهم وأوراقهم؟ متى وكيف إذن تتاح لهم فرص عرض ما يفكرون فيه ؟ وأصبح معتادًا بين يوم آخر أن تقرأ فى الصحف نبأ عن القبض على مجموعة من الناس ، غالبًا ما يكونون من خيرة أبناء هذه الأمة: أساتذة جامعات ، وأطباء ومهندسون ومحامون وتجار، وأصحاب أعمال ، والحجة مكررة ومملة أنهم يروجون لأفكار جماعة

محظورة على الرغم من أنها تملأ الآفاق ليس فى مصر وحدها وإنما فى كل المنطقة العربية !

وإذ أذكر فى هذا لابد أن تقفز على الذهن صورة هذا الرجل العظيم، الدكتور عصام العريان الذى يعد نموذجًا لمن يحمل أخلاقًا رفيعة وعلمًا نافعًا ، لا يكاد يخرج من السجن حتى يعود إليه مرة أخرى حتى تستنفد طاقات الرجل ويتعب ، لكنه بفضل الله ورعايته يزداد تألقًا وقوة وصلابة إيمان كلما خرج من السجن ، ويكسب جماهيرية أوسع. هل نسينا ما حدث لهم فى الانتخابات البرلمانية الماضية وكيف تمارس السلطة التزوير علنا حتى لا يسجل الناس تأييدهم لمرشحى الجماعة ؟ إن هناك صحفًا تكاد تتخصص فى مهاجمة الجماعة بأموال الدولة وإن تخفت هذه الصحف وراء مجلس أعلى الصحافة ومجلس شورى ، فماذا تملك الجماعة من صحف حتى ترد عليهم ؟

فى مثل هذه الأجواء يكون الجهد منصبًا على الدفاع عن النفس ، وكأنهم دائمًا فى حالة قتال ، فلا يفرغون دائمًا للدرس والتفكير وبناء البرامج وتطويرها ، وإن كانوا لا يتوانون عن الاجتهاد فى هذا. إن هؤلاء الناس من أفراد الجماعة هم من أبناء هذا البلد من حقهم أن يمارسوا الدعوة والسياسة، وتكون لهم تنظيماتهم وقنوات التعبير عن آرائهم حتى يناقشهم من يريد مناقشتهم ، ويناقشوا هم من أخطأ أصحابه، وهذا وحده هو السبيل لامتصاص طاقات الغضب المكبوت، حتى لا تتحول إلى أعمال عنف صريح.

عندما أصبح السلام " خيارًا" ..!*

لست أقصد " بالخيار " هنا " طلب خير الأمرين ، كما يعرف المعجم الوسيط كلمة " خيار " وإنما أقصد به هذا النوع من الخضار الذى نستخدمه، وليس هذا فقط وإنما " الخيار" المخلل . ولمزيد من التحديد ، ونظرًا لما صرح به بعض الأطباء من أن نسبة ارتفاع ضغط الدم تتزايد بين المصريين بمعدل يثير القلق ، فإنى أتوجه بحديثى هذا إلى كل المصريين المصابين – مثلى – بارتفاع فى ضغط الدم ... أى الذين يجب أن يبتعدوا تمامًا عن هذا النوع من "الخيار" حتى لا يواصل ضغط دمهم ارتفاعه، فيحدث لهم مكروه لا قدر الله! وكذلك الذين لم يصابوا بعد بارتفاع ضغط الدم ، حيث إن الإكثار من المخللات يمكن أن يصيبهم به !

عندما وقعت اتفاقية كامب ديفيد (١٩٧٩) ، أرجو ألا ينزعج القارئ إذا صارحته بأننى لم أصب بالانزعاج الذى سرى فى أوصال معظم الجسم العربى، وقت توقيعها ؛ فقد خيل لى قصور النظر ساعتها أننا مادمنا قد جربنا الحروب عدة مرات ولم ينتج عنها إلا الخراب والدمار واستنفاد الكثير من طاقات البلاد، سواء فى الثروة المادية أو فى الثروة البشرية فلم لا نجرب البديل الآخر وهو السلام ، خاصة أن بعضنا أخذ يردد أنه أن لنا أن نستريح لبناء بلدنا حتى نعوض ما فات ، بل لقد كنت أشعر بالرضا أنه سوف يترتب على ذلك تحرير سيناء ولا يكون جندى إسرائيلى واحد على ترابها الغالية.

وعندما عُقد مؤتمر بغداد بين الملوك والرؤساء العرب فى العام نفسه، وقررت الدول العربية – بضغط مشهور من صدام حسين إلى درجة تهديد البعض بالقتل – مقاطعة مصر ، كنت أشعر بسخف ما فكر فيه هؤلاء ، وبلغ بى الضيق مداه خاصة أننى كنت أعمل فى كلية التربية بمكة المكرمة فى

---

* جريدة الأسرة العربية، ١٢ أغسطس ٢٠٠٦

هذه الفترة ؛ حيث العديد من الجنسيات العربية ، وخاصة الفلسطينية الـذين أخذوا يعايرون وينتقدون بشدة ، وحيث كنت أتابع ما تكتبه كثير من الصحف والمجلات العربية التى أخذت تنهال نقدًا وتقريعًا وربمـا تخوينًـا لمـصر وقيادتها السياسية فى ذلك الوقت ، وخاصة السادات.

لكننى فى الوقت نفسه لم أكن مرتاحًا بأى حال من الأحوال من تلـك المعركة التى كان الدكتور لويس عوض قد آثارها أولاً على صفحات الأهرام ثم امتد لهيبها إلى سائر الصحف والمجلات ، وكان ذلك فيما فهمنا بعد ذلك ، تمهيدًا لكامب ديفيد؛ حيث سمى حرص مصر على " التـضامن العربـى" و "القومية العربية" بأنه أدخل فى باب " الأساطير السياسية ".

وكذلك المعركة التى أشعلها توفيق الحكيم عما أسماه " حياد مـصر " أيضًا فيما فهمنا بعد ذلك أنه كان يهيئ الرأى العـام للاتفاقيـة.. مؤكـدًا أن مصر لا ينبغى أن تلتفت إلا لمصالحها الوطنية الخاصة، ولا ضرورة أبـدًا لأن تضحى بمال أو عتاد أو بشر من أجل هذه الدول العربية أو تلك ، وهو النهج الذى أصبح سياسة رسمية " فاقعة اللون" منذ سنوات ! وشارك الراحل الدكتور حسين فوزى ، زميله الحكيم فى نفس الاتجاه... أما فى عام ٢٠٠٦ فقد غزت الدولة النازية الصهيونية دولة عربية هى لبنان ، وآزرت أمريكـا الدولةَ النازية ، فإذا بنفس الدول العربية التى هبت لتحرير الكويت – وفـى مقدمتها مصر – ترفض حماية لبنان ، بل والأنكى من هذا وأشد إيلامـاً أن توجه تصريحات لوم وتقريع وإدانة لأن المقاومة أتت فعلا شـجع النـازيين الجدد على الغزو ، ثم تبلغ المأساة ذروتها بتصريحات تستخف بعقولنا بـأن دم المصريين هو الدفاع عن مصر وليس للدفاع عن آخرين ؟

فلماذا تشجعت الدولة على أن يُهدر دم مصرى دفاعًا عـن الكويـت واستنكفت بشدة أن يُفعل الشئ نفسه دفاعًا عن لبنان ، مع أن المعتـدى فـى الحالة الأولى " عربى " والمعتدى فى الحالة الثانية " صهيونى " ؟ ، هذا مع

الوضع بعين الاعتبار أن المقاومة فى لبنان لم تطلب مساعدة عسكرية ، كما أعلن زعيم المقاومة حسن نصرالله جهارًا على شاشات التلفزة ، وكل ما طلبه ألا يكون مثل هؤلاء الزعماء " غطاء " للعدوان النازى !

الفارق الواضح بين الحالتين : أن فى الأولى مصلحة أمريكية (مع التسليم أيضًا بمصلحة كويتية مشروعة) ، تمت مؤازرتها " أمرًا " و "إلزامًا" ولم يكن تصرف الدولة " أريحية " عربية ، ولا انطلاقًا من روح تضامن ! بل إن رئيس الدولة نفسه ، وإمعانًا فى المسايرة وفى فعل غير مسبوق ولا ملحوق ، وقف يخاطب قيادات الدول العربية عام (١٩٩٠) بخطورة ما حدث للكويت ، ويدعوهم إلى الاجتماع الفورى ، ذلك الاجتماع الذى اتخذ فيه قرار الطاعة الصادر من الولايات المتحدة.

وعندما غزا النازيون الجدد أرض لبنان حدث ما حدث، مما أشرنا إلى بعضه ، ومما لا يزال بذاكرة القراء مما يندى له الجبين إلى الدرجة التى شعرت فيها ولأولِ مرة فى حياتى بالخجل أن أكون مصريًا ، وسخرت مما كان مصطفى كامل قد قاله : لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا ، لولا بقية إيمان تؤكد لى أن الحكام غير مؤبدين على كراسيهم، أما الوطن فهو المستمر ما شاءت إرادة الله وما استمرت حياة!

ذلكم موقفان واضحان يشيران إلى: من الذى قرر أن تدخل مصر حرب الكويت عام ١٩٩٠، ومن الذى لا نقول رفض أن تدخل مصر حرب لبنان ٢٠٠٦؛ حيث لم يطلب المقاومون منها كذلك ، بل وبَّخ وانتقد ولام ، وفى أقوال أخرى علِم مسبقًا بالغزو النازى الجديد ؟ كيف نفرح بخلو أرض من جندى أجنبى – وهو أمر ضرورى ومطلوب – بينما الإرادة الوطنية ، لا تقول أسيرة ، بل إنها تريد ما لا نريد ولا تريد ما نريد ! وأسألوا قيادتنا: من العدو اليوم ومن الصديق ؟

المنطق بعبارة واضحة وبسيطة: العدو هو الذى يحول بيننا وبين تحقيق ما نعمل ، سعيًا نحو النهوض بالأمة والرقى بالوطن ، والصديق ، وهو، إن لم يُعنا على ذلك فهو على الأقل لا يعوقنا ويربكنا. ثم إذا بالأيام تكشف بعد فترة وجيزة عن أن ما تخيلناه من "تحرير" و"سلام" هو الذى كان من الأساطير السياسية ، هو الذى كان بالفعل وهمًا ، أو قل "مخدرًا " كتلك التى يتناولها المدمنون فيتصورون أنهم يعيشون فى عالم جميل ، بينما هو ينطق بكل ما هو سيئ وينتج كل ما هو شر، على الرغم مما يتصوره البعض من أننا بالفعل "حُررنا" بدليل عدم وجود جندى أجنبى على تراب أرضنا ، وأننا بالفعل لم ندخل حربًا منذ أن وقعت الاتفاقية ، وبالتالى فموارد مصر موجهة إلى التنمية.

أما " التحرير " فمخطئ من يتصور إنه مجرد خلو أرض الوطن من جنود أجانب ، ويكفى أن أستدعى إلى الذاكرة حالة مصر فى السنوات القليلة قبل الثورة ، كان عشرات الآلاف من الجنود البريطانيين يحتلون منطقة قناة السويس كلها ، وكان يقال الكثير عن النفوذ الأجنبى على القيادة السياسية وخاصة الملك فاروق ، ولكن مصر – مع التسليم بكل صور القصور التى كانت فى ذلك الوقت – استطاعت أن تتخذ قرارًا بدخول حرب فلسطين أثر إعلان قيام الدولة النازية الصهيونية فى ١٥ مايو ١٩٤٨. وفى أكتوبر من عام (١٩٥١)، والاحتلال مازال مستمرًا اتخذت حكومة الوفد برئاسة مصطفى النحاس قرارًا بإلغاء معاهدة (١٩٣٦) التى كانت بين مصر وبريطانيا ، وساعدت على قيام حركة فدائية وطنية تعمل على جبهة القناة ، ولم يقل أحد ساعتها، كما قال من ابتلينا بهم من حكام اليوم إن قيام حركة مقاومة يعنى السماح بدولة داخل دولة.

ثمرات انتصار !! *

كتب يؤاف ليمور، فى صحيفة معاريف ينقل سخرية ضابط بارز، لم يحدد اسمه ، يعرف مسألة الحواجز العسكرية التى ولع الإسرائيليون فى إقامتها ظنّا منهم أنهم بذلك يوفرون لهم الأمن والطمأنينة ويبعدون عنهم ضربات المقاومة الفلسطينية ، وأشار هذا الضابط إلى زيف ما تصوره الإسرائيليون من أنهم سوف يخيفون الفلسطينيين من خلال كونهم عسكريين ، بينما الفلسطينيون مدنيون عزل ، وأنهم بالتالى سيخشون الوصول إلى الإسرائيليين من اللحظة التى يوضع فيها حاجز ، ويتوجهون إلى أماكن مغايرة حتى يمكن لهم أن يتحركوا فيها بحرية!

ويصل الإقرار بالحقيقة المرة فى فم الإسرائيليين إلى حد قول هذا الضابط "شغفنا بسحر الحواجز ولم ندرك أن شيئا دراماتيكيا قد تغير على الأرض الفلسطينيون ٠٠٠لم يعودوا يخافون بدرجة مدهشة ، وهم مصممون شجعان مستعدون للعمل والتضحية ، والجيش (الإسرائيلى) لم يعد بالنسبة إليهم مصدر تهديد كبير".

ويروى أورى دان فى مقال له بصحيفة معاريف أنه حين كان يعمل فى مكتب وزير الدفاع أرئيل شارون فى فترة حرب لبنان عام ١٩٨٢ عاد شارون وقال أكثر من مرة وبألم " اليهود كما يبدو مستعدون للنهوض والدفاع عن أنفسهم فقط حين تكون السكين تقطر دمّا ، وحين تقطع أعناقهم"!!

وحفلت بعض الصحف الإسرائيلية بعناوين مثيرة مثل حكومة فى الحضيض وشارون تحت الخط الأحمر- شارون فى مأزق لا مخرج منه -

---

* جريدة آفاق عربية، العددان (٥٥٤، ٥٥٥) ، ٢٥ إبريل، ٢مايو ٢٠٠٢

وعود من دون رصيد – ما زال قائد كتيبة عسكرية- فشل مزدوج! وهي عناوين كما ترى وكأنها كُتبت فى صدر صحف عربية فى بلدان عربية!

وقامت صحيفة يديعوت أحرونوت باستطلاع رأى أكدت نتائجه أن الحد التنازلى لمستقبل شارون السياسى قد بدأ وشهدت شعبيته تراجعًا ملحوظًا فى وقت قياسى لا يزيد على شهر ، فبينما كانت شعبيته قد وصلت إلى ٦٨% فى مطلع شهر فبراير، إذا بها تهبط إلى ٤٣% فى مارس ، وكتب مطلق الصحيفة سيفر بلونسكر أن من الواضح أن الإسرائيليين قد باتوا يعيشون حالة يأس ، وأن إسرائيل فى مارس ٢٠٠٢ تعيش بالفعل فى ضائقة ترغب فى مساءلة حكومتها ورئيسها.

وأشار ٧٦% فى الاستطلاع ذاته إلى أنهم غير مرتاحين لأداء الحكومة، و٩٢% وجهوا إليها الاتهام بالفشل الكبير فى إدارة الاقتصاد ، وأكد ٥٣% أنهم قد أصبحوا لا يرون الاعتماد على شارون ، وأيد ٤١% إجراء انتخابات برلمانية مبكرة، بينما طالب ٢٦% بفك ما يسمونه بحكومة الوحدة الوطنية.

وأخطر ما كُتب حقا هو ما كتبه يوئيل ماركوس فى صحيفة هآرتس حيث أكد أن شارون ، كما تؤكد الأحداث اليومية ، ما زال يواصل العمل الوحيد الذى أجاده طوال حياته ، ألا وهو ممارسة القوة وسياسة البطش ، ومن ثم ، فمن المرجح أن ما أوكل إليه بقيادة حكومة ، أمر يفوق قدراته وعوائده وخبراته: " إنه لا يزال يتصرف بعقلية قائد كتيبة عسكرية ، يرى كل شئ عبر فوهة البندقية ، ويحتقر أى حل عبر المفاوضات.

وذكر المحرر تفسيرا لعدم سابق تعيينه رئيسا لأركان الجيش ، حيث تردد رئيس الوزراء الأسبق مناحم بيجن فى تعيينه وزيرا للدفاع لأشهر، بقوله: " إنه (أى شارون) لا يعرف كيف يسيطر على نفسه " !! ويطلق المحرر على ذلك بقوله: " إن حكومة شارون فقدت مبرر وجودها ، فشلت

فى كل مجال وسلبت الشعب أهم شئ الأمل "!! ومع ذلك فما زال شارون على عناده ، مما يجعله يرفض بصفة مستمرة مقترحات الثعلب الإسرائيلى شمعون بيريز لإجراء محادثات سياسية مع الفلسطينيين ٠

على الرغم من أن مثل هذه المقترحات لا نعول عليها كثيرا إزاء ما هو مألوف ومعروف عن المراوغات الإسرائيلية، وكثرة نقضهم لما يتفقون عليه ، وكان تعليق شارون على دعوات بيريز: " إما نحن وإما هم ٠ إننا نقف وظهرنا إلى الحائط وهذه هى الحرب" ، فهو نهج قائم على حتمية نفى الآخر الفلسطينى ، هكذا يقول بصراحة وعلنا ولا يجد من الرأى العام العالمى من يوجه إليه النقد ، بل إن الفلسطينيين، خاصة على لسان السلطة الفلسطينية يرفعون شعارا يقوم على نهج آخر مغاير مؤداه:

" نحن وأنتم معا"، ولكن الأمريكيين ما زالوا يصرون على أن الطرف الفلسطينى هو المخطئ !!

(٢)

ويبدو أن " البجاحة الشارونية " ، فضلاً عن المأزق الذى أصبحت السياسة الإسرائيلية تواجهه الآن دفعا جريدة نيويورك تايمز – المتعاطفة دوما مع إسرائيل – إلى أن تسجل أنه يتضح للإسرائيليين ولواشنطن أن السياسة العسكرية الصرفة التى ينتهجها شارون لم تنجح ، ففى ظل غياب مقترحات سلام موثوقة، لم تجبر القوة الفلسطينية على الخضوع ، بل على العكس ، تشترك ميليشيات عرفات (هكذا) العلمانية علانية فى القتال ضد إسرائيل ، وقد أصبحت المهمات الانتحارية (!!) أكثر تكرارًا وأصبحت الهجمات على الجنود الإسرائيليين أكثر كفاءة وفاعلية ٠ وأشارت الصحيفة إلى أن شارون قد وعد بالرد بقوة أشد ودبلوماسية أقل ، حيث قال : بعد أن يتم ضرب الفلسطينيين بعنف شديد سوف نستطيع إجراء المحادثات.

وكتب بن كسفيت فى معاريف أن أرئيل شارون " مرهق ويشعر بالتعاسة ، إنه يحاول إخفاء تعبه من خلف ستار الغطرسة والكبرياء المصطنعين والتندر العفوى البدائى وإظهار الرزانة ، إلا أنه لا ينجح فى ذلك تمامًا. ونقل نفس الكاتب عن مناحم بيجن قوله ذات مرة منذ سنوات إن شارون قادر على تطويق ديوان رئيس الوزراء بالدبابات ، ويعلق بن كسفيت " اليوم يظهر شارون ، ويا لمصيبته ، إنه غير قادر حتى على تطويق ديوان عرفات"، وهو بطبيعة الحال لا يقصد مجرد التطويق ، فهو حادث بالفعل ، وإنما تحقيق التطويق للأهداف المقصود بها ، إذ من الواضح أنها لم تتحقق بل وزادت من تعاطف الرأى العام الفلسطينى مع عرفات.

إن شارون بهذا يثبت أنه بالفعل لا يقرأ التاريخ، وإلا فكيف يقبل طرف، مهما بلغ من ضعف ، أن ينتظر حتى يسقط على الأرض لا يقدر على شئ ، وقدمُ الطرف الآخر فوق رأسه، ثم يفاوض؟ أليس التفاوض حوارا بين طرفين (أو أكثر) بينهم مصالح مشتركة ، وتقارب فى القوة ؟ فماذا يكون موقف هذا الذى لا يملك ولا ورقة ؟!

إن الأمر يتطلب ضرورة مواصلة المقاومة المسلحة والمساعى الدبلوماسية ، والحرب الإعلامية ، ذلك أن شارون عندما يسقط بالعزل والحصار الدبلوماسى والإعلامى العربى خارجيًا ، وبالإرهاق الزمنى والارتباك السياسى داخليا ، فإنه لن يسقط وحده ، إنما يسقط معه " خيار شمشون " فى تجلياته ورموزه وانتماءاته الدينية والسياسية والعسكرية مما يفتح الباب أمام خيار واسع بديل سيكون بالتأكيد أقرب إلى روح السلام الحقيقى .

لكن العرب يظهرون هذه المرة ، مثلما أظهروا عشرات المرات من قبل ، أنهم بالفعل خبراء الفرص الضائعة ، فما عرضه شارون مما أسموه تراجعات مؤخرا إنما كان بفضل صلابة المقاومة وتصاعدها وتوجيهها

ضربات موجعة إلى إسرائيل عامة وجيشها خاصة ، مما جعل الولايات المتحدة تسارع إلى محاولة إنقاذ شارون بإرسال مبعوثها مرة أخرى ، وتتطلى هذه اللعبة على البعض مع الأسف الشديد فيعبرون عن سعادتهم بظهور أمارات تغير فى موقف الولايات المتحدة، وأنها أمنت أخيرًا بضرورة أن تبذل جهودها على طريق السلام!

هى وقفت فى الشهور الأخيرة موقف المتفرج لأن القتل والتدمير للفلسطينيين من الحجارة إلى السلاح، وبدأوا يردون الصاع صاعين ، ظهر الإيمان الأمريكى بقضية السلام ، هل بلغت بنا الغفلة هذه الدرجة ؟ ثم ألا نربط بين مهمة " تشينى " الداعية إلى محاربة العراق ، وبين مهمة " زينى " المتظاهرة بالدعوة إلى السلام على الأرض الفلسطينية ؟ إنهم يريدون تسكين الجبهة الفلسطينية مؤقتا حتى يمكن أن يحصلوا على التأييد أو السكوت العربى على ضرب العراق ، وتخفيض سقف قرارات القمة العربية ، وبعد ذلك يعاود الإسرائيليون ممارساتهم النازية المعروفة ، بعد أن نكون قد ازددنا شعورًا باليأس والإحباط وازددنا فرقة وبعثرة ، عندما نكرر التجربة المريرة ، حيث ضيعنا من قبل كثيرًا من ثمرات انتصار أكتوبر ٧٣ !

نفثات مصدور ! *

نفث المرجل : رمى بمثل السهام من الغلى، ويقال: هذه نفثة مصدور، ما ينفث به عن صدره . تلك صيغة أكتب فى إطارها لأول مرة ، وإن كانت شائعة عند البعض من الكتاب ..

خلل فى منطق التفكير :

كنت أحضر مؤتمرًا من المؤتمرات التربوية العربية ووقف أحد الباحثين من أبناء مصر يتحدث فى قضية من القضايا التربوية المهمة ، وكان من عناصرها أن يتحدث عن مدى قدرة المدرسة المصرية على القيام بما هو مفروض فى الشأن الذى كان موضوع دراسته، وذكر أن هذه النقطة تتضمن شقين ، أحدهما أن يكشف عن "إنجازات " مهمة على الطريق ، وخطوات تمت، وصور تقدم ، وتحدث صاحبنا فى هذه بحماس واضح ، فلما جاء إلى الشق الثانى ، قدم له بأنه لابد أن يذكر الوجه الآخر من " الصعاب " و " المشكلات " التى تواجه المدرسة المصرية على هذا الطريق.

حزنت حقًا لمنطق التفكير الذى فكر به صاحبنا ، وكدت أكشف فى كلمة أطلبها عن هذا الاعوجاج المنطقى ، لكننى تراجعت ، إذ لم أشأ أن أفعل ذلك والمؤتمر خارج مصر، والحضور من بلدان عربية مختلفة ، وإن كان الحق أحق أن يتبع ! وعوضا عن ذلك انتحيت بصاحبنا جانبا بعد انتهاء الجلسة لأبين له وجه الخلل الفكرى الذى أظهره : فالذى يتحدث عن " إنجازات " ويريد أن يتحدث بعد ذلك عن الوجه الآخر، فإن مقابل الإنجازات هو " السلبيات " وصور التقصير، وذلك لأن " الإنجاز " فعل يصدر من داخل ، والتقصير بدوره فعل يصدر من داخل ، أما الحديث عن "العقبات" و"المشكلات" فهذا فعل يصدر من خارج لا يد للمدرسة فيه ، ومن ثم فهذا

---

* جريدة آفاق عربية، السنة العاشرة ، العدد (٦٦٤) ، ١ يوليو ٢٠٠٤

هروب صريح من المواجهة ، تماما كمن يقول عن فئة من الناس : هـؤلاء إناث ، فتتوقع أن يقول عن الفئة المقابلة: وهؤلاء ذكور، أمـا أن يفاجئـك بقوله: وهؤلاء أطفال، فعندئذ تجد نفسك بالفعل أمام " خلل" فى منطق التفكير !

كان لابد أن أتساءل بين وبين نفسى: ترى ، لم فعل صاحبنا ما فعل ؟ عندئذ تذكرت أنه منتدب لبعض الوقت ويعمل فى هيئة تابعة لوزارة التربية، ومادام " يقبض" أول كل شهر راتبا معينا منها، فهل يمكن أن يوجـه إليهـا سهام نقد فى مؤتمر؟!

للمرة الثانية، نترك السودان يضيع !!!

فى المرة الأولى كانت بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، حيث كان الاتجاه الشائع لا فى مصر وحدها وإنما لدى كثير من إخواننا فى السودان ، بـأن " وحدة وادى النيل" ضرورة وجود وحياة ، وكان الرأى الذى قام عليه الاتفاق قبل عام ١٩٥٦ هو: الاختيار بين وحـدة مـصر والـسودان أو اسـتقلال السودان. وبدون الدخول فى تفاصيل كثيرة تشير كلها إلى "تقصير" واضـح من مصر، فضلا عن غفلة ، مع الوضع فى الاعتبار " اليد البريطانية " التى كان لها دور واضح ، فقد انتهى الاستفتاء إلى اختيار الاستقلال !

لم تتعظ مصر مما حدث ، ولم تتعامل مع الـسودان بحـرص علـى الإستراتيجية القومية العليا ومـستقبل الأجيـال القادمـة مـن المـصريين والسودانيين ، ولكنها استمرت فى النظر القاصر، فالحـاكم للعلاقـات بـين البلدين ظل هو علاقة القيادة السياسية العليا فى مصر ومشاعرها تجاه حاكم السودان ، إن كان خيرا فخيرا وإن كان شرا فشرا. فالسياسة، مشهورة أنهـا بلا عواطف ، وأحيانا: بلا أخلاق .. المصلحة الخاصة بالوطن هى الحـاكم وهى المعيار.

وبدون دخول أيضا فى تفاصيل كثيرة ، تكشف عن أوجه تقصير سخيفة فى السياسة المصرية تجاه السودان ، والتسليم بأخطاء مقابلة من حكومة السودان ، فقد تركت حكومة السودان وحدها تواجه حركة التمرد فى الجنوب ، والتى أصبحت أجهزتنا الإعلامية تسميها – منذ سنوات – حركة تحرير السودان (!!)، حيث من المعروف أنها كانت تعمل بمساعدة ضخمة من كل من العدوين اللدودين للأمة العربية : أمريكا وإسرائيل، وكانت النتيجة أن وصل الأمر إلى أن يُخير، لا السودان كله ، ولكن الجنوب وحده ، بين الوحدة مع الشمال أو الانفصال .. ونحن هناك بعيدون عن التأثير ، إلا من بعض شكليات لا تقدم ولا تؤخر ، ولو كان هناك تفكير استراتيجى حقيقى ، لتحولت – منذ سنوات ، ومهما كانت الاختلافات مع حكومة السودان – قضية التمرد إلى هم قومى لا سودانيا فقط ، ولكنه مصرى كذلك .. لكنها النزعات والعواطف الشخصية ، التى تحرك سياستنا العليا ساهمت فى الوصول إلى هذا الموقف المحزن الذى – غالبا – سوف ينتهى إلى انفصال الجنوب...

وها هو السيناريو نفسه بدأ فى الظهور فى دارفور . ومازال قصور النظر السياسى المصرى هو السائد! وندعو الله، ألا تجئ اللحظة التى نقول فيها " أكلنا يوم أكل الثور الأبيض " !

لا مساءلة !

منذ أسابيع ، امتلأت الساحة فى مصر بالحديث عما سمى " بصفر المونديال " ، وراح كثيرون يوجهون أصابع اتهام إلى هذا وذاك ، وكان رأيى الشخصى أن المسألة لا يمكن أن تكون فى يد وزير الشباب أو هذا وذلك ، ولكنها أزمة " نظام " كامل ، فالصفر لم يكن لجهاز الرياضة المصرى ، لأن هذا الجهاز إن هو إلا جزء لا يتجزأ من نظام عام لو خضع لتقييم موضوعى عادل لحصل على " صفر "!

ومع ذلك فإن هذه القضية تشير لنا إلى مرض سياسى متوطن ألا وهو غياب "المساءلة": هل نتذكر ما حدث عام ١٩٥٦؟ صوروه لنا انتصارًا، ولم يكن كذلك ، فهل خضعت العملية كلها لتقييم وتحقيق وأعلن ذلك ، وحصل كل مذنب على ما يستحق ؟ أبد ! وهل نتذكر خمس سنوات ظل فيها عشرات الألوف من الضباط والجنود المصريين يحاربون على أرض اليمن ، فهل خضعت العملية إلى تقييم ، بحيث يكشف عن جوانب الصواب أو الخطأ فيها ، وبناء على ذلك تتم محاسبة ومساءلة ، وتوقيع الجزاءات اللازمة ؟ أبدًا. والشئ نفسه عقب هزيمة ١٩٦٧ . لا تقل لى أن محاكمة تمت لضباط طيران ، فلم تكن المسألة فقط ضباط طيران ، بل هى الدرجة الأولى : إدارة سياسية للقضية وإدارة عسكرية ، أما أن يكون هناك بعض من يكونون مجرد كبش فداء لامتصاص الغضب ، فهذا تغرير بالشعب وبالتاريخ، ماضيا ومستقبلاً.

وما حدث في أكتوبر ١٩٧٣م، كيف ينتهى الانتصار المدوى إلى مثل هذه النتائج السياسية الهزيلة، بل ونجد أنفسنا بعد سنوات " رهناء " لمن انتصرنا عليهم ومن ساندوهم ؟! إنها عقدة العقد ، إذا صح القول ، والقضية المركزية فى حياتنا القومية : عدم المساءلة والمحاسبة للقيادات الكبرى ، وكأننا لم نسمع عن تحذير رسولنا العظيم صلى الله عليه وسلم من أن الذى أهلك من قبلنا أنهم يتركون "الشريف" – الكبير – إذا سرق، أما الفقير ، فيقيمون عليه الحد، ثم قسمه بأن ابنته فاطمة لو سرقت لقطع يدها!.

هذا عذاب فرأت سائغ شرابه ،
وهذا ملح أجاج ! *

فى الجزء الخامس من المسلسل التليفزيونى الشهير " ليالى الحلمية " ، عندما كان يذاع منذ ما يقرب من عشر سنوات ، كان ما لفت نظرى حقـا ، وهو تلك الإشارات الشجاعة الذكية للكاتب أسامة أنور عكاشة إلى أوضـاع حقيقية، وليست مجرد صورة تمثيلية من خياله ، فعندما أصبح " على البدرى " من كبار رجال الأعمال ، كان من الخطوات المهمة التى كـان عليـه أن يتخذها حتى يمكن له استمرار الصعود هو أن يكون وضعه على درجة عالية من الأمان ، وأن هذا الأمان يمكن أن يتأتى فقط إذا انضم إلى حزب الحكومة ، ثم لا يقف به الأمر عند هذا الحد فقط بل يفتح الباب لبعض "أبناء" كبـار المسئولين كى يشاركوه فى "البيزنيس" ولو صوريا ، ومع حقهم فى المشاركة فى الأرباح ! فإذا لم يفعل ذلك فإن شركاته ، مهما كانت مؤسسة على قواعد اقتصادية راسخة ، ومهما كانت الأموال التى يستطيع ضخها فى عروقهـا ، فإنها تصبح معرضة لأن تصبح " فص ملح وذاب" !! وهذا ليس مـستحيلاً، فى ظل التقدم التكنولوجى المعاصر، وفى ظل هـذه الـسلطة المتـضخمة المستحكمة.

وهذا ما سبق لنا أن أشرنا إليه فيما هو معروف من تزاوج بين رأس المال ومتنفذين فى السلطة. والسؤال هو: لماذا أصبح مجتمعنـا " مفرخـة " لمثل هذه الوقائع والأحداث ؟ " احتكار السلطة " مـصدر الـداء .. سـعيها الحثيث أن تتصف بصفتين مفروض أن الله عز وجل وحده هـو المتـصف بهما: الوحدانية ، القدم .. وحدانية ، تجعل المجتمع كله ، بنظمـه وهيئاتـه

---

* جريدة آفاق عربية، العدد (٦٨٢) ، ٤ نوفمبر ٢٠٠٤

ومنظماته وأحزابه ومجالسه وتشريعاته يدور فلكها .. يأتمر بأمرها، ليس له إلا الطاعة ولا يملك من الأمر شيئا ..

وقد يتبدى الأمر فى استمرارية تجعل من السلطة وكأنها بعيدة عن حسابات الزمن ، وضرورات التغير والتجديد ! فى ظل نظام سياسى ينتهج هذا النهج ، يصبح هو مركز الكون ، وما عداه فلابد دائر فى فلكه. هنا أصل الاستقطاب .. فديمومة الوضع "تفرخ" قوى من المتنفذين الذين يُرهَبون بما يملكون ، وما يملكونه ليس مجرد أموال وثروات ذات صور شتى وإنما بقوة بطش ، وباحتكار ، وسد المنافذ لاحتمالات حراك اجتماعى ، " فاللى فوق " يظلون "فوق" و " اللى تحت" يظلون " تحت " . وويل لمن تسول له نفسه أن يفكر، فضلا عن أن يعمل على أن تنفتح المسالك وتتحرك المياه فى نهر المجتمع، لأن ذلك بدوره يضر بمصالح ويودى بمنتفعين. من يتصفح الأوراق يجد فى مصر عديدا من الأحزاب ، والتى جاوز عمر بعضها ما يقرب من ربع قرن ، فهل لها من أثر على الحياة المصرية ؟ الإجابة معروفة ، وهى بالنفى طبعا.

وقد يتصور محلل سياسى لا دراية له بالوضع المصرى ، أن تفسير هذا لابد أن يكون كامنا فى إعراض الجماهير عن هذه الأحزاب ، لكن حقيقة الأمر غير ذلك.. هل يستطيع حزب أن يتحدث من خلال أجهزة الإذاعة وقنوات التليفزيون التى تملكها الدولة ؟ كلا. هل يستطيع حزب أن ينزل إلى الشارع ليعقد المؤتمرات ويعلن السياسات المناهضة لسياسة الحكومة القائمة ، ويدعو إلى التغيير ؟ كلا. هل يمكن أن يتم اختيار رئيس جامعة أو عميد من حزب آخر غير حزب الحكومة ؟ كلا.

عشرات الأمثلة ، يمكن أن نسوقها تؤكد فى مجملها أن الأحزاب القائمة هى من باب قطع الديكور التى نجدها فى الفيلات والقصور. حيث يمكن أن تجد شكلا فنيا مجسما لأسد هصور، لكن لا حياة له.. تمثالاً لجميلة

الجميلات لكنه "حجر" لا دماء تجرى فى عرقها ، ولا قلب يخفق بالحياة. ألا تتعالى الأصوات فى مختلف أنحاء العالم وخاصة من القوة المهيمنة، الولايات المتحدة ، بضرورة تطبيق الديمقراطية ؟ ففى أى شكل من الأشكال تتبدى هذه الديمقراطية ؟ لدينا انتخابات . لدينا أحزاب .. لدينا صحف معارضة . لدينا برلمان .. لدينا جمعيات أهلية .. لدينا ولدينا ، لكن ، هل تم فحص لمضمون هذا وذاك ؟ كيف تجرى الانتخابات ؟ ما الفرص المتاحة للأحزاب للالتحام بالناس؟ ما كمية النسخ الموزعة لهذه الصحيفة وتلك ؟ كم إعلانا تنشره يعينها على الحياة والاستمرار والتطوير المستمر للخدمة الصحفية ؟ كم تكون قوة المعارضة فى البرلمان ؟ ما المساحة المتاحة للأحزاب فى أجهزة الإعلام وفى مناصب الدولة ؟

أنت إذن أمام الصورة نفسها . صورة الاستقطاب التى تعبر عنها تلك الآية القرآنية العظيمة ، (هذا عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج) إنهم يطلقون ، فى كثير من الأحيان أحاديث عما يسمى " المشاركة الاجتماعية"، لكن، أليس منطقيا أن يبدأ أولو الأمر بأنفسهم فيضربون لنا المثل والقدوة فى " المشاركة "، ويبرهنون لنا على أننا نشارك فى ملكيتهم لمصر ؟

أعرف أستاذًا كبيرًا، متميزًا حقا ، لكن مصيبته ، واللعنة التى تطارده ، إنه كان عضوًا فى حزب العمل . وضرب بعلمه وثقافته وأستاذيته عرض الحائط، فإذا به يُستبعد من القسم المتخصص فى علومه بإحدى الكليات الكبرى ، واتصلنا وتشاورنا فترة طويلة ، فإذا بالكل يتهرب ، ويتذرع بأعذار شتى ، إلى أن تمكن الرجل بعد فترة غير قصيرة من أن يجد شجعانا يقبلونه باعتباره أستاذا عظيما، لكنه فى كثير من الأحوال يتم استبعاده ، لماذا ؟ لأنه كان عضوًا فى حزب تجاوز الخطوط الحمراء فى المعارضة وتصور أنه فى دولة ديمقراطية يمكن أن يلعب فيها بدوره المنوط به ، أى أنه صدق

حكاية الديمقراطية الحكومية المصرية ، فكان ما كان من تجميد وإيقـاف .. أما الأحكام القضائية .. أما منطق الإجراءات .. أمـا معقوليـة المواقـف والمقارنة مع الغير ، فهى جميعا " كحولية " تتبخر بسرعة حال الانتهاء من كتابتها أو الحديث عنها ، مهما كانت الكتابات ومهما كان الحديث !

قرأ أحد الأصدقاء مسودة هذا الذى أكتب ، فإذا به ، يحـذرنى علـى أساس أن مضمون كلامى هذا وكأنى أدعو إلى " انقلاب " ! قلت له متسائلا: هل عندما يقف "كيرى" المترشح لرئاسة الولايات المتحدة ، وفئات كثيرة من أعضاء الحزب الديمقراطيى ليصفوا سلوك وممارسات " بـوش" والحـزب الجمهورى بأنها جرت خرابا وأضرارا فادحة ، يكون ذلك دعوة لانقـلاب ؟ إنها القاعدة الديمقراطية التى لا يختلف عليها اثنان ، وهى ما أصبح معروفا بتداول السلطة، وكسر كافة أشـكال احتكـار الـسلطة ، حتـى لا يتحـول المحكومين إلى حال مساجين حُكم عليهم بالسجن المؤبد. ما الذى فى سـائر خلق الله من غير المتنفذين فى السلطة من سوء " التكوين " و " الأصـول " حتى يستمروا فى حالة الإقصاء والاستبعاد ؟ أليسوا من تراب هذا البلد نشأوا ؟ أليسوا خلقا من خلق الله ، لهم عقول يفهمون بها ؟ ومن أى عجينة خلـق هؤلاء المحتكرون للسلطة ؟ أليسوا من الطين نفسه الذى خلق به المولى عز وجل سائر المصريين ؟!

تجوع الحرة ... *

من المواقف التى تكررت عدة مرات، بصور مختلفة ، وشخوص متغايرة ، فى عدد من الأفلام المصرية القديمة ، وخاصة التى قدمها (حسن الإمام) أن تكون الممثلة الرئيسية على حال من الفقر المدقع ، وتمرض أمها أو أبوها مرضا شديدا ، ويحتاج إلى العلاج ، لكنه مُكْلِف لا تتحمله طاقة الأسرة ، وهنا يظهر " شيطان " متلبسا شكل إنسان يعمل فى " كباريه " فيعرض أن يتكفل هو بالعلاج ، فى مقابل أن تعمل صاحبتنا فى الكباريه ، بما يجره ذلك من سلوكيات ومواقف معروفة ، فتأبى الممثلة مرة ومرتين ، ويشتد المرض ، وتتعالى صرخات الأب أو الأم من ألم المرض ، فتجد صاحبتنا نفسها مضطرة إلى الرضوخ للعرض الشيطانى ، وتسقط فى الرذيلة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وهكذا يبرر مسئولو مثل هذه الأفلام السقوط فى الرذيلة ، لكنهم كانوا يدافعون عما يفعلونه بأنهم بهذا يقومون رسالة مؤداها أنه لابد أن تتضافر قوى المجتمع على حماية مثل هؤلاء الفقراء حتى لا يحدث لهم ما يحدث ، ليس هذا موضوعنا الأساسى حتى نناقش مثل هذه الوجهة من النظر ، ولكننا نسوقها مثالا لنفر من الناس يبيعون أنفسهم بحجة مواجهة خطر عظيم.

لكن فى المقابل هناك نفر آخر ، وهبهم الله من القدرة على المجابهة والتحمل ما يجعلهم يرفعون الشعار الشهير: " تجوع الحرة ولا تبيع ثديها" أو " تموت الحرة " من الجوع" "ولا تبيع ثديها" ! ذلك لأن مثل هذه الفئة توازن بين متعة يمكن أن تحصل عليها فى الدنيا نظير ثمن باهظ عظيم فى الانحراف عن طريق الله ، وبين قسوة حياة يمكن أن تؤدى إلى الموت ، مع التزام باستقامة الطريق فى الدنيا ! وذلك أن الخيار الأول ينتج متعة زائفة

---

* جريدة آفاق عربية ، العدد (٦٩٣) ، ٢٧ يناير ٢٠٠٥

دنيوية ، لكن جزاءه جهنم وبئس المصير ، أما الخيار الثانى ، فيلاقى عذابا فى الدنيا ، لكنه موعود بجنة عرضها السموات والأرض لدى الخالق العليم !

لا أقف هنا واعظا لأنى لست من الوعاظ ، ولكنى أسوق هذا الحديث لأدلف منه إلى هذه القضية المحزنة التى لم تعد " تخمينًا " ولا " شائعة " ولا توقعا يقوم على التشاؤم ، ولكنها أصبحت واقعا نعيشه ، يدفع الإنسان أن ينطلق مرددا مع السيدة مريم عليها السلام : (يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) (مريم: ٢٣) ، والقياس مع الفارق بطبيعة الحال !

ففى غمرة حملة الدفاع عن السقوط فى حب التاريخ يردد أنصار حزب التراجع والهزيمة الأمريكى الإسرائيلى فى مصر أن هذا الذى اقترفوه بالمشاركة الإسرائيلية فى الصناعة، حتى تستطيع الدخول إلى جنة السوق الأمريكى ، عن طريق اتفاقية " الكويزا " سوف يكون عاملا أساسيا من عوامل الرواج الاقتصادى ، ويفتح بيوتا ، ويشغل أناسا عاطلين عن العمل ! هنا نجد تفكيرا معوجا ينجرف عن استقامة الطريق ، عندما نتصور أن المسألة " الاقتصادية " يمكن أن تنعزل عن المسألة " السياسية " .

ولمفكرنا الاقتصادى الوطنى الكبير د.جلال أمين الكثير فى هذا الشأن ، بحيث لا ينبغى أن يقتصر التفكير على حسابات اقتصادية بحتة تتبدى فى صورة ارتفاع فى الدخل وزيادة فى التصدير، لأن هناك " ثمنا " آخر غير منظور لابد من دفعه، وهذا الثمن من الصعب قياسه، لكنه يتبدى فى " بيع الإرادة الوطنية " أو رهنها أو سلسلتها بكم من القيود والأغلال لا تستطيع منها فكاكا ، فهل نكرر فى الواقع والحقيقة هذا الموقف الذى نراه فى أفلامنا القديمة ، حيث نكون مثل تلك الأنثى التى تبيع شرفها على أساس أن تعالج أبيها أو أمها ؟

أول بشائر " الثمن " المستور الذى بدأنا ندفعه هو أن يقف مسئولو السياسة المصرية ، على أعلى مستوى للتصريح بأن أعتى من عرفنا من

وحشية ودموية ونازية المسمى شارون هو رجل سلام " لو أراد "، ولا يقع فى وهمك أيها القارئ أن هذا شرط يقيد الحكم ؛ ذلك لأن قادة إسرائيل منذ أن قامت وهم يرددون أنهم يريدون السلام ! تماما مثلما تقوم الولايات المتحدة بغزو واحتلال للعراق الجريح ، وتقتل وتدمر، وتعلن أن ذلك من أجل نشر الديمقراطية!

أدعو الذين يصدرون هذه التصريحات إلى أن يستقرئوا سجل هذا السفاح النازى ، ويستمعوا إلى صوت الضمير الإنسانى ، وهو يحكم على من هذا تاريخه، وذاك سجله. وبدأ دفع الثمن غير المنظور بالتحدث علانية ، بأن مصر فى اتصال مستمر لتعديل فى اتفاقية كامب ديفيد يأذن لها أن توفر سبعمائة جندى مصرى على حدودها أى مصر !! (هل رأيت كم كانت هذه الاتفاقية مهينة ؟) وهؤلاء الجنود المصريون لا تكون مهمتهم حماية الحدود المصرية من خطر خارجى محتمل كما هو المفروض فى كل الدول التى تحافظ على كرامتها ، وتحرص على سيادتها ، لأن تسليحهم لا يمكنهم من القيام بذلك ، ولكن – هكذا تصريح العبارة – لحماية حدودنا من أن يتسلل منها سلاح يتجه إلى المقاومة الفلسطينية ، أو يهرب من خلالها مقاومون فلسطينيون ، نتيجة الهجوم والحملات الإسرائيلية !

كل ذلك تبرير لتحقيق أمل خادع يسمونه " الدولة الفلسطينية " ، التى قالوا من قبل إنهم يحددون لها عام ٢٠٠٣، ثم زُحزحت إلى ٢٠٠٥، ثم إلى ٢٠٠٧ أى دولة هذه ؟ افتحوا كتاب فى القانون الدولى والدستورى ، وابحثوا عن معنى قيام دولة وشروط قيامها ومقوماتها ، وطبقوه على ما يزعمون ، فسوف تجدون أنها " فتافيت" من أرض مبعثرة ، ولا حول لها ولا قوة ، ليست لها سيادة على الحدود ، ولا على سمائها ، ولا جيش لها إلى جنود وظيفتهم الأساسية لا مواجهة عدو خارجى ، وإنما عدو " داخلى " يتمثل فى مقاومة محتملة !

وفى الحياة أمثلة أكثر من أن تعد أو تحصى لأناس تعرضوا لغواية " الوفرة الاقتصادية " حتى يمرروا مشروعا لا ينبغى أن يمرر أو إقامة مبنى مع الترخيص فى شروط بنائه أو إلى هذا وذاك ، فاستجابوا ونعموا فى الحياة الدنيا ، لكنهم تسببوا فى ذهاب حياة كثيرين ، وربما يفلتون من معاقبة القانون الأرضى ، لكنهم أبدا لا يفلتون من قانون السماء ، ولا من قانون التاريخ ، فها هنا لا واسطة ،وإنما الجزاء الرادع !

وكان منهم من قاوم وفضل الاستمرار مرفوع الرأس عزيز الكرامة ، حتى ولو عضه الجوع واشتد به البرد القارس. هل تذكر أيها القارئ هذا الموقف العظيم الذى تعرض له رسول الله – صلى الله عليه وسلم-وهو يستمع إلى حديث عمه أبى طالب فى دعوته له بترك الدعوة فى مقابل أن يرفل فى نعيم يوفره له أغنياء قريش؟ لقد أطلق هذه العبارة الشهيرة " والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته "!

صدقت يا رسول الله، فمن لى بمن يقتدى بك؟!

نعم .. سيذكره التاريخ ! *

من الأخبار التى تدخل فى باب الفكاهة حقا ، وما تناقلته وكالات الأنباء فى ديسمبر الماضى من أن الرئيس الأمريكى بوش يأمل أن يلخص التاريخ ولايتيه الرئاسيتين تحت عنوان " تأثير الحرية فى العالم " ، وفق ما صرح به فى مقابلة أجرتها معه مجلة " تايم". وقال بوش فى المقابلة : " أعتقد أنه يتحتم فى المرحلة الراهنة التفكير فى موضوعين ، أحدهما: تأثير الحرية فى العالم ، وربما على صعيد العمل الداخلى كيفية التوصل إلى حكومة تركز على النتائج" .. وأبدى بوش ازدراء كبيرًا للانتقادات التى وُجهت إليه !

ونحن سنساير الرئيس الأمريكى، من حيث ما نسجله له للتاريخ ، وها نحن نسوق بعض الأمثلة ، معتمدين فيها على ما نشرته صحيفة شبه رسمية هى الأهرام على مدى عدد من الأيام فى شهر ديسمبر، حتى لا نُتهم بأننا نعتمد على صحف صفراء ، أو صحف الإرهابيين ، فماذا نقلت عن وكالات الأنباء ؟

فى ١٤ ديسمبر أجرت وكالة " أسوشيتدبرس" للأنباء استطلاعًا للرأى فى عدد من الدول (بريطانيا، وكندا، وإيطاليا، واسبانيا، وفرنسا، وأستراليا، وألمانيا) بالتعاون مع شركة "أبسوس" لاستطلاعات الرأى أشار إلى أن ٧ من كل ١٠ فى فرنسا وألمانيا وأسبانيا عبروا عن وجهة نظر سلبية فى الرئيس بوش ، وقال أكثر من ٥٠% من الفرنسيين والألمان: إن آراءهم فى الأمريكيين سلبية أيضا، وهو ما قاله نصف الأسبان ، وقال أحد خبراء توجهات الرأى العام فى أوروبا: إن استطلاع الرأى يوضح خيبة الأمل أكثر مما يعبر عنه توجه مضاد لأمريكا. وأضاف الخبراء : إن إعادة انتخاب

---

* جريدة آفاق عربية ، العدد (٦٩٤) ، ٣ فبراير ٢٠٠٥

بوش أدت إلى حالة عامة من الشعور بالإحباط والمفاجأة أكثر من " الغضب".

فى نفس التاريخ أشارت وكالات الأنباء إلى أن الإدارة الأمريكية صعدت ضغوطها على محمد البرادعى (٦٢ عامًا) الذى يدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية منذ عام ١٩٩٧، حتى لا يتم التجديد له ، بحجة ضرورة ألا يتم التجديد لأكثر من مرتين ؛ حيث ذكرت سوزى فرانسيس – المتحدثة باسم البيت الأبيض – أن الحكومة الأمريكية تؤيد دائمًا السياسة التى تدعو إلى عدم بقاء رؤساء منظمات الأمم المتحدة أكثر من فترتين ، وكلنا ما زال يذكر الجهود المستميتة التى بذلتها أمريكا ، عندما انتهت الفترة الأولى للدكتور بطرس غالى (وليس فترتين) حتى لا يُعاد انتخابه مرة ثانية ؛ لأنه تعدى الخط الأحمر وساعد على فضح مذبحة " قانا " بلبنان على أيدى الإسرائيليين.

لكن الوكالة تفضح الحجة الأمريكية بإبراز السبب الحقيقى لغضبها على البرادعى؛ حيث كانت صحيفة " واشنطن بوست" قد ألمحت إلى تقارير تؤكد التنصت من قبل جهات أمريكية على المكالمات الهاتفية لمدير الوكالة.. مما يمثل فضيحة للإدارة الأمريكية ، باعتبار أن ذلك يخالف الأعراف الدولية ، وكان هذا التنصت للادعاء بأن البرادعى كان يتعاطف مع الإيرانيين ، من حيث ملفها النووى ! أما السبب الحقيقى فهو أن الرجل، أثناء التحضير لغزو العراق ، أعلن أن الوكالة لم تر ما يشير إلى برنامج نووى عراقى ، ومن ثم فقد أسقط حجة قوية من ضمن الحجج التى كانت الإدارة الأمريكية تتذرع بها للقيام بالغزو ، ولما أذاعوا أن هناك صفقة بين العراق وإحدى الدول الأفريقية لشراء مواد تعين على صنع القنبلة الذرية، صرح البرادعى – بعد درس وفحص دقيق – بأن هذا لم يحدث !!

وفى ١٦ من ديسمبر الماضى نُشر أن مجلس المراقبة والاستشارات الدولية التابع للأمم المتحدة قد اتهم واشنطن بإساءة إدارة الأموال العراقية ، وذلك لارتكابها مخالفات كثيرة فى عمليات بيع البترول العراقى ، وفى تحديد شروط منح العقود خصوصًا إلى شركة تابعة لشركة " هاليبرتون " الأمريكية التى كان يرأسها ديك تشينى نائب الرئيس الأمريكى . وذكر المجلس فى تقريره الذى يغطى الفترة بين مايو ٢٠٠٣ ويونيو ٢٠٠٤ أن السلطة التى كان يرأسها الحاكم المدنى الأمريكى (بول بريمر) لم تُحكم سيطرتها على العائدات البترولية العراقية، ولجأت إلى أساليب غير تنافسية فى إرساء العقود على الشركة التابعة لهاليبرتون ، وفى إبرام صفقات مقايضة. ومن المعروف أن إجمالى قيمة الصفقات التى جرت ترسيتها على شركة هاليبرتون منذ الغزو الأمريكى للعراق فى مارس ٢٠٠٣ وصل إلى حوالى عشرة مليارات دولار فى شكل عقود لإصلاح منشآت البترول العراقية وتزويد القوات الأمريكية بالعراق بالطعام وتوفير المساكن للمسئولين وأوجه الرعاية الأخرى.

ومن أوجه القصور الأخرى التى أشار إليها تقرير مجلس المراقبة والاستشارات الدولية عدم وجود سجلات لدى سلطة التحالف المؤقتة السابقة عن الأنظمة المحاسبية التى كانت تتبعها، علاوة على ضعف التحكم فى إنفاق العديد من الوزارات التى تسلمت السيادة من سلطة التحالف فى ٣٠ يونيو ٢٠٠٤، بما فى ذلك عدم وجود سجلات دقيقة بمرتبات العاملين ، ورفض بعض الوزارات إجراء تحقيق حول سجلاتها وقدر المجلس – الذى يعمل منذ مايو ٢٠٠٣، بتفويض من مجلس الأمن – جملة الأموال التى ضاعت على العراقيين بسبب ممارسات الحاكم المدنى السابق بروك بريمر والحكومة العراقية المؤقتة بحوالى ٨١٢ مليون دولار على الأقل !

لم يكن صدام وحده إذن هو اللص !!

فإذا جئنا إلى حديث مباشر عن الحريات فقد نشرت صحيفة واشنطن بوست الأمريكية فى ٢٢ ديسمبر الماضى تفاصيل التقرير الذى أعده اتحاد الحريات المدنية " الأمريكى" فى ٢١ ديسمبر معتمدًا على وثائق حكومية رسمية، أكد أن عمليات التعذيب كانت تتم بشكل منهجى فى السجون العراقية ومعتقلى جوانتانامو ، وأكد التقرير أن هذه العمليات كانت تتم بموافقة كبار قادة الجيش وصولاً إلى الرئيس الأمريكى نفسه ! وأوضحت الصحيفة أن قادة الجيش الأمريكى منعوا تشريح جثة معتقل عراقى توفى أثناء الاحتجاز؛ نتيجة لإصابته بالعديد من الجروح الخطيرة فى الرأس والبطن ، كما ذكرت الصحيفة واقعة أخرى تعرض خلالها سجين كان محتجزًا فى تكريت إلى القتل بالرصاص دون إنذار سابق، حيث أطلق جندى أمريكى النار عليه فى الذكرى الثانية لهجمات ١١ سبتمبر على الولايات المتحدة ، وأظهرت الوثائق التى اعتمد تقرير الصحيفة عليها أن الجيش منع المحققين الجنائيين من تولى القضية ، وانتقلت الصحيفة إلى الحديث عن جوانتانامو فأوضحت أن أحد ضباط مكتب التحقيقات الفيدرالى شاهد معتقلين يجرى التحقيق معهم وقد أوثقت أيديهم وأرجلهم بحيث أصبحوا فى وضع الجنين ، وتركوا على هذا الحال من ١٨-٢٤ ساعة فى كل مرة يحقق فيها معهم ، وأن أغلبهم بالوا أو تغوطوا على أنفسهم ! وشاهد أحد مسئولى مكتب التحقيقات أفرادًا من وزارة الدفاع قاموا بلف أحد المعتقلين بالعلم الإسرائيلى خلال التحقيق معه وإطلاق الموسيقى الصاخبة وتسليط الأضواء الساطعة عليه!

..... ذلك بعض من كل ، يؤكد أن التاريخ سيذكر بالفعل علاقة الرئيس الأمريكى بالحرية والديمقراطية ، فهل تشاركنى أيها القارئ – بناء على مثل هذه القطرات من بحر ملطخ بالدماء والسرقة – التساؤل : لماذا يصر حكام العرب على إستراتيجية العلاقة بيننا وبين الولايات المتحدة ؟!

عندما نام قرير العين! *

منذ أسابيع قليلة أعلن شاؤول موفاز وزير الدفاع الإسرائيلى عن تعيين الجنرال " دان حلوتس " رئيسا لأركان جيش الاحتلال الإسرائيلى ، فيما يبدو أنه اتساق مع المرحلة الجديدة على الأرض المحتلة ، ذلك الرجل الذى أُثر عنه قوله غداة حدوث مجزرة بشعة ليلة الخامس عشر من شهر يوليو عام ٢٠٠٢ ، راح ضحيتها الشيخ صلاح شحادة ، قائد كتائب عز الدين القسام ، الجناح العسكرى لحركة حماس ، فضلا عن أربعة عشر قتيلا آخر ، بينهم تسعة أطفال : " إنى نمت قرير العين فى تلك الليلة ، وأتمنى للطيارين الذين نفذوا هذا العمل الرائع أن يناموا كذلك " !!

ونحن لا نلوم هؤلاء على اختياراتهم فى التعيين فى مواقع الدولة المهمة ، فهم – والحق يقال – يتميزون بدرجة عالية من الذكاء ، ولا يشك أحد أبدا فى أنهم يترسمون ما يعتقدون أنه فى مصلحة الدولة العبرية العليا ، ولكننا نعود بمشاعر من الحسرة والحزن على المنطق العكسى الذى نراه دائمًا ، أو أقل غالبًا فى معظم دولنا العربية ، فما من فترة تمر إلا ونلمس تصاعدًا ملحوظًا فى تبوؤ قيادات ترى فى "الوحدة العربية" و "القومية" و "المقاومة" و "الحل الإسلامى" و "التحرير" و"الاستعمار" .. الخ. أساطير سياسية ثبت فشلها فى عصور مضت ، وأنها جرت علينا الكثير من الويلات ، وأنه لابد من تغليب " الواقعية "، وإيعاد النعرة الوطنية ، فالعالم كله الآن متشابك متداخل ، وبريطانيا بها قوات أمريكية ولا تشكو من احتلال ، وكذلك ألمانيا، واليابان ، وهى دول كبرى ، فلماذا هذه الحساسية وذاك التشنج الذى يبدو من بعض منا ممن لا يزالون يعتقدون صحة مثل هذه الأساطير التى أشرنا إليها ؟!

---

* جريدة آفاق عربية، السنة العاشرة ، العدد (٧٠٠) ، ١٧ مارس ٢٠٠٥.

ونحن لن نناقش هذا المنطق المتخاذل، فلذلك مناسبة أخرى، ولكننا نقول بالمنطق نفسه الذى ينهج وفقًا له العدو الصهيونى: فما من فترة تمر إلا ويتصاعد التيار اليمينى ، ويشتد تأثير القوى الدينية ، وتشتد قبضة " الصقور" وتتوارى " الحمائم" – إذا كان بين المغتصبين النازيين احتمال وجود حمائم – ومن ثم فلماذا لا نقلدهم فى هذا النهج إذا كان المنطق الخفى لكل صور التهاون والتهادن والاستسلام وتوديع مرحلة المقاومة ، وهو أنهم أقوى منا وأننا لن ننتصر أبدًا عليهم ، أو بمعنى أصح لن يسمح لنا بهذا ؟ أليس هناك مبدأ ابن خلدون المعروف القائل بأن المغلوب مولع بتقليد الغالب؟

وتعيين "حلوتس" رئيسًا لأركان حرب العدو يتسق ويتناغم مع تعيين " يوفال ديسكين " رئيسًا لجهاز الأمن الداخلى " الشاباك " ، ذلك أن ديكسين" معروف بأنه هو الذى "هندس" عمليات الاغتيال التى تمكنت من رءوس قادة المقاومة الفلسطينية، بينما " حلوتس" هو " مقاول " ما تم من عمليات حيث كان قائدًا لسلاح الجو ، مما أتاح له فرصة أن يأمر بتنفيذ عمليات الاغتيال ، التى لوحظ أن معظمها كان يتم بطريقة القصف الجوى.

مثل هذا التعيين لم يشغل اهتمامات الكثيرين فى صحافتنا ، وأجهزة إعلامنا، وجاء الكشف عن بشاعة الرجل من أناس داخل إسرائيل نفسها ، فها هى " زهافا غلئون" عضو الكنيست تعلق بقولها : " ليس من الملائم أن يتولى قيادة الجيش الإسرائيلى العليا رجل أقر بأنه ينام قرير العين بعد إسقاط قنبلة على مدنيين ونساء وأطفال لا حول ولا قوة " .

وبينما رفعت قيادتنا العربية رايات الفرح بانتصارهم على " نوازع الشر العربية " التى تتخفى وراء شعارات " الكفاح المسلح" و" المقاومة" و" التحرير" وإعلان بداية النهاية لعهد المقاومة ونهج التحرير، إذا ببعض من يسمون بناشطى السلام فى (إسرائيل) يرون فى هذا التعيين بادرة شؤم، ونذير سوء ، فيجىء فى بيان لبعضهم : " دان حلوتس" الذى يفخر بقتل

فلسطينيين أبرياء ومنهم تسعة أطفال أكثر من أى إنسان أخر يؤكد عمق القمع والوحشية داخل إسرائيل فى السنوات الأربع الأخيرة !

نكرر أن هذا الكلام يصدر من إسرائيليين، وليس من أمثالنا لا سمح الله، فنستحق الغضب من زعمائنا ، والسخرية من الكتّاب المارينز !!

وإذا كنا قد أعلنا تشككنا فى ما أعلنه الزعيم النازى شارون فى " قاع شرم الشيخ " – لا مؤتمر قمة شرم الشيخ – من عزمه على المشاركة فى مسيرة السلام ، واستحق أمثالنا أيضًا النقد العنيف بأننا هواة عنف ومعاداة للتسامح ، فها هو نفس البيان الصادر من إسرائيليين، يكمل بقوله: " فى الوقت الذى نتحدث فيه عن فتح صفحة جديدة وتجديد عملية السلام فإن اختيار حلوتس هو الأسوأ، وهو يعزز الشك الكبير القائم بصدد برامج ونوايا حكومة شارون".

وفى الوقت الذى روج فيه زعماء عرب وكتاب مارينز عن توجيه اللوم الشديد لنهج المقاومة الفلسطينية المسلحة بأنه بنى على نزاعات دينية متعصبة، نجد لجنة كبار قادة المخابرات المتقاعدين والباحثين الإسرائيليين يوجهون أصابع الاتهام إلى قادة الحرب فى إسرائيل بأنهم ساهموا فى الانتقام، الأمر الذى أدى إلى تعاون بين حركات المقاومة وبعض الأوساط داخل الأجهزة الأمنية.

بل لقد اعتبرت هذه اللجنة أن ممارسات إسرائيل القمعية كانت السبب فى اتساع نطاق ظاهرة العمليات " الانتحارية" – وفق تعبيرهم – وانتقال الحركات العلمانية ليصبح أسلوبها الأكثر تفضيلاً ، وأكدت اللجنة أن تدمير منازل المقاومين كنوع من العقوبات الجماعية لم يفشل فقط فى تقليص عمليات المقاومة، بل إنه وفر مزيدًا من الدافعية لمواصلة عمليات المقاومة ، وأظهر كاتبو التقرير وعيهم بأن العقوبات الجماعية لم تقنع الفلسطينيين بترك المقاومة على أساس أنه لم يعد لديهم ما يخسرونه !!

آخر الرجال المحترمين ! *

كانت مصر أول أركان المنظومة العربية التى سقطت فى شرك الهيمنة الأمريكية الإسرائيلية وفق السيناريو الذى تم فى كامب ديفيد ١٩٧٩ تحت ستار مبهر هو تحرير الأرض ، فمن منا لم يكن يحلم بهذا ؟ ومن منا لا يرقص فرحا وطربا بهذا ؟ ومن منا يمكن أن يخطر بباله أن يشعر بمذاق الانتصار العظيم فى أكتوبر ١٩٧٣ دون أن يرى العلم المصرى يرفرف على كل شبر من أرض الوطن ؟ تحرير الأرض إذن ركن أساسى من أركان تحرير الوطن ، وعلماء السياسة والقانون الدولى يقولون لنا : إن من أركان الدولة " الأرض" التى يقيم عليها " الشعب" .

لكن هناك ركنا آخر لا ينبغى أن يغرب عن أذهاننا ألا وهو " الإرادة الوطنية " ، فماذا يجدى تحرير أرض وطن إذا كان مقابلها أن تغل إرادته الوطنية ؟ ومرة أخرى نحن لا نستهين أبدا بتحرير الأرض . ولكنا نربط بين الأمرين ، فمن معانى تحرير الأرض ألا يقف الأمر عند حد جلاء القوات الأجنبية عنها . وإنما أن تكون للوطن حرية إرادة فى الحركة على هذه الأرض المحررة ، فإذا لم يتم هذا ، فإن الأرض وكأنها لم تحرر تحريرا كاملا ، بل هناك ما هو أدهى وأمر، فالأرض التى كانت محتلة ، كانت جزءا من الوطن، لكن أسر الإرادة الوطنية بلاء يعم الوطن كله أرضا وشعبا ودولة !

فلما سقط الأخ الأكبر بدت الخطوات التالية لافتراس بقية الأسرة سهلة ميسورة ؛ إذا لن يهب هذا الأخ الأكبر للدفاع أو المؤازرة ، ولا بأس أن تصدر عن قياداته تصريحات من هنا وهناك ، ومقالات عنيفة تُنشر فى صحف .. المهم ألا حركة على الأرض تؤازر وتدعم ، وفى مرحلة تالية

---

* جريدة آفاق عربية، العدد (٧٠٢) ، ٣١ مارس ٢٠٠٥

يمكن استخدام الأخ الأكبر فى التهدئة والتسكيت والتحذير باعتبار أن له خطوطا مفتوحة مع العدو الذى أصبح صديقا ، ومع الشيطان الأكبر الذى أصبح حليفا استراتيجيا. لكن فى اتجاه واحد .. أى نكون نحن حلفاء له ، حتى ولو تعارض هذا مع مصالحنا؛ لأننا قوم نحترم العهود وأعطينا كلمة (!!) ولكنه لا يكون حليفا لنا إلا بما يخدم استراتيجياته ومصالحة.

وكانت أوسلو هى " الشِّرك " الثانى ، ذلك أن الفلسطينيين هم محور القضية ، قضية الصراع العربى الإسرائيلى ، فإذا ما تم التصالح ، لا يكون أمام باقى المنظومة العربية إلا أن يسلموا ، وكل يجد نفسه أمام حجة تقول : إذا كان أصحاب القضية قد صالحوا وسلموا ، فلماذا أظل أنا على نهج المخاصمة والمقاطعة ؟ ولأن الشعوب لها بصيرة أخرى غير بصيرة الحكومات العربية، تجد هذه الحكومات لا تجرؤ على إعلان المصالحة. فيتم تعاون وتنسيق فى السر ، وفق نهج الزواج العرفى ، على ألا يكون معلنا !

لن نستطرد إلى ما سبق ذلك مما حدث فى حرب الخليج الثانية ، ولا من بعد ذلك من مصالحة الأردن الرسمية ، ولا الإشارة إلى أن ما قضت به أوسلو نفسها – وكنا ننتقده – لم يتحقق ، وأصبحت المفاوضات الآن تجرى بعد ١٢ عاما حول استعادة بعض ما قضت به !! وقلبت انتفاضة الأقصى الكثير من الموازين ووقف الأشاوس العرب على نهج يتفرجون . وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل إن منهم من عاكس وأخبر عن صور مقاومة ، ومنهم من تبنى نفس مقولات الحلف الشيطانى الإسرائيلى الأمريكى من حيث تسمية الهجمات الاستشهادية بالانتحارية ، ووصف الهجمات الإسرائيلية الوحشية بأنها إفراط فى استخدام العنف يحتاج إلى تعقل !!

وتُجهت الجهود بهذا الذى حدث لياسر عرفات عمدا مع الترصد وسبق الإصرار، وبعلم أطراف عربية مهمة ، حيث كان الرجل – وفقا لنظرهم – عقبة فى سبيل الاستسلام (نقصد هذه الكلمة بالفعل) ، وجاء من ينهج نهج

باقى " الأشاوش" العرب الذين يتربعون على كراسى الحكم ... المسايرة لا المغايرة، وأصبحت قوى المقاومة فى مأزق حقيقى : فها هى مصر " يُسمح " لها بنشر جنود مصريين ؛ حيث كانت كامب ديفيد تمنعها من ذلك ، حتى " تحرس" الحدود بحيث لا يتم نقل سلاح للمقاومة ، والأمر كذلك بالحدود الأردنية. فأين المفر؟ فضلا عن ضغوط مصرية بالأساس ترفع راية مغشوشة أنها تعمل لصالح الفلسطينيين .. تماما مثلما تزعم فئة من الناس ، عندما يتعاونون مع قوى احتلال أو هيمنة مرددين أننا فى حالة من الضعف بحيث تصبح المقاومة المسلحة صورة من صور الانتحار ، وأن من الأفضل " التعاون" حتى ندع الأولاد يعيشون !

ثم بقيت شوكة أخيرة فى الجسم الإسرائيلية، ألا وهى سوريا وحزب الله ، وهما يكادان يرتبطان ارتباط علة بمعلول إلى حد كبير، فسوريا هى المأوى الوحيد الآن الذى يمكن أن تهجع إليه قيادات المقاومة ، حيث لا تسمح لها أى دولة عربية بذلك ، وسوريا هى الجسر الذى تعبر عليه المعونات الإيرانية إلى الحزب المقاوم على الأرض اللبنانية ، لا نخشى أن نقول ذلك ؛ لأن كل مقاومة تحتاج إلى مساعدات مادية ، بل إن الأشاوس أنفسهم يتلقون معونات شخصية وعامة من قوى الهيمنة ، فهل نحرم على آخرين ما نحله لأنفسنا ؟ وهل دفع الإخوة الأشقاء ما عليهم من حقوق بحيث لا يلجأ هذا الحزب المقام إلى من يعتبرونه " أغراب " وما هم " بأغراب" ؟

هنا كان لابد من إشعال الموقف على الأرض اللبنانية ، بحيث يمتلىء الجو بغبار كثيف وصراخ : أنقذوا لبنان من الاحتلال السورى (الذى تم باتفاق عربى) ، ولا يفتح واحد فمه أبداً بأن هناك احتلالا أمريكيا للعراق، وأفغانستان، وتهرول دول عربية نصحا لسوريا بإنهاء ما أسموه احتلالاً !!

وجهارا نهارا "ومعدش فيها كسوف" ، تعلن الست كونداليزا أن الولايات المتحدة مستعدة – بالتعاون مع أطراف أخرى غربية طبعا – لملء

الفراغ الذى سوف يتركه الجيش السورى ؟ ولا تسمع أحدا من الأشاوس العرب يفتح فمه ولو متسائلا : إذن فالقوات السورية كانت تسد فراغا ، فهل سدها للفراغ يصبح احتلالا ، وهى جارة عربية ، ولا تصبح القوات الغربية احتلالا ؟ من المستحيل أن يكون الأشاوس العرب على درجة من السذاجة بحيث لا يعرفون ... إنهم يعرفون ، لكنهم لا يملكون القدرة على فتح الفم .. ألم أقل فى مقال سابق : أسود علينا وفى الحروب ... ؟!!

وعندما يكتمل الخروج السورى يتم التفرغ إلى الصيد الثمين " حزب الله " ..صوت الكرامة الوحيد الذى تبقى .. صورة من الصور التى تذكرنا بأيام كنا نعتبر فيه الاحتلال احتلالا ونسمى فيه المقاومة نضالا وشرفا ، ونسمى فيه المقاتلين ضد الاحتلال بالوطنيين الشرفاء . ويقف على رأس هذه الصورة الباقية ، حسن نصر الله، الذى شاء له حظه أن يوجد فى زمن السقوط المروع ، إن مثله مثل واحدة شريفة كانت تسير مع مجموعة سيدات فواجههن رجال يبغون اغتصابهن فرضى الجميع إلا واحدة ، هنا لابد أن تعمل كل من سقطت على التخلص من التى رفعت رأسها وأبت أن تسلم ؛ لأنها تكشف عهرهن ، وتفضح سقوطهن ، وتجعل " الشرف والكرامة " قيما حية فى عقول الناس.

وهكذا أصبح حزب الله مطلوبا حيا أو ميتا ، فإذا نجحت المؤامرة الكبيرة التى بدأت بإصدار القرار ١٥٥٩. ثم توجت باغتيال رفيق الحريرى ، سوف يكون حزب الله وعلى رأسه حسن نصر الله هم بالفعل آخر الرجال المحترمين فى هذه الأمة المنكوبة بحكامها.

ليس دفاعا عن الجماعة " المحظورة " *

عندما أنبه فى مستهل المقال إلى أننى لم أكن فى يوم من الأيام منتظما فى جماعة الإخوان المسلمين ، فلا أقصد بهذا – بأى حال من الأحوال – دفع تهمة عن نفسى ، إذ على الرغم من انتقاء هذا الانتظام بالنسبة لى إلا أننى أعتبره ، بالنسبة لأصحابه " شرفا " يحق لهم أن يتباهوا به ، وتاجا على رءوسهم نغبطهم عليه ، حتى لو ردد الآخرون هذا التوصيف المضحك " المحظورة " مظهرا من مظاهر ما حدث للمصريين فى العقود القليلة الماضية من تزييف لوعيهم وتسطيح لعقولهم . وتعال معى أيها القارئ نقارن بين " المحظورين" وبين " الوطنيين الديمقراطيين " لترى أن التسميات تخاصم الواقع وتنقض التفكير المنطقى.

فلا حديث فى مختلف أجهزة إعلام العالم كله ، بما فيها الإعلام الداخلى، ومنذ أكثر من شهر إلا عن الإخوان المسلمين ، وموقف الإخوان المسلمين من كذا وكذا ، وتحركات الإخوان المسلمين ... إلخ. وأنت إذا نظرت إلى شاشات التلفاز أثناء متابعة قنوات العالم لمجريات الانتخابات المصرية فسوف تجد صورا لفيضان من جماهير غفيرة تملأ مدن مصر وقراها وترفع شعار الإخوان وتهتف لمرشحى الإخوان . لماذا كل هذا الاهتمام ؟ لماذا كل هذا الصخب والضجيج ؟ لأن الجميع بدأ يرى ما هى القوة الحقيقية فى مصر .. لقد انكشف الغطاء عن الحقيقة والزيف .. ثم انظر إلى هؤلاءء الذين يسمونهم بالوطنيين الديمقراطيين فلن تجد " حزبا " بالمعنى الحقيقى ، وإنما سوف تجد إما جيوشا جرارة من قوى الأمن المركزى تحرسهم وتسوق الناس إليهم ، وترهب الآخرين وتروعهم ، وسوف تجد " الدولة " بكل أجهزتها وقواها توزع العطايا والمنح التى هى

---

* جريدة آفاق عربية، العدد (٧٣٨) ، ٨ ديسمبر ٢٠٠٥

من جيوب الناس ، (ومنهم الإخوان المسلمون أنفسهم مثل باقى فئات المصريين) إغراء وجذبا.

هو حزب " عبده مشتاق " لمن يتطلعون إلى موقع أو منصب ، أو إلى صفقة ، أو إلى أرض ، أو إلى منصب ، أو إلى رشوة .. تجمع لأصحاب المصالح المتلهفين على القفز والسطو .. إلا من رحم ربى ! أما المحظورون فهم الذين يتقدمون لتمثيل الناس وليس وراءهم مصالح ومناصب وجوائز، وإنما أمامهم هراوات وسجون ومعتقلات وكرابيج وسياط تعذيب وقهر وتلويث بغير حق. حزب " عبده مشتاق " هم ممن يمكن القول عنهم : (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) .. سلطة دولة .. ميزانية دولة .. إعلام دولة ؟ أما المحظورون فلا صحف يومية .. أو مجلات أسبوعية .. ولا إذاعات .. ولا قنوات تليفزيونية. حزب عبده مشتاق تجد منهم من نهب ملايين من أموال الناس فى البنوك وهرب بها .. وتجد منهم من أمرض عشرات الألوف من المصريين .. وتجد منهم من يفرض إتاوات بعشرات الألوف من الجنيهات لمن يريد الالتحاق بكلية عسكرية أو يرشح نفسه فى الانتخابات ، أو يلتحق بموقع مرموق .. أما المحظورون فهم هؤلاء الذين حملوا أرواحهم على أكفهم بكل رضا نفسى واقتناع وينتظرون أن يحرموا من تقلد أى موقع مرموق ، وأن تقفل أمامهم شاشات التلفاز وألا يعين أبناؤهم فى وظائف أمن أو وظائف دبلوماسية أو مواقع عسكرية أو شرطة أو وظائف إعلامية ..

تلك قطرات من بحر .. وما لم نذكره أفدح وأكثر هولاء.. فمن الذى يستحق أن يكون محظورًا!؟ قالوا : إنهم رجال عنف، وعندما تسأل عن الدليل، يعدون بك إلى ما قبل خمسين عاما (على الرغم من أن هذا الذى يشيرون إليه يحتاج إلى مناقشة)، وفى المقابل يروجون لإسرائيل على

أساس " عفا الله عما سلف " ، وهى التى اغتصبت وطنًا وشردت شعبًا وقتلت من جنودنا عشرات الألوف ، وخربت مواردنا بمليارات الجنيهات.

من الذى اعتقل وسجن ألوفا من المصريين وأعدم وعذب وضرب المئات من أبنائنا : المحظورون أم الديمقراطيون الذين لا يستحقون هذا الاسم الشريف العظيم؟! المحظورون لم يحكموا يوما من الأيام ، والمشتاقون يحكمون منذ عشرات السنين فملأوا دنيانا فقرا وجوعا ونهبا وبطالة وتعليما مخجلا ، فكيف يملأ " المثقفون المارينز " من كتاب وإعلاميين الدنيا تخويفا للناس ممن لم يحكموا يوما وينسون من يخربون وينبهون ويسرقون ويبيعون إرادة الوطن ؟ انبرى أحدهم منفعلا على شاشة التلفاز مثيرًا رعب الناس من حكم " المحظورين " المتوهم بأخذ مثل من الجزائر والسودان ، فهل نسى الصحفى الذى يوصف بأنه " كبير" أن الإخوان لم يتولوا الحكم فى الجزائر أبدًا ، وما حدث فى الجزائر إنما كان نتيجة لتدخل العسكر وإلغاء اختيار الشعب الجزائرى نفسه عن طريق صناديق الانتخابات ؟ والحجة أنهم إذا تولوا فسوف يستبدون بالأمر ويمنعون غيرهم !

وهل نسى المذكور أعلاه أن بلدا مثل السودان جمعت له قوى الولايات المتحدة وإسرائيل وبعض البلدان المجاورة لتستزفه فى حرب أهلية ما يقرب من عشرين عاما وهو البلد الفقير، وأن النظام المصرى الحاكم خاصم السودان طويلا ووقف متفرجا سنوات طويلة على ما يتعرض له من مؤمرات ؛ لأنه يرفع شعارات إسلامية وإن كنا نختلف حول بعض ما جرى من ممارسات فى السودان فى الوقت الذى نعرف فيه يقينا أن السودان هو بالنسبة لنا قضية حياة أو موت، فكأن نظامنا الميمون ضحى بما هو فى قلب المصلحة الإستراتيجية المصرية ، حاضرا ومستقبلا بناء على كراهية دفينة لكل من يرفع شعارا إسلاميا ؟

ومن أعجب أعاجيب الكتاب الماريز عندما يفهمون من اسم " الإخوان المسلمين " أن ذلك يعنى أن هذا يعنى إخراج كل من لا ينضم إليهم من زمرة المسلمين ! حقيقة أشعر بخجل وأنا أفند هذا الهراء .. فهل تسمية حزب بأنه " الوطنى " يعنى أن من هم خارجه غير وطنيين ؟ وهل تسمية مقرر بالمدرسة بأنه تربية وطنية يعنى أن باقى المقررات غير وطنية ؟ وهل وجود مقرر باسم التربية الدينية أو الإسلامية أن المقررات الأخرى عكس ذلك ؟

ما هذا العبث بعقول الناس ؟ ترى ... من الذى يستحق أن يكون " محظورا " ؟!

عندما يكون الغباء نهجا..
والجبن سياسة ! *

كنت خارجا من مكتبى خلف جامعة عين شمس، وأنا متهيئ نفسيا أن أرى هذا المنظر القمئ الذى يصفع وجهى ووجه سكان المنطقة وألوف من طلاب الجامعة ، آلا وهو مصفحات الأمن المركزى وبها عشرات الجنود المدججين بالسلاح والهراوات.. مكشرين عن أنيابهم لكل من تسول له نفسه أن يصدق الصفة المزعومة من حزب الدولة " الديمقراطى"، إلا إذا فهم الديمقراطية على أنها " مسايرة " النظام ، أما الاختلاف وأما المغايرة ، وأما تعدد وجهات النظر .. فكل هذا من أساطير الأولين مما ينبغى عدم التعويل عليه. ثم إذا بى لا أرى هذا المنظر القمئ الذى ظل رابضا على أرضنا محاصرا لنا منذ سبتمبر عام ٢٠٠٠ عندما اندلعت انتفاضة الأقصى ، وكانت هناك بقية روح وآثار وطنية تثير احتمالات القيام بحركات تعبر عن احتياج وسخط مؤازرة للفلسطينيين ، وقلت فى نفسى : لعل القوم انتهزوا فرصة اليوم الأخير للتصويت فى انتخابات ٢٠٠٥ ليعلنوا رفع الحصار، إيذانا بأن حزب الدولة هو بالفعل الديمقراطى فيهرع الناس إلى صناديق الانتخابات فى غير خوف ، ويسارع المصريون إلى التعبير عن رأيهم متحررين من البطش والبغى.

أسررت بخواطرى هذه إلى أحد الأصدقاء ، فإذا بعلامات دهشة تطو وجهه مستنكرا أن أكون على هذه الدرجة من السذاجة ، فلما استفسرته عما يجعله يرى ذلك ، أجاب : إن الأمر بسيط للغاية ؛ هل تتصور إمكان أن ينبت الشوك عنبا ؟ ألا تتذكر التساؤل الشعبى الاستنكارى " هيه الحداية بترمى كتاكيت" ؟! كيف يمكن لنظام يستشعر أنه مكروه من " طوب الأرض

---

* جريدة آفاق عربية، العدد (٧٤٠) ، ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٥م.

" فى كل مكان على أرض المحروسة أن يسمح بهذا الهراء الذى تصورته ؟ إن القاهرة قد انتهى أمر الانتخابات فيها ، وهناك الجولة الحاسمة فى محافظات كذا وكذا، ولابد من أن يستجمع النظام عسكره لمواجهة إرادة الناس حتى لا تأتى الطوبة فى المعطوبة وينكشف على حقيقته وتظهر عورته!

عدت أفكر فى هذه المسألة جيدا، وقد انقعشت غشاوة حسن النية عن عينى لأرى القبة قد انكشفت عن حقيقتين مفزعتين ، أولاهما: أن هذا النظام الحاكم هو نظام غبى ... ثانيهما : أن هذا نظام جبان ! كيف ؟ فأما أنه نظام غبى ، فهذه صفة نظلقها على من يتصور أن من يتعامل معه " مغفل " ولم يبلغ سن الرشد بعد فيتصرف على هذا الأساس ، كما نحكى مثلا لأطفالنا الصغار حكاية عن حيوانات تتحاور وتفكر ، على أساس أن أطفالنا ما زالوا قاصرى تفكير، ومن ثم فسوف يصدقوننا ، ولو استمر أحدنا ينهج النهج نفسه بعد أن يكبر أطفاله وينضج تفكيرهم ، وتحولنا إليه هو وحكمنا على أنه هو نفسه ، قاصر التفكير ، غبى العقل !!

وهكذا يغرقنا النظام بمجموعة من التصرفات التى تصور أنها قد انطلت علينا ، كأن يزور نتيجة انتخابات الدقى ، ويتصور أن أمال عثمان الجاثمة على قلب هذا البلد منذ عام ١٩٧٧ يمكن أن ينتخبها أحد ، ثم أن ترضى هى ، أستاذة القانون الجامعية – تصور! – بأن تصدق من زوروا لها وينام ضميرها ملء الجفون ، وهى تجلس على مقعد غيرها مغتصبة له .. أستاذة القانون !!

هو الأمر نفسه بالنسبة للمفكر السابق " الفقى " الذى واتته الجرأة أن "يقاوح" ويصر على تصديق الأكذوبة التى كشفها القاصى والدانى فى كل أنحاء المحروسة أنه يجلس على مقعد لا يستحقه بل ويصل الأمر به أن يقول – فيما نشرته بعض الصحف – إنه ينام قرير العينين !! ولن أطيل فى هذا

فقد كفانا الحديث فى هذه المهزلة من " المفكر السابق العديد من الكتاب ، لا من الموالين فقط بل ومن المغايرين تعبيرا عن مدى ارتفاع درجة الكذب والتزييف إلى أماد لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم ! ويحصل على مقعد النيابة كذلك من يسرق منذ عشرات السنين وينهب ، يعلم الجميع ، ويحصل على أتاوات بالألوف لمن يريد الترشيح ، ومن يريد إلحاق ابنه بكلية عسكرية أو من يريد أن يكون كذا وكذا من المواقع القيادية فى هذا البلد المنكود .. هل يتصور عاقل واحد أن أمر هذا اللص الكبير غير معروف ؟ فكيف يحتل مقعدا ينوب فيه عن الناس ، أى ناس ؟ المتطلعون للنهب ؟ المشتاقون للسلطة ؟ كذابوا الذفة ؟

وهذه الصفحات الطويلة العديدة التى يسودها ممالىك النظام فى صحافته الرسمية تبث كذبا وتزييفًا .. هل يتصورون أن أحدا يصدقهم ؟ لقد تعودنا منهم الكذب والتزييف والنفاق إلى الدرجة التى تجعلنا لا ندهش لو طلعت علينا صحيفة تعلن اكتشافها أن الجماعة " المحظورة " هى التى تقف وراء ما عرفناه باسم السحابة السوداء ، أو أن تعلن صحيفة أخرى أنها تسجل سبقا باكتشافها أن بداية إنفلونزا الطيور كانت فى مزرعة للدواجن يملكها قيادى من قيادات الجماعة " المحظورة" ... إلى غير هذا وذاك من أكاذيب تعودوا على تلفيقها !!

أما أنه نظام جبان كذلك فلأنه لا يجرؤ على أن يواجه مغايريه متعريا من جنوده وأسلحتهم متخليا عن سلطته وصولجانه . يجبن عن أن يواجه مخافيه بالرأى والفكرة والمناقشة والحوار ...يسد الباب منذ البداية ، تماما مثلما كانت القوى الاستعمارية تفعل فى مواجهة قوى المقاومة ، وتقول أنها لا تحاور إرهابيين !!

إلا إنك لتخطئ كثيرا إذا تصورت أن النظام الذى يسأل الناس عن رأيهم فيه تحيطه قوات مسلحة لا أقول مستعدة للبطش والتنكيل والضرب

ولكنها مارسته بالفعل هو نظام قوى وشجاع .. العكس هو الصحيح فذلك لأنه فى الحقيقة يبتعد عن المواجهة عندما يختفى وراء المصفحات والمدرعات والهراوات ، وهو يعلم أن من يقف فى مواجهته لا يملك شيئا من مثل ما يملك من أدوات البطش والبغى. وهو جبان لأنه يخشى من المواجهة بالفكر والرأى الحر والحوار، وإلا فليقل لنا من يريد: ما توصيف من يحمل السلاح فى مواجهة من يجئ يريد أن يبدى رأيا ؟

لابد أن يعلم سلفا أنه مكروه، وأن هؤلاء الناس قد عرفت حقيقة فساده وانتهاء تاريخ صلاحيته ومن ثم فإذا سمح لهم أن يعبروا صراحة عن إرادتهم فسوف يحكمون عليه بضرورة الإسراع بالرحيل.

ضرورة التقارب العربى الإيرانى *

كتب الأستاذ الفاضل وليد أبو ظهر مقالا خطيرا يحمل نغمة التحذير من أن تدفع التطورات الإصلاحية الجديدة على الساحة الإيرانية الدول العربية أن تتقارب مع إيران ، على أساس الجديدة أن الفلسفة العامة والإستراتيجية الأساسية لا تختلف بين الإصلاحيين والمتشددين، حيث يتفقان على استمرار احتلال إيران لجزر دولة الإمارات الثلاث ، وأن ما بينهما من خلاف هو مثل الاختلافات المزعومة بين الليكود والعمل فى إسرائيل . وليسمح لى كاتبنا الفاضل أن يتسع صدره لمساحة من الاختلاف نعرضها على القارئ . فبداية لا مجال للشك فى أن احتلال إيران للجزر الإماراتية عمل غير مشروع ولابد من العمل على إنهائه، لكن السؤال هو: هل لابد أن يكون ذلك عن طريق المخاصمة والتباعد ؟ وهل ما فعلته إيران – على سوئه – يتساوى ما فعلته إسرائيل – وما زالت – بالأمة العربية ، ومع ذلك فها هم العرب ، وفى مقدمتهم الأم الكبرى مصر تسلم بأن كل هذا لا يمنع من وجود علاقات سياسية واقتصادية وثقافية مع إسرائيل ؟ أطرح هذا التساؤل مع عدم ارتياحى للمقارنة بين إيران وإسرائيل لعشرات الأسباب التى يضيق النطاق على الإشارة إليها.

كذلك فلا ينبغى أن ننسى الترحيب العربى الواسع بسقوط الليكود ومجئ باراك صاحب اليد التى تلطخت شخصيا بدماء زعامات فلسطينية مجاهدة ، فى قلب بيروت ، وفى تونس ! إن إيران قوة إقليمية كبرى فى المنطقة لها مصالحها وتوجهاتها التى تخدم هذه المصالح ، وهذا أمر لابد أن يكون فى بؤرة وعينا ، مثلما نعى، بل ونسلم بأن الولايات المتحدة مثلا مصالحها الخاصة وتوجهاتها ، ونحن أيضا ، وخاصة مصر والسعودية ، لنا

---

* جريدة أخبار اليوم ،٨ إبريل ٢٠٠٠

بالدرجة الأولى مثل هذا ، وإلى حين نرجو ألا يطول ، كانت العراق التى بدأت هى الحرب على إيران وهى ما زالت تنفض غبار حكم الشاه ، واستمرت ثمانى سنوات كنا نحن العرب نساعد العراق على ذلك بالمال والعتاد وبكل السبل ، فإذا كانت إيران قد اعتدت علينا باحتلال الجزر الثلاث، فنحن أيضا قد اعتدينا عليها ودمرنا الكثير من قوتها ، فلا استفدنا نحن ولا هى وإنما الذين استفادوا هم أعداؤنا وأعداء إيران!

والاعتراف بهذا لا يعنى ترك الحبل للآخرين على الغارب ، وإنما ما دمنا نجد أن من المشروع أن نكون نحن قوة كبرى ذات شأن فى المنطقة ، فلابد أن نسلم بحق آخرين فى ذلك ، وفى مناخ مثل هذا قد يكون من الصعب استمرار المحافظة على لعبة التوازن ، ويكون هناك خوف من تسمم الأجواء وتوتر العلاقات مما يعود بالسلب على مختلف الأطراف المعنية ، ومن هنا فلابد من تذكر المقولة السياسية المعروفة من أن العداء بين أطراف سياسية متعددة لا يمكن أن يستمر إلى ما شاء الله ، وأن التقارب وعلاقات حسن الجوار هى أنجح السبل ، وخاصة فى هذا العصر الذى نعيشه، حيث يدور التنافس الآن لا بقعقعة السلاح وإنما بمدى التقدم العلمى والتكنولوجى والقوة الاقتصادية والممارسة الديمقراطية.

لقد تنادت مختلف التقارير وخاصة عقب الإعلان عن نتائج الانتخابات الإيرانية الأخيرة بأن التيار الإصلاحى قد أصبح فى موقع أقوى ، على عكس تيار المتشددين ، إلى الدرجة التى جعلت الولايات المتحدة نفسها ، قائدة المقاطعة والمخاصمة لإيران تلوح بخطوات وتصريحات تدخل فى باب الغزل السياسى ، وللولايات المتحدة كما لا يخفى عن كاتبنا أجهزتها التى لا تعد ولا تحصى فى دراسة ومعرفة حقيقة التغيرات الحادثة وهل هى بالفعل تغيرات فى الشكل فقط أم تتنبئ بتغيرات فى المضمون يفرض على الجميع أن يشجعوها ويمدوا إليها حبال الثقة والود؟

عنصرية فكرية !

المسلمون فى أمريكا .. وخارج أمريكا*

فى أوائل عام ٢٠٠٠ حصدت شركة " بارامونت " السينمائية الأمريكية مبالغ ضخمة وصلت إلى ما يقرب من ٤٣ مليونا من الدولارات حصيلة عرض فيلمها : Rules of Engagement حيث كان الهدف الرئيسى لهذا الفيلم هو غرس صورة بشعة عن المسلمين باعتبارهم مغموسين فى النهج الإرهابى ...

وعلى سبيل المثال فالفيلم يحتوى على مشاهد تصور هجوما من المسلمين فى اليمن على السفارة الأمريكية بصنعاء ، لكن فرقة بحرية أمريكية تتمكن من إنقاذ من بالسفارة ، وعندما تعقد محكمة عسكرية أمريكية لمحاسبة الجنود الأمريكيين الذين أطلقوا النار على المسلمين ، يتم عرض تسجيل يظهر قائد الجماعة الإسلامية حاضا أتباعه على ضرورة قتل الأمريكيين باعتبار ذلك صورة من صور الجهاد ضد أهل الكفر ، كما حاولن تصويرنا !!

فلم يكن هذا الفيلم رد فعل طبيعيا لأحداث سبتمبر، وإلا لقلنا أن منتجيه معذورون على الرغم من استمرار شكنا فى أن يكون التخطيط والتدبير لهذه الهجمات صادرا من مواقع إسلامية ، حتى ولو ثبتت الأقاويل عن توجيه الاتهام إلى أيد مسلمة ، فغالبا ما تكون هذه الأيدى مدفوعة عن طريق الغير أو غُرر بها. ويحار المرء حقا فى فهم السلوك الأمريكى تجاه الإسلام خارج الأراضى الأمريكية ، فلابد لنا أن نقر بأن المواطن داخل الولايات المتحدة يجد أكثر مما يجده فى بلدان كثيرة فى العالم ، حرية عقيدة ومذهب فى

---

* جريدة الأخبار ، ٢٤ إبريل ٢٠٠٢

المجال الديني ، ومع ذلك فالثقافة الأمريكية نفسها تحفل بالكثير من صور الافتراء والهجوم الظالم على الإسلام وعلى المسلمين ، ولا تفسير لذلك إلا إذا وضعنا العنصرية الفكرية كأحد احتمالات التفسير ، فالمواطن الذى يحمل الجنسية الأمريكية له أن يعتقد ويسلك الإسلام ، لكن المواطن فى أى دولة أخرى لا ينبغى أن يحظى بمثل هذه الحرية !

وربما يضاعف من الحيرة أن تعيش بين الأمريكيين نماذج إسلامية وعربية مشرفة حقا ثم يظل الشعور العام معاديا ، ويكفى أن نسوق أمثلة تعد على أصابع الي د: فهناك عالمنا المصرى الشهير أحمد زويل الحائز على جائزة نوبل العالمية فى الكيمياء عام ١٩٩٩، وصافى قرشى ، الذى يعد من كبار المسئولين فى شركة ضخمة للكمبيوتر وراى إيرانى، وهو أحد قادة شركة (أوكسدنتال) العاملة فى مجال النفط ، وعلى مازورى الكينى ، وهو من أساتذة العلوم السياسية المبرزين .

وهناك أيضا البرت شفايترز ، وهو المدير المسئول لمعهد هام فى جامعة بنغهامتون فى نيويورك ، وهو معهد الدراسات الثقافية العالمية وإبراهيم أبو لغد الذى يشغل موقعا على درجة كبيرة من الأهمية فى جامعة نورث ويسترن من حيث مسئوليته عن الدائرة السياسية ، ورشيد الخالدى، الأستاذ بجامعة شيكاغو، وهشام شرابى الأستاذ بجامعة جورج تاون ، فضلا عن إدارته لمركز تحليل السياسات فى واشنطن وهناك أيضا المخرج السينمائى ذو الأصل السورى مصطفى العقاد.

وإذا كان الوجود الإسلامى فى الولايات المتحدة قد بدأ يبرز منذ أواخر الستينيات بصفة خاصة، إلا أن جذوره تمتد طويلا فى التاريخ بأبعد مما يتصوره كثيرون والمعلومات الواردة فيما يلى مصدرها الكاتب الأمريكى المعروف بول فندلى ...

نؤكد على هذا خوفا من سرعة اتهام يمكن أن يوجه لنا بأننا نبالغ ونزين ونجمل ! فالبحارة المسلمون كانوا قد وصلوا إلى أمريكا عام ١١٧٨م، سابقين بذلك كولومبوس بما يقرب من ثلاثة قرون، لكنهم لم يدركوا أنهم قد وصلوا إلى قارة جديدة بالفعل ، بل أن كولومبوس نفسه عندما وصل إلى أمريكا كان ذلك بمعونة بحارة مسلمين . وعندما بدأ الهجوم والمحاكمات الكاثوليكية مستهدفة مسلمى أسبانيا منذ أمد بعيد ، اضطر كثيرون إلى الفرار. وكانت أمريكا أحد المقاصد التى قصدها عدد غير قليل من الفارين . ومن الكتابات هناك ما يؤكد على أن ما يقرب من ربع عدد العبيد الأفارقة الذين استجلبوا إلى الولايات المتحدة منذ قرون كانوا من المسلمين ، لكنهم أجبروا على ترك دينهم ، وكذلك يشير البعض إلى أن عددا من مسلمى الصين استجلبوا لإقامة شبكة السكك الحديدية.

وتشير بعض الأرقام إلى أن الجيش الأمريكى يضم ما يقرب إلى من سبعة ألاف جندى أمريكى مسلم مما حتم بناء مسجد لهم فى قاعدة بحرية فى نورفولك فى ولاية فيرجينيا ، أما العدد الإجمالى للمسلمين فى الولايات المتحدة فغير معروف بدقة ، وأقل التقديرات ، أنهم يبلغون سبعة ملايين ، فهم بالتالى، إن لم يكونوا عددا أكثر من اليهود فهم يماثلونهم .

هذا من ناحية الكم ، لكنهم – كيفا – يتدنون عنهم كثيرا لأسباب كثيرة معروفة ، وخاصة بالنسبة للتسيد الإعلامى والمالى ، فضلا عن أن المسلمين يعكسون بكل الأسف والأسى عوامل الفرقة والتجزئة الشائعة فى العالم الإسلامى. فهناك المسلمون ذوو الأصول العربية ومسلمو آسيا من غير العرب ، وهناك المسلمون السود ، والمسلمون الأمريكيون الذين أسلموا وفقا للطريق الذى سلكوه للإسلام .

ولا ينبغى – كالعادة – تعليق المسئولية فى التشويه والافتراء فى رقبة الأمريكيين وحدهم فهناك نفر منا كان لهم دورهم فى هذا ، ولا نريد أن

نشارك فى توجيه السكاكين فيكفى ما حدث للأفغان من تدمير وقتل وتخريب ، وإلا لعرضنا صورا يستحيل الموافقة عليها صدرت عن طالبان فى فترة حكمهم ، كانت مادة دسمة أتاحت للمتربصين فرصة ذهبية لا لقصر الهجوم على المفهوم الطالبانى وحده ولكن للتعميم وإطلاق الأحكام الكاسحة بأن الإسلام عندما يحكم، تكون هذه هى النتيجة !!

هذا فضلا عن احتمالات لابد من وضعها فى الاعتبار أن يكون بعض ما أشيع عنهم يدخل فى باب الاختلاق أو المبالغة. نقول هذا دون أن نؤكد أو ننفى لأن الكثير مما كان يصلنا كان يصلنا فى أغلب الأحوال عن طريق مصادر غربية عامة وأمريكية خاصة.

عفوا دكتور زقزوق*

أكرر فى البداية ما سبق أن أكدته فى مقال سابق لى نشر فى مكان آخر .. ما أكنه للدكتور محمود حمدى زقزوق من ود وثقة فى دينه ووطنيته ، لكن معرفتى بثقافته الفلسفية التى تدرب الإنسان على تعدد زوايا الرؤية وتنوع الأفكار واختلاف الرأى ، تشجعنى على الاختلاف معه فيما هو مثار منذ عدة أسابيع حول ما سمى بتوحيد الآذان ، مع ثقة بإن هذا الاختلاف لن يفسد ما بيننا من ود بإذن الله ، ذلك أن حصر القضية فى هذا الشأن هو نظر غير صائب ، ومثار للقيل والقال ، وأخشى أن أقول ، إنه يفتح الباب لإساءة الظن.

إن القضية تكمن فى هذا الكم المذهل المتنوع ، من الضوضاء والتلوث السمعى الذى لم أر حقا له مثيلا فى دول أخرى، حيث طوفت فى بلدان عدة مما يجعلنى أجزم بهذا الذى أقول . منذ أسبوعين على وجه التقريب ، بدأت أسمع وأنا فى مكتبى بمساكن جامعة عين شمس صوت ميكروفون بلغ أقصى ما يمكن تصوره من علو الصوت ، ينيع أسوأ ما يدعون بأنه أغان ، وأردأ ما يدعون أنه موسيقى ، حتى لقد كان يخيل إلى أن الميكروفون قد وضع على أذنى مباشرة ، وتصورت أنه سيستمر دقائق ويسكت ، فإذا بساعة كاملة تمر دون فائدة ، أغلقت جميع النوافذ والأبواب لعلها تخفض من وقع الصوت ، لكن بغير فائدة فاتصلت بشرطة " النجدة " ووعدونى بالقدوم ، ومرت ساعة ولم يحضروا " للنجدة " فكررت الاتصال ووعدونى مرة ثانية ، ولم يصلوا " للنجدة " ، ومرت ساعة أخرى دون فائدة فاضطررت إلى الهروب من المكان والعودة إلى منزلى فى مكان آخر.

---

* جريدة الأخبار ،٣١ أكتوبر ٢٠٠٤

ساعتها حسبت الوقت الذى استمرت فيه هذه الضوضاء المذهلة ففوجئت بأنه بلغ أربع ساعات وأمسكت بالساعة فى وقت آذان أحدى الصلوات فوجدته لا يستغرق أقل من دقيقتين ، وأخذت أجرى عملية حسابية بسيطة تبين لى بعدها أن الوقت الذى استغرقته الزمر والدق والصخب الزاعق ٤ ساعات × ٦٠ دقيقة = ٢٤٠ دقيقة أى ٢/٢٤٠ " مدة الآذان" = ١٢٠ "آذانا" ، فإذا كان اليوم به خمس آذانات. فمعنى هذا أن هذه المساحة الزمنية تستغرق ٦٠ يوما.

هكذا نجد أن ما استغرقه الزعيق الصاخب من خلال هذا الميكروفون الشيطانى يساوى ٦٠ يوما من الآذان ، فأى الأمرين إذن أقسى على الناس ، فضلا عن أن الآذان دعوة باسم الله للناس أن يأتوا للصلاة التى تهيئ مؤيها إلى الفلاح ؟!

إن سبب الخشية والانزعاج من نية وزيرنا العزيز أن الناس يعيشون "موالد" لا أول لها ولا آخر من صور الإزعاج. هل نشير إلى فوضى " الكلاكسات" فى الشوارع؟ أو نشير إلى هؤلاء الذين ينادون على بعضهم بعضا من داخل البيوت بصوت " الكلاكس " فى أى ساعة من ساعات اليوم ، حتى لو كان هذا بعد منتصف الليل والناس نيام ، ولعدة مرات ؟ هل نشير إلى العديد من "زفف" الأفراح التى تسير فى عدة شوارع ، عدة مرات كل أسبوع ، بموكب طويل من السيارات مطلقة أصوات " الكلاكسات " ؟

هل نشير إلى " سرادقات " الأفراح التى تستمر إلى شروق الشمس على وجه التقريب بكل ما يصدر عنها من خلال ميكروفونات ضخمة من أسوأ ما يمكن أن نسمعه؟ هل نشير إلى مئات الباعة الجائلين الذين أصبحوا يحملون ميكروفونات معظم ساعات اليوم؟

هل نشير إلى محلات الكاسيت المنتشرة فى كل مكان ، والتى تسمعنا كرها ما أساء وأفسد بأعلى ما يمكن تصوره من أصوات مزعجة ؟

وهنا يثور السؤال : لماذا فقط صوت المؤذنين هو الذى لفت الأنظـــار واعتبر مزعجا ، واستنهض الحكومة لكى تهب وتفكر وتبحث فـــى كيفيـــة التخلص مما تصوروه من إزعاج وترصد لذلك مئات الألوف من الجنيهـــات وتستورد الخبراء والأخصائيين من الخارج ؟ لو كان التحرك جاء عاما لكل مسببات الضوضاء والإزعاج لحمدنا الله أن الدولة تفكر فى راحة بال الناس " وإن كنا لا نعد الآذان مزعجا " ولكن أن تخص الآذان دون غيره فهذا مـــا يجرح مشاعرنا ويملأ قلوبنا بالأسى والحزن!

ويعزز من هذا أنه يتم فى زمن تكاد لا تمر ســـاعة فيـــه إلا ويوجـــه الرصاص إلى صدر مسلم ليقتلوه أو بيته ليدمروه، أو زرعه ليقتلعـــوه ، أو أمواله ليصادروها أو أعماله ليجمدوها ؟

ومن هنا فإن الذين يكنون ودا واحتراما للدكتور زقزوق مثلـــى يكـــاد لسان حالهم يهمس فى أذنيه : هل هذا وقته حقا ؟ إن الظهر لم تعد به مساحة خالية من طعون السكاكين والرماح، فهل يزيدنا وزيرنا العزيز هما على هم حتى لو أخلص النية ؟

التربية الصهيونية ..
وأحذية الرئاسة الأمريكية*

عندما تم الاتفاق بينى وبين الأستاذ عبد الله إمام على الكتابة فى العدد الأسبوعى ل " العربى" وبدأت أفكر فى القضية التى أفتتح بها هذه السلسلة من المقالات كانت هناك " قضية " أثيرة لدى أخذت تلح بشدة على ذهنى .. إنها قضية الصراع العربى الإسرائيلى ، فمثلى مثل ملايين من أبناء الأمة العربية ممن تفتحت أعينهم على هذه القضية التى استنزفت – ومازالت – من جسد هذه الأمة دما متصلا منذ الثلاثينات ، ويزيد على هذا فرصة دراسة أكاديمية مطولة عن جذور التربية الإسرائيلية التاريخية ، ليست منفصلة – على الرغم من قدمها الزمنى – عما يحدث اليوم ، فهى من ثم تفسر وتوضح أن الخيط موصول والصراع مستمر على الرغم من تلك الدعاوى المتخاذلة المزيفة التى تزعم بأن " الصراع " فى طريقه إلى الانتهاء ، وأن التحدث عنه فى زمن العولمة وانتهاء صراع القطبين العالميين إنما هو إصرار على العيش فى كهف ماض انقضى، من شأنه أن يتحول إلى " أساطير" سياسية لساسة وعسكريى الأمس !!

وعلى الرغم مما تحتله هذه القضية من صدارة فى عقلى وفى قلبى، فإننى منذ سنوات أجد نفسى فى حالة غريبة .. فما أن يبدأ مذيع النشرة الإخبارية فى إذاعة ما يتصل بها، إذاعة أو تلفازا، حتى أشيح بأذنى أو بعينى بعيدا ، لا كراهية لها وإنما لأن كل ما يذاع على وجه التقريب أصبح يمثل لى فترات من التعذيب النفسى وكأننى أسمع أو أشاهد ما يذكرنى بالهزيمة والخذلان ، ويؤكد لى على مظاهر الضعف المخزى والتفسخ المؤلم الذى أصبحنا عليه ! تماما مثلما حدث من بعد وفاة أمى منذ عدة عقود فقد وجدت

---

* جريدة العربى الأسبوعية ،٥ سبتمبر ١٩٩٩

نفسى عازفا عزوفا غريبا عن أن أطل على صورتها ، فما من مرة وتصادف أن وقعت عيناى على هذه الصورة ، حتى ترقرقت فيها الدموع ، وأصبحت الأم وكأنها لم تمت إلا منذ لحظات ، ويأخذ شريط طويل من أفضالها ونضالها وكفاحها من أجلنا يتتابع أمامى ، ونفس الشئ حدث منذ شهور، حيث فقدنا زميلا فى الكلية ما أحببنا أحدا مثله، وحرص البعض على تعليق صورة له فى الغرفة التى كان يجلس فيها مع بعض الزملاء ، فإذا بى دائما أتحاشى دخول هذه الغرفة حتى لا تقع عيناى على الصورة !!

ولقد استطعت أن أقاوم إلحاح القضية على ذهنى وقلبى من حيث الكتابة فى الإسبوع الماضى ، فتناولت قضية مما يتصل بالهم التعليمى فى مصر ، وعبثا أحاول هذا الأسبوع أن أواصل هروبى ، فإذا بى أفشل ، وإذا بالطرق تنسد أمام عقلى وقلمى فلا أجد أمامى من القضايا إلا هذه القضية ومن الموضوعات إلا هذه القضية وكأن هموم الدنيا كلها قد تمركزت فيها ، وكأنى لا أعرف أى شئ عن أى شئ إلا عن هذه القضية مهما ضؤل وقل.

إن أكثر ما يعتصر قلبى ألما ليس فقط صور القهر الإسرائيلى المستمر للفلسطينين ، فهذا أمر مفهوم وطبيعى، أقصد أنه من الطبيعى أن يفعل الإسرائيليون ما يفعلونه بالأرض المحتلة ، لأنهم نتاج تربية صهيونية عنصرية قامت على العنف المسلح والاستغلال والاستعباد والتزييف ، ولكن المؤلم حقا ، هذا الذى يتكرر كل يوم على وجه التقريب من تصريحات " متفائلة" من القادة والزعماء العرب وفى مقدمتهم قادة السلطة الفلسطينية أنفسهم ، وكأن باراك هو المنقذ الذى سوف ينتشل ما يسمى بقضية السلام من وهدتها وما تعثرته فى عهد سلفه غير المأسوف عليه " النتن ياهو " ، مع أن الرجل " باراك" كان أمينا وصادقا مع نفسه ومع الجميع عندما لم يخف وجهه العنصرى القبيح فأعلن بكل وضوح تلك اللاءات الشهيرة ، لكل الآمال والطموحات الفلسطينية ، وهى أن القدس عاصمة أزلية لإسرائيل ، وأنه لا

يمكن إزالة المستوطنات الإسرائيلية، وأنه لا عودة للاجئين الفلسطينيين إلى أرض فلسطين ، لكنه غير مسموح لأى فلسطينى ولد على أرضها وهاجر مُكْرَها أن يعود مرة أخرى ، وأن الدولة الفلسطينية ، حتى إذا اضطروا إلى السماح بقيامها ، يجب أن تقوم مغلولة اليد عن أن تكون صاحبة سيادة فعلية ولو على الأرض التى تقوم عليها !!

ومن المفروض أن قادة السلطة أنفسهم أدرى الناس بمن هو باراك ، الذى تخفى فى زى امرأة واستطاع أن يغتال ثلاثة من أفضل قادة المقاومة الفلسطينية الذين كانوا مقيمين فى لبنان وقت الحرب الأهلية ، وكيف أنه هو الذى قاد تلك العملية الشهيرة ، والتى قام فيها باغتيال " أبو جهاد " ، ذلك القائد العسكرى الفذ والذى فقدت حركة المقاومة من بعده الكثير من قدرتها التخطيطية ، وما لا يقل عن ذلك أهمية أن باراك هو الذى كان مسئولا عما سمى بفريق " المستعربين" حيث استطاعت المخابرات الإسرائيلية أن تجند عددا من اليهود العرب ، ممن يتقنون اللغة العربية ولهجاتها المختلفة كى يندسوا بين الناس فى الأسواق وغيرها ويقوموا بعمليات اغتيال لقيادات عرفت بعدائها ونشاطها المقاوم للاحتلال الإسرائيلى.

بل إننى واحد من الناس ممن يرى أن القضية الفلسطينية قد فقدت الكثير بذهاب الننن ياهو !! فميزة هذا الرجل أنه كان يتحدث بما يبطن ، سافرا فى عدائه للسلام ، ومشهور بتراجعاته عما يتفق عليه مع الفلسطينيين ، فكأنه بهذا يكسب الفلسطينيين دعما بلا حدود من كل المستويين الإقليمى والمحلى ، ويستنفر قوة المقاومة والقتال فى النفوس العربية ، أما باراك فعلى الرغم من لاءاته إلا أنه استطاع أن يبث تصرفات وتصريحات مخدرة تصوره وكأنه سيصلح ما أفسده سلفه ، وأنه هو المبشر والنصير للسلام مأمول يدوم فى المنطقة ، بينما هو بالفعل لا يختلف عن سلفه من حيث الفلسفة والأهداف.

إن الزعيمين وكأنهما اتفقا على الحكم بالموت على شخص ما ، فهذا يريد تنفيذ حكم الموت بإطلاق النار عليه، أو بتعليقه على حبل المشنقة ، والآخر يرى أن يتم ذلك بالسم البطيئى ، تعددت الأسباب والموت واحد ، وإن هذا ليذكرنى بالراحل " خورشتشوف " عندما كان رئيسا للاتحاد السوفيتى فى أول الستينيات وسأله صحفى عن رأيه فى الفرق بين اثنين كان يتنافسان على رياسة الولايات المتحدة فكان رده أنه نفس الفرق بين فردتى الحذاء ، فهل الفردة اليمين أفضل أم الشمال ؟ !!

إننى لا أخفى على القارئ تشاؤمى الشديد من كل حلقة من حلقات المفاوضات ، فبعد جهد مضن ، وأسابيع وربما شهور ومعاناة ، دائما ما ينتهى الأمر بتنازل فلسطينى ، فى مقابل فتات ، ويتمحور الأمر فى معظم المرات على ما يسمى بالتفاق أمنى ... المزيد من المراقبة الفلسطينية والمطاردة لكل تلك القوى التى ما زالت تؤمن بأن السلاح هو الطريق الأساسى فى الحصول على الحقوق ، حتى خالج هذه القوى شعور بأن اليد الرسمية الفلسطينية أصبحت تشهر السلام فى وجهها هى بدلا من أن تشهره فى وجه العدو الأصلى ، ونتذكر على الفور مقولة نابليون الشهيرة : اللهم احمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم !

حزب الرئيس !![*]

إذا كانت الديمقراطية معيارا من المعايير التى لا ترتبط بتاريخ صلاحية يربطها بفترة زمنية معينة ، فإن وجه الحاجة إليها ومعياريتها فى تقويم النظم الاجتماعية والسياسية فى القرن القادم لابد أن تتفوق على كافة فترات التاريخ الحضارى للبشرية جميعا ، ومهما قيل فى النظام الانتخابى ، فسوف يظل أحد أهم آليات الديمقراطية التى يسعى النظام الاجتماعى إليها لإكساب النظام السياسى شرعيته ، ومما لا شك فيه أن انتخابات مجلس الشعب الأخيرة هى انتخابات فريدة حقا قياسا إلى كل ما شهدته مصر فى تاريخها الحديث من انتخابات ، فقد كانت السلطات المسئولة تصف كل انتخابات بأنها تمت فى ظل نزاهة وحيدة ، ثم إذا بنا بعد القرار الخاص بأن تتم انتخابات عام ٢٠٠٠ تحت إشراف القضاء ، أنها بالتالى سوف تكون أول انتخابات تتم بحيدة ونزاهة ! وعلى الرغم من الكثرة الواضحة فى التعليق على هذه الانتخابات ، فسوف تستمر الحاجة إلى المزيد لفترة غير قصيرة ، فإلى أى حد ، وعلى أى وجه سارت بنا وسرنا بها على طريق الديمقراطية للتعرف على نوعية دخولنا القرن الحادى والعشرين ؟ ذلك ما نحاول بيانه فى المقال الحالى ، من أجزائه على " شهادات " من أطراف بعيدة عن الشك فى عدائها للحكومة .

إن إجراء الانتخابات فى ظل قانون الطوارئ هو أول ثغرة يمكن أن نشير إليها نظرا لما هو معروف مما يعطيه للحكومة من سلطات استثنائية يمكن أن تلجأ إليها للتأثير فى نتائج الانتخابات ، خاصة وأنها تتم تحت الإشراف القضائى ، إذ ما دام التدخل سوف ينعدم أو هكذا المفروض داخل اللجان الإنتخابية ، فإن الحكومة يمكن أن تتدخل من المنبع ، وذلك عن

---

[*] جريدة الوفد ، ٤ ديسمبر ، ٢٠٠٠

طريق القيام بحركة اعتقالات واسعة النطاق لعدد من الأفراد ترى أنهم يمكن أن يكونوا قوة مؤثرة فى مناطقهم على العملية الانتخابية فى اتجاه لا تود له الحكومة أن يوجد أصلا ، وهو ما حدث بالفعل بالنسبة لمئات ممن تحسبهم الجهات الأمنية على التيار الإسلامى ، وبصفة خاصة الأخوان المسلمين .

ولعل ما حدث لمجموعة من نشطاء النقابات المهنية من قبل ذلك لمثال واضح على هذا ، ففضلا عن أهمية ذلك من حيث إقصائهم عن انتخابات النقابات المهنية القادمة بعدما استصدر بعضها أحكاما بضرورة إجراء الانتخابات ، والخوف من أن يعود الإخوان إلى السيطرة على هذه الانتخابات ، فقد جاء إقصاء هؤلاء فرصة لتجفيف ينابيع الجماعة ، فتضعف قدرتها على خوض الانتخابات .

يضاف إلى هذا ما جرى لحزب العمل ولجريدة الشعب ، ونؤكد هنا أننا نشير إلى هذا بغض النظر عن الموقف منه ، فالأخطاء التى أعلن عنها والممارسات التى اتهما بها ، كانا يمكن أن يتعامل معها بطريقة غير تلك التى تمت ، فقد كان واضحا أن الهدف الأساسى المسكوت عنه هو تجفيف نبع أخر من تلك الينابيع المزعجة للحكومة ولحزبها بصفة خاصة .

وعلى الرغم من كل ما تسوقه الحكومة من مبررات لاستمرار حالة الطوارئ ، فإن إجراء انتخابات ديمقراطية حقيقية كان يقتضى إن لم يكن إلغاؤها فعلى الأقل تعليقها لحين الانتهاء من الانتخابات ، وإن كنت لا أدرى هل هذا أمر جائز قانونا أم لا ؟ بل إن هذه المبررات نفسها ليست فى صالح الحكومة فأن يمر تسعة عشر عاما ، وتظل الحالة الأمنية بحاجة إلى قانون الطوارئ فهذا إعلان من الحكومة نفسها عن تقصيرها الأمنى والاجتماعى والسياسى .

كذلك فإن علاقة الدولة بالانتخابات ترسم علامات استفهام من حيث ما هو معروف فى ميراثنا الاجتماعى من أن الجانب الذى تقف السلطة الحاكمة

بجواره هو الجانب الذى تتزايد لديه فرص تحقيق ما يريد ، فالسلطة تملك الإدارة والمال والقوة الأمنية ، وبالتالى فإن وجود السيد الرئيس على رأس حزب الحكومة يعطى إشارة مبدئية لكثيرين بأن الرئيس يرشحهم هذا الحزب هم " المرضى عنهم " من الدولة ، خاصة وأن الرئيس يحظى بتقدير واحترام الكثرة الغالبة ، وبالتالى يقر فى ذهن هؤلاء إن الاعتراض على مرشح من الحزب الوطنى وكأنه اعتراض على رئيس الحزب . وكان لرأس المال هذه المرة دور بارز ، يتبدى من خلال العدد الذى نجح من كبار أصحابه هذه المرة ولسنا فى حاجة إلى التأكيد على أن أصحاب الثروات الضخمة مواطنون لهم حقوق الترشيح كما لأى مواطن ، لكن المشكلة إننا فى مجتمع ما زالت فيه الأمية تعشش فى أكثر من عشرين مليونا من السكان ، فضلا عن ملايين أخرين يعيشون تحت خط الفقر يقدر عددهم بما يقرب من عدد الأميين فإذا أضفنا إلى هذا وذاك ما هو مألوف من " تزاوج " فى كثير من الأحيان بين أصحاب السلطة التنفيذية وأصحاب الثروة كان لنا أن نضع أيدينا قلقا من ان يمتد نفوذ رأس المال إلى الجهاز التشريعى ، بالإضافة إلى مشاعر شك ، أن لم تكن مظاهر يقين ، بأن أصواتا غالبة يمكن أن يكون قد تم شراؤها .

وعلى الرغم من أن قانون العقوبات يعاقب كل من يعطل تنفيذ الأحكام القضائية بالحبس من ٣ إلى ٦ أشهر إلا أن السلطة ممثلة فى وزير الداخلية لم تنفذ حوالى ٧٠ حكما قضائيا من محاكم مجلس الدولة باستبعاد بعض الدوائر أو تغيير صفات بعض المرشحين من عمال إلى فئات .

وعلى سبيل المثال ، فقد قررت محكمة القضاء الإدارى بالقاهرة وقف الانتخابات فى ٨ دوائر بالقاهرة منها دائرة الازبكية والظاهر بسبب ثبوت ازدواج جنسية أحد المرشحين من كبار رجال الأعمال ، ومع ذلك فقد استطاع أن يقدم استشكالا بحيث تمت الانتخابات وفاز هو فيها ! وفى دائرة

قصر النيل قضت المحكمة بضرورة تغيير صفة أحد المرشحين من " عمال " إلى " فئات " لكنه نجح باعتباره من العمال ! وفى دائرة بولاق الدكرور قضت المحكمة بوقف الانتخابات بسبب عدم إجادة مرشح للقراءة والكتابة ، ومع ذلك فقد خاض الانتخابات ونجح ونحن نعيش عصر " المعلوماتية " ! وقضت المحكمة بوقف الانتخابات بالدائرة ٢٤ حلوان المرشح فيها وزير الإنتاج الحربى بسبب عدم وجود مصلحة أساسية له فى الدائرة وعدم وجود محل إقامة له أو عمل رئيسى أو عائلة ، كما أنها لم تكن مسقط رأسه ، ومع هذا فقد خاض الانتخابات ونجح ! ... وهكذا .

إن الأكثر خطورة حقا هو هذا التحليل القانونى المتميز الذى ضمنه المستشار طارق البشرى فى مقاله بصحيفة العربى فى الأول من أكتوبر فهو يشير إلى أن هناك فئات حسبت على القضاء وشاركت فى الإشراف على العملية الانتخابية بينما لا يعتبرون من الهيئة القضائية مما يفتح الباب لاحتمال الطعن على شرعية الانتخابات كلها ، والبشرى يستند فى تحليله إلى أن المادة ٨٨ من الدستور تقرر أن يتم الاقتراع تحت إشراف أعضاء من هيئة قضائية ولفظ " يتم " يفيد كمال الأمر واستيفاء كل أجزائه ، والإشراف يفيد الملاحظة والمتابعة لكل تفاصيل الأمر وعضو هيئة قضائية يعنى أن يكون موصوفا بهذه العضوية وهو يمارس الأمر ، بمعنى ان يكون تابعا لها وغير منفك عنها فى أدائه هذا الأمر ، وبالتالى فإن المنتدب من الهيئة القضائية إلى جهة أخرى لا يعتبر فيما يؤديه من عمل ندب إليه عضوا فى هيئة قضائية وهو يمارس أعمال الندب ، ومن يتصرف بغير صفة العضوية والتبعية للهيئة القضائية لا يعتبر عضوا بها .

ومضى البشرى فى تحليله لما أشار إليه الدستور من هيئات ينطبق عليها وصف الهيئة القضائية وعلى ذلك فإن أيا من الجهات التى لا ترد ضمن " المحاكم " أو " مجلس الدولة " أو " المحكمة الدستورية " لا يعتبر

رجالها أعضاء فى هيئة قضائية بنص التعريفات الواردة بالدستور ، وكذلك ليست وزارة العدل من الهيئات القضائية ولا المنتدبين إليها من هيئات قضائية وهم يمارسون عملهم المنتدبين إليه بالوزارة ، وكذلك رجال القانون والمرافعة والتحقيق والمشورة غير المندرجين فى عضوية المحاكم ومجلس الدولة والمحكمة الدستورية ، وينحسر عن هؤلاء جميعا وصف " أعضاء من هيئات قضائية " اللازم الإشراف على الاقتراع على الانتخابات والذى لا تصح الانتخابات ألا به !! .

ومن المعروف أن الدولة قد وضعت " فيتو " على مشاركة الأخوان المسلمين فى أية انتخابات نيابية على اعتبار أنهم " جماعة محظورة " ! وبعيدا عن مناقشة هذا الاعتبار ، لكن ما لا يمكن إنكاره أن هناك فرقا بين " التنظيم " و " الفكر " ، فهذه الجماعة ليست مثل الغالبية الكبرى من الأحزاب ، مجرد تنظيم ، وإنما هى صاحبة فكر بالدرجة الأولى .

وبعد ..

إن الذى لا نستطيع أن ننكره حقا هو إن هذه الانتخابات كانت هى الأفضل وعندما نقول هى " الأفضل " فإننا نقول ذلك وعيننا على الانتخابات السابقة ، لكننا من ناحية أخرى نؤكد ان مستوى الأداء لم يصل إلى مستوى الطموح الشعبى ، فما زالت الجمهرة الكبرى من الناس " تطم " بأن تعكس التنظيمات والممارسات والتشريعات ثقة فى أن هذا الشعب قد بلغ مرحلة نضج سياسى تسمح له بأن يمارس حقه فى اختيار من يمثلونه فى المجلس التشريعى إذ انه لمن المخجل حقا ان تبدأ التجربة النيابية فى مصر منذ عام ١٨٦٦ فى عهد الخديو إسماعيل ، ونصل إلى الأسابيع الأخيرة من عام ٢٠٠٠، ويظل هناك من يعكس وجهة نظر ما زالت تسود بأن ترك جماهير الناس حرة فى اختيار ممثليها يفتح الباب لقوى لا تريد الخير لهذا البلد!

لقد بلغ الناس من النضج درجة تمكنهم من أن يميزوا جيدا بين من يصلح لتمثيلهم ممن لا يصلح ، وإذا كان من المتوقع حدوث أوجه قصور ، وربما خسائر كبيرة فى إطلاق حرية الاختيار فإن هذه ضريبة لابد من دفع فاتورتها ، إن لم يكن اليوم فغدا ، ولقد سبق لكل الأمم المتقدمة الحالية التى تمارس حرية حقيقية فى اختيار ممثليها أن دفعت مبكرا ثمنا لهذه الحرية ، ومهما مرت السنون والأعوام واستمر النهج القائم على تأجيل رفع اليد عن حرية ممارسة حق الاختيار ، فلن يسقط هذا التأجيل الثمن الذى لابد من دفعه ، بل أنه يخضع لما تخضع له ديون البنوك من حيث تراكم الفوائد مما يعنى أن التأجيل يرفع فاتورة التضحيات المطلوبة ! .

الحرية لنا .. والسجن للآخرين *

هم أولئك الذين نشير إليهم دائما بازدواجية المعايير الذين درجنا على أن نحسبهم هناك فيما وراء البحر والمحيط فى أوروبا وأمريكا دون أن نتنبه إلى أننا لا نقل عنهم براعة ومهارة فى " تطفيف " الميزان الذى نكيل بـه ، وعلى الرغم مما يمكن أن يؤخذ على أوربا وأمريكا فى الكيل بمكيالين ، إلا أنهم ربما يملكون مبرر أنهم يفطون ذلك مع دول أخرى يرون تعارضا بينها فى المصالح والاستراتيجيات ، لكن ما القول فيما يحدث عندنا من معاملات تفرق وتميز بين فئات من المواطنين وتيارات من الفكر داخل الوطن الواحد .. مصر التى هى فوق الجميع؟

لقد ألح على فكرى هذا الأمر غداة ظهـور نتـائج انتخابـات نقابـة المحامين ، وكان قد ألح على خاطرى كذلك عقب ظهور نتائج الانتخابـات الأخيرة لمجلس الشعب حيث ترددت ساعتها فى التعبير عما جال فى فكرى نظرا لحساسية القضية وشك فى أن يعرف ما أكتبه طريقه إلى النشر . أمـا القضية فهى تلك الخاصة بالجماعة " المحظورة " .. الإخوان المسلمين !

صحيح أننى لم أنضم فى يوم من الأيام إليهم كتنظيم مما يعفينى مـن حرج الكتابة إلا أننى أعلم علم اليقين أن الاتهام جاهز لدى من يسهل عليهم التكفير السياسى وتصفية الحسابات.

إن تعامل أجهزة الإعلام معهم باعتبارهم أصحاب جماعة غير شرعية لهو أمر أصبح يثير السخرية حقا ويذكرنا بتلك السنوات التى ظللنا نقرن فيها دولة إسرائيل بوصف " المزعومة " ، وكان لسان حال البعض منا يتساءل : إذا كانت مزعومة فمن الذى هزمنا نحن العرب ؟ كما يذكرنا بسنوات أخرى ظللنا لا نعترف بالصين الكبرى ونسميها " الشيوعية " ونعترف فقـط بتلـك

---

* جريدة الوفد، ، ٢٩ مارس، ٢٠٠١

الدويلة التى انحصرت فى جزيرة فرموزا والتى كنا نسميها بالصين " الوطنية " .

إن المتعاملين بالشأن السياسى يعرفون ما أصبح مسلما ، نقول أنه لا عداء أبدى ولا صداقة أبدية فالعلاقات التى تحكمها المتغيرات والمصالح هى التى تجعل من هذا عدوا فترة من الزمن وهى التى يمكن أن تقلبه ليصبح صديقا بعد فترة والعكس صحيح ..

وهكذا أصبحت الولايات المتحدة وسائر الدول الغربية صديقة لألمانيا التى أذاقتهم أسوأ الويلات وكذلك مع ايطاليا ومع اليابان بل وكذلك فعلنا نحن مع إسرائيل .

إننى لا أستطيع أن أنسى كيف أن الكثرة الغالبة من قادة إسرائيل أقل ما يمكن أن يطلق عليهم من وجهة نظرنا أنهم قتلة سفاحون ومع ذلك هل نسينا " الصديق " بيجين وم ارتكبه من مذابح فى دير ياسين ؟ وهل نسينا أن باراك هو الذى خطط وقاد عملية النسف والقتل لقادة منظمة التحرير فى تونس ؟ وهل ... وهل ... ومع ذلك طوينا صفحة مجازر هؤلاء وصافحناهم وفتحنا لهم الأبواب ونبرر هذا وذاك بأن أصول السياسة تقتضى ذلك .

لكننا لا نريد أن ننسى أبدا ما يقل عن ذلك بكثير مع أناس اتهموا فى بعض قضايا العنف منذ أكثر من قرن فى فترة تاريخية كان الاغتيال السياسى فيها شائعا ، بل إن واحدا ممن تولوا رئاسة الجمهورية فى مصر " السادات " اتهم بالمشاركة فى قضايا اغتيالات ، ونظل نرفع الاتهام كلما ارتفع صوت يطالب بأن يسمح لهذا الفريق أن يمارس حرية التعبير عن فكره طالما كان ذلك ضمن قنوات مشروعة وبوسائل مشروعة بألا نفعل ذلك فهم إرهابيون وقتلة ، مستندين فى ذلك إلى ما كان يحدث منذ أكثر من خمسين سنة ورغم أن كل حوادث العنف التى طالت أبرياء ومصالح منذ

السبعينيات وحتى وقت قريب لم يثبت ولو مرة واحدة أن أحدا منهم كان ضالعا فى شئ من هذا ؟

إننا نرفع شعار التكثير من منظمات المجتمع المدنى ، لكننا ضقنا بكثير مما ظهر منها وسعينا إلى طلبها لبيت الطاعة ! كما نرفع شعار التعددية ، ونسمح بأحزاب لا وجود جماهيرى حقيقى لها ونستخدم " الفيتو " ضد هؤلاء.

فما من انتخابات كانت تجرى فى نوادى أعضاء هيئات التدريس بالجامعات إلا وكنا نرى قائمتهم هى التى تفوز على غيرها .. ولم نتحمل ذلك فلجأنا إلى هذه الحيلة وتلك حتى انحصرت تلك النوادى فى تلك الوظيفة التى تجعلها " كافيتريات " وفى أحسن الأحوال القيام برحلات وتقديم إسكان أحيانا بعدما كان لهذه النوادى صوت عال فى القضايا القومية وكانت المحاضرات التى ينظمها نادى جامعة القاهرة على سبيل المثال موضع حديث وكالات الأنباء، تحضرها جماهير غفيرة .

وداخل الجامعات عندما كانت تجرى انتخابات اتحاد الطلاب كانت قائمتهم أيضا تكتسح الآخرين فضقنا بهذا وأصبحت القوائم المرشحة لا تمارس الديمقراطية إلا من خلال أمن الدولة وصار هذا درسا مؤسفا لشباب المستقبل لكيفية الممارسة الديمقراطية .

وكانت النقابات هى الأهم فإذا بهم يفوزون أيضا فى النقابات الكبرى ، مثل نقابة الأطباء والمهندسين ولما وصلوا إلى نقابة المحامين حدث ما حدث مما هو معروف ، وبعد توقف عدة سنوات وعودة الانتخابات إذا بهم يحتلون أغلبية المقاعد !

أما انتخابات مجلس الشعب ، فما أن اتسع هامش الديمقراطية فى إجرائها حتى وجدناهم فى المرحلة الأولى يفوزون بدرجة واضحة ، ثم إذا بجهود تبذل فى المرحلة الثانية لتعويق تكرار النجاح والفوز ، أما المرحلة

الثالثة وخاصة فى القاهرة فقد كانت المسألة وخاصة بالنسبة لبعض الرموز وكأنها مسألة حياة أو موت ومع ذلك فازوا بعدد يساوى أكثر مما حصلت عليه الأحزاب الأخرى مجتمعة تلك التى لم يعرقل ترشيح مرشحيها أحد ، ترى : لو لم يحدث ما حدث من إعاقات بكم عدد كان يمكن أن ينجحوا ؟

إن أداء الأحزاب فى الانتخابات الأخيرة من المفروض أن يجعلنا نقوم بعملية مراجعة وتفكير جذرى يرى أن الديمقراطية الحقيقة لا تتأتى إلا من خلال تنظيمات حزبية حقيقية فى الشارع المصرى .

إن أسوأ ما يقوم به عدد من المثقفين إزاء هذه القضية هى العمل وفق شعار " الحرية لنا والسجن للآخرين " ، فالفئة المحظورة كثيرا ما تتهم بأن تفكيرها السياسى ليس على درجة كافية من النضج بحيث يمكن الاطمئنان لها فى الحياة السياسية ، وهو منطق عجيب حقا ، إذ كيف يمكن أن يتأتى نضج التفكير إذا لم تتح لهم فرصة الممارسة السياسية العملية ، والتى هى الطريق لاكتساب المهارة والتفكير الناضج !

حتى وسائل النشر التى بطبيعتها تحمل فكرا ولا تحمل بارودا وقنابل ما من مجلة أو صحيفة يسعون إلى أن تكون معبرة عن آرائهم إلا ويتم حجبها فأين يمكن أن يكتبوا ويعبروا عن رأيهم ؟ ولا أريد أن أشير إلى الإذاعة والتليفزيون فهما مغلقان عنهم تماما إلا ما ندر !

وأعجب ما نراه من هجوم عليهم أن أصحاب الرؤية الإسلامية لا يملكون حلة لا علمية للمشكلات والقضايا الكلية للمجتمع !

ألا يعلم من يقولون بهذا الاتهام أن منافذ النشر والإعلام لا تتيح لهم أن يعرضوا فكرهم ، فكيف يعرف الناس إن كانوا يملكون حلولاً أو لا يملكون ؟

لكن الدراسات الأكاديمية تكاد تكون فيضا يصعب حصره ، فضلا على الإشارة إليه وعيبها أن جمهورها قليل للغاية ليس مثل جمهور الصحف والمجلات والإذاعة والتليفزيون .

وتماديا فى السخرية منهم يستشهدون بذلك الشعار القائل : " الإسلام هو الحل " ، وأن هذا الشعار لا يقول شيئا . ولا أدرى أيضا هل عندما كان لطفى السيد يرفع شعار مصر للمصريين كان لابد أن يرفق به مرجعا كبيرا يحمل تفصيل رأى أصحاب هذا الاتجاه فى مختلف القضايا والمشكلات ؟ إن الشعار بطبيعته لابد أن يكون فى جملة مختزلة ، لكن تحته مئات الدراسات والبحوث التى تترجمه إلى مشاريع فكرية متعددة .

إننى أستطيع أن أسوق مثلا واحدا من المجال الذى أتخصص فيه أكاديميا ألا وهو العلوم التربوية ، فقد أحصى أحد الباحثين ما يقرب من خمسمائة من رسائل ماجستير ودكتوراه كلها فقط تناقش مختلف قضايا التربية والتعليم من المنظور الإسلامى مما لم يتوافر بالنسبة لأى اتجاه آخر ، علما بأن هذا العدد يخص مصر والسعودية فقط ! ومن المتوقع أن يكون هناك مثل هذا العدد فى جملة البلدان العربية الأخرى ، دون أن نذكر أيضا بعض البلدان الإسلامية التى يوجد فيها هذا التيار مثل إيران وباكستان .

وهناك فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية مدرسة كاملة كبيرة على رأسها د. نادية مصطفى ود. سيف عبد الفتاح قامت تقوم بدراسات متعمقة لتأسيس علوم سياسية من المنظور الإسلامى ، ونذكر كذلك بمركز صالح كامل بجامعة الأزهر فهو متخصص فى الدراسات الاقتصادية أيضا من المنظور الإسلامى .

وهناك ذلك الجهد الفكرى الكبير الذى قام به المعهد العالمى للفكر الإسلامى بواشنطن ومن خلال فروعه فى بعض البلدان العربية والإسلامية .

وبالإضافة إلى هذا وذاك هناك جهود فردية للعديد من المفكرين كان من أوائلها دراسة عبد القادر عودة عن التشريع الجنائى فى الإسلام ، ودراسات يوسف القرضاوى ومحمد سليم العوا ومحمد عمارة وطارق

البشرى وجمال الدين عطية وطه جابر العلوانى ، ومحمد كمال إمام، وغير هذا وذاك كثيرون يصعب حصرهم لكن

عين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبدى المساوئ!

لقد آن لهذه الحرب القائمة ضد هذا الفريق من الناس أن تضع أوزرها وينظر اليهم على اعتبار أنهم جزء لا يتجزأ من الجسم الاجتماعى استمرار الاعتلال فيه لابد أن ينعكس على صحة هذا الجسم العامة .. مواطنون مصريون يريدون أن تتاح لهم الفرصة أن يشاركوا فى بناء الوطن من خلال توجه يؤمنون به ويعتقدون فى صحته وليسوا " جربا " ينبغى الفرار منه ، ولنحتكم – مستقبلا – فى الحكم على ما يكتبون ويفعلون إلى جماهير الناس وإلى أحكام القانون ، حتى لا نكون من المطففين (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)) .

" الويلات " الأمريكية المتحدة ! *

أرجو ألا يتصور أحد أننا أخطأنا فى العنوان أعلاه ، فهذا توصيف مقصود ، وما سوف نشير إليه فى ثنايا المقال إنما هو " عينة " صغيرة للغاية تؤكد صدقه .

ونحن إذ نسوق بعض الوقائع على هذا الطريق ، نقدمها إلى كل من يقرأ الآن من تصريحات سواء تلك الصادرة عن أمريكا ، أو حلفائها الأوربيين ، أو " وكلائها " فى العالم العربى .. تصريحات عن حزنها العميق على مقتل رئيس لبنان الأسبق رفيق الحريرى "، لكنها لم تحزن أبدا على مقتل أحمد ياسين ، والدكتور الرنتيسى ، وعشرات من زعماء حركة المقاومة الفلسطينية " ، وحرصها على " استقلال " لبنان " عن سوريا ، لكن لا مانع من أن ترهن إرادة لبنان لأمريكا نفسها وحلفائها " وما سار على هذا الدرب من خطوات لا يخطئ أحد فى تشابهها مع ما حدث من قبل للعراق .

إن هذه الوقائع تؤكد ما كان عليه الزعم الأمريكى بالنسبة للعراق من زيف ، وبالتالى ، فلم نكرر أخطاءنا تجاه سوريا ونصدق على الفور كل ما يصدر ضدها الآن ، ونطالبها بالامتثال لما يسمى ب " الشرعية الدولية " التى تم ، ويتم ، كل ما حدث للعراق تحت مظلتها، ويتم تجاهلها تماما إزاء إسرائيل ؟

فلقد أعلن المحقق القضائى الأمريكى المستقل " باتريك فيتزجيرالد " توجيه ثلاث تهم جنائية بحق " لويس ليبى " الشهير بـ " سكوتر " والذى يحمل ثلاثة ألقاب رفيعة فى إدارة بوش ، على رأسها مدير مكتب نائب الرئيس " ديك تشينى " ومستشاره لشئون الأمن القومى ، وكذلك مساعد

---

* جريدة الوفد ، ١٥ نوفمبر، ٢٠٠٥

للرئيس الأمريكى ، ووصف المعلقون الأمريكيون ليبى بأنه أقـوى مـساعد لأقوى نائب رئيس أمريكى فى التاريخ الحديث !

ومحور الاتهامات يدور حول تزييف معلومات حول العراق لتصويره ممتلكا لأسلحة دمار شامل ، وتعاونه مع تنظيم القاعدة ، مما كان سببا فـى شن الحرب التى جرت وراءها ما جرته من أهوال ما زال مسلسلها مستمرا حتى الآن ! والمعلومة الرئيسية التى زيفت هى قيام سفير أمريكى فى نهاية مايو ٢٠٠٢ بالسفر إلى دولة النيجر للتأكد من معلومات زعمت شراء العراق منها ما يعزز برنامجه النووى ، وتأكد أن هذه المعلومات مزيفة ، ووصـل تقريره للإدارة الأمريكية ومع ذلك فقد غضت النظر عنها ، حتى يتم الغزو ، وتصدر قرارات من مجلس الأمن باسم الشرعية الدولية !! وشارك زعمـاء عرب فى الترويج لهذه الشرعية !

وقد أدى هذا إلى أن يعقد مجلس الشيوخ الأمريكى جلسة سرية مفاجئة فى أول نوفمبر الماضى ، وذلك بناء علـى طلـب عـدد مـن الأعـضاء الديمقراطيين لبحث ملف الحرب فى العراق بـصفة خاصـة ، واحتمـالات تلاعب الإدارة الأمريكية بمعلومات أجهزة المخابرات لتبرير غزوه عسكريا تحت ذريعة حيازته أسلحة دمار شامل !!

وإذا كانت أمريكا قد سعت لتخليص أفغانستان من نظام ينتمـى إلـى العصور الوسطى ، فها هى إحدى قنوات التليفزيون الاسترالى تبشرنا بالبديل العصرى الأمريكى بإذاعة فيلم تم تصويره فى منطقة خارج قرية " جونباز " القريبة من مدينة قندهار ، يظهر فيه خمسة جنود أمريكيين يقفون على حافة مكان صخرى ويراقبون جثتين أفغانيتين أحرقوهما ، وهو ما يخالف اتفاقية جنيف حول معاملة جنود العدو " لكن هذا – فى عرفهم – لا يعتبـر خرقـا للشرعية الدولية ! ".

وفى تقرير نشرته صحيفة الواشنطن بوست جاء أن " الويلات " المتحدة أقامت مراكز اعتقال سرية فى أنحاء مختلفة من معالم لاحتجاز المشتبه بضلوعهم فى الإرهاب ، وعلق الرئيس الأمريكى الأسبق كارتر على هذا بأنه خلال السنوات الخمس الماضية حدث تغير كبير وهائل فى السياسات الأساسية والقيم الأخلاقية فى الولايات المتحدة ! ومن هنا فقد أعلن المتحدث باسم المفوضية الأوربية فى ١١/٨ أن مجلس أوروبا فتح تحقيقا بشأن تقارير عن وجود مراكز اعتقال سرية للمخابرات المركزية الأمريكية فى رومانيا وبولندا ، حيث يتيح لها هذا ممارسة أقصى وسائل التعذيب ، مما لا يمكن ممارسته لو تمت التحقيقات على أرض أمريكا نفسها ! .

وفى السياق ذاته ، ذكر مسئول بارز بوزارة الخارجية الأمريكية أن موظفى ديك تشينى نائب الرئيس بوش كانوا مسئولين عن إصدار تعليمات أدت إلى قيام جنود أمريكيين بإساءة معاملة معتقلين بالعراق وأفغانستان ، وصرح لورانس ويلكرسون مدير مكتب وزير الخارجية السابق " باول " لمحطة إذاعية بأنه عثر على أوامر مكتوبة تسمح بممارسات بحق المعتقلين صدرت عن مكتب تشينى ومكتب وزير الدفاع ، وأكد ويلكرسون أن تلك الأوامر قادت إلى فضائح التعذيب بسجن أبو غريب .

وذكرت مجلة نيويوركر فى السادس من نوفمبر أن السياسة الأمريكية المعتمدة حول استجواب سجناء يشتبه بأنهم إرهابيون تؤدى إلى توفير " تغطية " شرعية لما تقوم به عناصر وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى حالات التعذيب ، وحتى فى حالات وفاة حدثت لمعتقلين ، بل لقد أشارت المجلة إلى حالات وفاة أربعة سجناء ، ولكن الحكومة لم تلاحق أى موظف لأن القواعد المتبعة فى ظل إدارة بوش تمنح محققى الوكالة حرية تصرف كبيرة وكانت النيويوركر هى أول من كشف من قبل فضيحة ما حدث فى سجن أبو غريب العراقى .

وآخر هذه الوقائع ما كشفت عنه وسائل الإعلام الإيطالية فى الثامن من نوفمبر من أن القوات الأمريكية فى العراق استخدمت الفوسفور الأبيض القابل للاشتعال ضد المدنيين وقنابل حارقة شبيهة بالنابالم ضد أهداف عسكرية وأظهر فيلم وثائقى عرضته محطة تليفزيون " راى" التى تديرها الحكومة الإيطالية تحت عنوان " الفلوجة " ، المذبحة الخفية ، صورا لجثث انتشلت بعد هجوم شنته القوات الأمريكية فى نوفمبر ٢٠٠٤ فى الفلوجة ، وأشار الفيلم إلى أن الجثث تثبت استخدام الفوسفور ضد الرجال والنساء والأطفال الذين احترقت أجسادهم ولم يبق إلا العظم واعترف جندى فى الفرقة الأمريكية الأولى مشاة شارك فى الهجوم بأن الفوسفور الأبيض قد تم استخدامه ضد المدنيين .

تلك عينة لما تسعى " الويلات " الأمريكية إلى ترويجه من تحرير وديمقراطية فى أفغانستان والعراق ، فهل ما زال " الوكلاء" من " الحكام " و " الكتاب المارينز -"يرددون نفس المقولات الأمريكية فيديرون ظهورهم لسوريا ، ويلحون على دمشق بالامتثال للشرعية الدولية بناء على ما يروج من معلومات مزعومة وادعاءات مكررة ؟

متى يبلغ الشعب المصرى سن الرشد ؟*

على المستوى الفردى ، يبلغ الإنسان سن الرشد عندما يبلغ من العمر سن الحادية والعشرين ، إلا إذا كان مصاباً بنقص ملحوظ فى قواه العقلية واضطراب ظاهر فى تكوينه النفسى . أما على مستوى الشعوب ، فليس هناك عدد محدد من السنوات يمكن عندها أن نقول إن هذا الشعب أو ذاك قد بلغ سن الرشد ، وإنما هو بمقدار ما يمارسه الشعب من إرادة وطنية لتصريف أموره وسياستها بنهج يتسم بالحكمة والتعقل ينعكس على ما يحرزه الوطن من صور توفيق ونجاح ، وما يعمل به من قبل الدول الأخرى من تحسب واحترام وتقدير .

ومن المحزن حقاً أن يكون الشعب المصرى من أقدم شعوب العالم ، ومع ذلك فكل المؤشرات تبين أن قيادته على مر العقود الماضية تنظر إليه باعتباره قاصر التفكير ، لا يستطيع أن يدرك أين تكمن مصلحته ، وأن أفراده مهما كبروا فى السن ، ومهما مروا به من خبرات ، ومهما حصلوا من معرفة ، ومهما أنجزوا من أعمال ، فهم " أطفال " يحتاجون إلى من يفكر عنهم ، أو هم " مغفلون " لابد لهم من " وصى " تكون مهمته أن يصرف أمورهم نيابة عنهم.

ولعل أبرز الملامح المفسرة لهذا أنه لم يحدث فى تاريخ مصر أن اختار شعبها حكامه من الملوك والرؤساء والأمراء ، باستثناء مرة وحيدة فى التاريخ المصرى عندما اختار " علماء الأزهر " باعتبارهم كانوا يمثلون النخبة المثقفة فى ذلك الوقت ، محمد على والياً على البلاد ، ومع ذلك فقد استطاع هذا الوالى أن " يلعب " اللعبة الشيطانية المعروفة فغمر البعض من المثقفين ممن لمس لديهم قدرا معقولا من الميل إلى " المسايرة " بذهب المعز

---

* جريدة الوفد ، ٢٩ نوفمبر، ٢٠٠٥

، حتى تمكن من محاصرة ذلك الزعيم " عمر مكرم " الذى استمر على نهج " المغايرة " ولم يغره ذهب المعز ، فكان أن سلط عليه " سيفه " وسار هذا نهجاً وسياسة حتى كتابة هذه السطور ، حيث يتقدم " مثقفون " ليقفوا ببابب السلطان يبررون له ويزينون وينهالون كلاباً مسعورة على كل من " يغاير " فى الرأى والنهج !

ومن أشد الأمور دفعاً للأسى حقاً أن تكون مصر هى أقدم دولة فى بلدان أسيا وأفريقيا تعرف الطريق إلى الحياة النيابية فى عهد الخديو إسماعيل بإقامة " مجلس للنواب " سنة ١٨٦٦ ، ومع ذلك ، وحتى الآن فى التحضير لبرلمان ٢٠٠٥ أى مدة " ١١٩ " عاماً يبرهن النظام الحاكم على استمرار النظر إلى الشعب المصرى باعتباره مجموعة من الناس قاصرى التفكير ، لم يبلغوا بعد سن الرشد ، مما يوجب أن يكون هو وعملاؤه هم الذين يتولون التفكير عنهم .

وإذا حاول أفراد هذا الشعب أن يتصرفوا باعتبارهم أصحاب أهلية للتفكير وحسن التصرف ، سلط عليهم كل وسائله المعروفة من السجن والاعتقال وتلفيق التهم والضرب والمطاردة ، فإذا وجد أن عيون العالم أصبحت اليوم " مفتوحة " والأذان متطلعة إلى السماع ، عبر الفضائيات التجأ – عن طريق عملائه وأذنابه – إلى التظاهر بأن قوات أمنه تقف على الحياد ، واستعاض عنهم بفرق من البلطجية الذين يجزل لهم العطاء ، خاصة فى بلد يعانى فيه ملايين من بطالة خانقة ، تدفع الكثيرين إلى البحث عن أى سبيل للحصول على لقمة العيش الضرورية لاستمرار الحياة .

وعندما كان الدكتور نعمان جمعه يتحدث منذ أيام مع المذيع الشهير أحمد منصور ، كان الحديث مدمياً للقلب حقاً ، ففضلاً عما كان قد حدث للمذيع نفسه من ضرب قبل إذاعة البرنامج الخاص بالممارسة الديمقراطية من خلال الانتخابات ، فقد تساءل السياسى الكبير عن فقدان الأحزاب القائمة

لكل ما يمكنها من ممارسة حقها فى خوض الانتخابات فى ظل ظروف موضوعية تقف كلها فى صالح طرف واحد هو الطرف الحاكم ، فالحزب المنافس هو حزب الحكومة ، وهناك توحد كامل بين هذا الحزب وبين الدولة ، فهل كان الدكتور نعمان ، مثلا ، أو غيره من زعماء الأحزاب الأخرى ، يملك أن يعد أهالى محافظة كاملة مثل محافظة بنى سويف بدخول الغاز الطبيعى إلى منازلهم ومحلاتهم ومكاتبهم ؟ إنها سلطة الحاكم وحده ! هل كان الدكتور نعمان ، أو غيره من زعماء الأحزاب يملك أن يهب عشرات الشقق السكنية والأراضى لهذا وذاك من الأنصار " رشوة انتخابية " كما فعل وزراء حاليون ؟ ومن أين لزعيم الوفد ، أو غيره من زعماء الأحزاب ، بعشرات الملايين من الجنيهات توزع بسفه على الأنصار والأعوان لشراء لا نقول صوتهم بل لشراء عقولهم ؟!

وفضلاً عن هذا وذاك ، فكل المحافظين هم أعضاء فى حزب الحكومة ، وكذلك جميع القيادات الإدارية فى المحافظات والمراكز والبنادر . وما بالك بعشرات الألوف من الجنود المدججين بالأسلحة والهروات وأجهزة التنصت والضرب لا تصدر لها الأوامر إلى من قيادات حزب الحكومة ؟ فأى انتخابات ؟ وأى حرية اختيار ؟ وأى أمل ؟

ألا إن ما حدث وما زال يحدث إنما هو محصلة طبيعية لتصور حكامنا لنا ، فكما يؤكد زملاؤنا من علماء النفس أن " مفهوم الذات " ، وكذلك مفهومنا عن " الآخر " هو الذى يوجه تفكيرنا ويسير تصرفاتنا . ومن الواضح أن مفهوم حكامنا عن ذواتهم أنهم وهبوا من القدرة على التفكير والسياسة والإدراك ما لا يمكن أن يتأتى لأحد من المصريين ، ومن ثم فمهما مرت السنون والأعوام يصبح حقاً لهم أن ينفردوا ويستمروا فى التسلط والحكم .

ومن الواضح أن مفهوم حكامنا عنا، نحن عموم الناس ، أننا " مغفلون " يمكن أن يوهمونا بأن العصا إنما هى ثعبان ، وأن قطعة الطين إنما هـــى قطعة لحم ، وأن عواء الذئب إنما هو نباح كلب .. ومن الواضح أن صورة الشعب فى ذهن حكامه أنه طفل ، إن كان قد كبر فى جسمه ، فهـــو مجمـــد النمو العقلى ، لابد من استمرار الحجر عليه بحكم المحكمة " المـــصنوعة " من قبلهم، والمسماة " مجلس الشعب " .. ترى من يستطيع أن يثبت عكـــس هذه التصورات والمفاهيم ؟ وهل يملك القدرة على ذلك ؟ وإن لم يكن الآن .. فمتى بالله وقد انتظرنا مائة وتسعة عشر عاما ؟!

قراءة فى المشهد اللبنانى*

معظمنا قد يتذكر كيف وقف " دوفيلبان " عندما كان وزيراً لخارجية فرنسا ، فى مجلس الأمن ، عندما كانت الولايات المتحدة ، وفى ذيلها بريطانيا ، تسعى لاستصدار قرار يتيح لها فى أواخر عام ٢٠٠٢ شن الحرب على العراق ، لقد تحول إلى عربى ، حيث كان يتحدث بحرارة فاقت حرارة الدول العربية انتقادا للمخطط الأمريكى ، وكذلك مطالبته بعالم متعدد الأقطاب ورفض ما سمى بالحرب الاستباقية ، تلك السياسة التى يتبناها " المحافظون الجدد " فى الولايات المتحدة ، حتى يغيروا النظم المتمردة عليها من الخارج .

لقد راحت عواطفنا تصور لنا أن فرنسا وكأنها تفتح لنا أبواب الأمل فى أن نجد قوة كبرى " أخرى " تستطيع أن تقف فى وجه " البلدوزر الأمريكى " ، لكن يبدو أننا تركنا أنفسنا ننساق وراء سذاجة سياسية ، وتفكير طفولى ناسين أن السياسة الدولية لا تسير بالعواطف ، ولا بالأخلاق بالمعنى الشائع لدينا ، وحكايات الشهامة والمروءة .

ساعتها راح " رامسفيلد " يسخر من الموقف الفرنسى ، وكذلك من ألمانيا التى كانت تبدى تقاربا مع الموقف الفرنسى ، حيث كان جيرهارد شرودر مستشاراً لألمانيا ، وأطلق تعبيره الشهير " أوربا القديمة " ، فى مقابل " أوربا الجديدة " .

لكن الأحداث التالية برهنت على أن فرنسا غير قادرة على مواجهة البلدوزر الأمريكى ، بل إنها انتهزت فرصة علاقتها الخاصة مع لبنان لتنفذ من خلاله ، أو قل بصراحة ، على أكتافه ، إلى المظلة الأمريكية حتى لا

---

* جريدة الوفد ، ١٦ أبريل، ٢٠٠٦

يفوتها نصيبها من كعكة الشرق الأوسط ، بعد أن تم لأمريكا ما أرادت وغزت العراق على الرغم من " الوحل " الذى غرقت فيه هناك .

فوفق مقال نشرته جريدة الـ " واشنطن بوست " لديفيد اغناتيوس ، فقد ذهب " موريس غوردو مونتانييه " المبعوث الفرنسى الخاص للرئيس الفرنسى شيراك ، فى زيارة سرية إلى دمشق فى نوفمبر عام ٢٠٠٣ ، يحمل رسالة تعبر عن رأى الرئيس الفرنسى والمستشار الألمانى ، إلى بشار الأسد ، تلفت نظر الرئيس السورى إلى أن الحرب على العراق قد غيرت خريطة الموقف فى الشرق الأوسط ، وأن على سوريا بالتالى أن تتخذ خطوات مهمة تظهر بها رغبتها المؤكدة التى تعبر عن استيعابها للدرس بأن تتخذ خطوات تظهر بها التقرب إلى إسرائيل !

إن فرنسا تعلم علم اليقين مدى الغرام الأمريكى بإسرائيل ، وأنها الطريق إلى قلب أمريكا والعودة إلى أحضانها ، لكن رد الفعل السورى كن مخيبا لآمال فرنسا .

هنا تجمعت عوامل أخرى لتقرب فرنسا من أمريكا مرة أخرى عن طريق لبنان ..

فمن المعروف أنه قد كانت هناك علاقة شخصية وثيقة بين الرئيس الفرنسى شيراك ، والراحل رفيق الحريرى ، منذ أن كان الأول عمدة لباريس .

ودوى الانفجار الشهير فى الرابع عشر من فبراير عام ٢٠٠٥ بموكب الحريرى ، حيث قتل ومرافقوه ، وبدأت الأرض اللبنانية تتزلزل تحت أقدام سوريا التى كانت تحتفظ بقوات كثيرة عليها ، فضلاً عن نفوذ شهير إلى درجة السيطرة والتوجيه ، وأحيانا الأمر والقهر .

ووجدت إسرائيل الفرصة ذهبية كى تمضى قدماً فى تضييق الخناق على سوريا ، لا كراهية فى سوريا ، فهى لا تشكل خطراً حقيقياً عليها ،

وإنما سعياً للتخلص من شوكة حزب الله الذى يعتمد اعتماداً رئيسياً على سوريا .

كانت سوريا مع الأسف الشديد قد ارتكبت خطأ استراتيجياً مؤسفاً بقيادة الأمور كرهاً للتجديد للرئيس اللبنانى إميل لحود ، ووصل الأمر إلى تهديد المعارضيين ، وعلى رأسهم رفيق الحريرى نفسه ، مما سهل لكثيرين أن يوجهوا أصابع الاتهام لسوريا بأنها وراء مقتل الحريرى .

ونجحت الجهود الإسرائيلية التى التقت مع الجهود الفرنسية والمصالح الأمريكية فى استصدار القرار الشهير ١٥٥٩ الذى طالب سوريا بإجلاء قواتها عن لبنان ، وقد تم هذا بالفعل .

كان هناك بند آخر فى القرار صيغ بطريقة غامضة ، حيث أشار إلى ضرورة نزع سلاح " الميليشيات " القائمة بالأراضى اللبنانية ، وكان المقصود بها " حزب الله والفلسطينيون".

فى البداية ، لم يقل أحد إن حزب الله هو مما ينطبق عليه وصف " الميليشيا " ، بل وأكد كثيرون أن سلاح المقاومة " شأن لبنانى داخلى " يحل بالتحاور بين اللبنانيين أنفسهم ، حيث كان هناك إعداد لانتخابات برلمانية ، مراد منها أن تأتى بأكثرية تحت مظلة تيار الحريرى ، والحاجة ماسة إلى مؤازرة حزب الله فى هذه المرحلة .

وتم لهم ما أرادوا وخططوا له . لكن ، مع التراجع المستمر للموقف العربى ، والتعزيزات المستمرة التى يتلقاها الجانب الآخر على الأرض اللبنانية ، بدأ الحديث يدور همساً حول نزع سلاح المقاومة .. ثم إذا بما كان مهموساً به ، يظهر فى المحافل وعبر الميكروفونات وعلى شاشات التلفاز ، وكان رأس الحربة هنا ، زعيم ما يسمى باللقاء الديمقراطى وليد جنبلاط ، الذى ما زالت أذناى تذكر تصريحات سابقة له ، قبل الانتخابات أكد فيها أن حزب الله ليس ميليشيا !

طوال الوقت يطلق جنبلاط تصريحاته النارية ضد حزب الله وزعيمه حسن نصر الله مثيراً الاتهامات بما يحاول أن يصوره بحلف يمتد من حزب الله إلى دمشق ، فإيران ، وأن هذا الحلف خطر على لبنان ، ويسعى إلى الهيمنة والسيطرة ورهن لبنان لمصالح وليس لمصلحة اللبنانيين أنفسهم ، وارتفع شعار (لبنان أولاً) ، وهو الشعار الذى لا يمكن لأحد أن يعارضه ، لكن المسألة هى : أين تكمن المصلحة اللبنانية ؟

إن المشهد اللبنانى قد عودنا ألا يكون لبنان أولاً فى واقع الأمر .. فدائماً هناك لبنان أولاً فى واقع الأمر .. ودائماً هناك قوى خارجية تحرك الأمور والأشخاص نحو مصلحتها هى ، ويتحول عدد من الزعماء اللبنانيين بكل أسف إلى " دمى " تتحرك فى اتجاه تلك القوة أو تلك.

وتمضى الأمور بزخمها وتدافعها لتقذف بالكرة اللبنانية بعيداً عن الملعب العربى ، فى ظل حالة الموات العربى المعروفة ، وعندما يتحرك البعض ، مثل السعودية ومصر وأمين الجامعة العربية عمرو موسى ، تفاجأ بعمق المأساة ، أن يفزع زعماء لبنانيون مبدين الخشية مما يسمونه" تدخلاً " عربياً ، ولا يخجل هؤلاء ، والسفير الأمريكى دائم المرور عليهم فى بيوتهم ومحالفهم ، وكذلك السفير الفرنسى ، يفسر ، ويدبر ، ويوجه بطريق مباشر أو غير مباشر ، ومن ورائهما إسرائيل !

متى نحرر مصر " المأسورة " ؟!*

تعودنا قروناً عدة أن نسمى مصرنا الحبيبة بـ " مصر المحروسة "، حيث يجئ إليها الغزاة والمحتلون يشنون عليها الغارات والحروب ، لكنهم يذهبون ويفنون ، وتبقى مصر بنيلها وشعبها وتاريخها التليد شامخة ، أبية على الاندثار والفناء ، عزيزة على الذوبان فى حضارات غزاتها ، فكأن الله عز وجل " يحرسها " دائماً من أعدائها ويبقيها للدنيا ولأهلها وللتاريخ شامخة أبية !

لكنها منذ عدة عقود تبدو لنا غير محروسة ، وإنما " مأسورة " ...

لا يكون مصاب الأمة فقط واقعاً عندما تحتلها جيوش أجنبية ، ولا عندما تغزوها قوى باغية ، وإنما قد يكون المصاب أشد عندما يجئ الغزو من الداخل ، وعندما يجئ الهجوم من بين الضلوع ، ألم يقل نابليون : اللهم احمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم ؟ فماذا عندما يجئ المصاب من بنى جلدتك ؟

أرنو ببصرى ، وقد آذنت الجامعات أن تستقبل مئات الألوف من شباب مصر ، إلى أبواب هذه الجامعات وقد حوصرت بالسيارات المصفحة وجنود الأمن المركزى مدججين بالسلاح ، على رؤوسهم الخوذات وفى أيديهم الهراوات ، وضباط من مختلف الرتب ، فأتساءل : من أجل ماذا يتم هذا الحشد الكبير ؟ لقد قالوا " إن جيش مصر لا يحارب خارجها من أجل أحد " ، ونتاسوا أنه حارب عام ١٩٩٠ ليس من أجل مصر ، فهل تفرغ جند مصر البواسل ليحاربوا داخلها هؤلاء الشباب الذين هم زهرة هذه الأمة ؟

وماذا ينطبع فى عقول وقلوب مئات الألوف من شباب مصر وهم يرون يومياً أنهم محاصرون بهذه الجنود تتربص بمن تسول له نفسه أن يرفع

---

* جريدة الوفد ، ١٢ سبتمبر، ٢٠٠٦

صوته مطالباً بحق ، وأن ينشد حرية ، وأن يؤازر شقيقا آخر يقتل وتدمر بيوته ؟

لأول مرة أشعر بأن من سوء حظى أن أكون أستاذاً فى أصول التربية ، فأرى كما مفزعاً مخيفاً من الآثار المدمرة على بناء الشخصية لهذه الآلف من شباب مصر الذين سوف يقودونها فى مختلف مجالات الخدمة والإنتاج بعد سنوات قليلة ، فأرى أى مستقبل أسود تواجهه مصر منذ عدة عقود !

وتطالع عيناى صباح كل يوم – أكرر : كل يوم –صفحات الحوادث فى كل الصحف اليومية ، فأجد دائماً قتلى وجرحى ، إن لم تكن من تصادمات بين القطارات ، فهى تصادمات على الأسفلت على معظم الطرق ، أو لسفن تغرق وتغوص فى أعماق البحار ، أو طائرة تسقط بالقرب من شواطئ أمريكا ، اعتمادا على أننا ننسى بسرعة ، واتساءل : كم يبلغ عدد القتلى سنوياً من أبناء هذا البلد المنكوب ؟ وماذا يكون لو كان هناك قتال بيننا وبين دولة أخرى ؟ تستطيع هنا أن تعيد تذكر هذا التصريح العظيم بأن مصر لا ترسل جيشها محارباً خارج أراضيها ، ذلك لأن الخسائر المتوقعة حاصلة بالفعل ، فهناك قتلى وجرحى كل يوم .. لأن هناك ما يشبه الحرب على أرض مصر ، تسيل الدماء على شوارعها أو قضبان سكك حديدها أو يغوص فى مياه البحار والمحيطات ، أو تتطاير الأشلاء فى الأجواء ، حيث تحملها الرياح أينما تشاء !

تجئ مواسم التعيين فى وزارات ومصالح ومؤسسات ، فترى القاعدة معكوسة : الشريف ، نظيف اليد ، المحبوب ، صاحب الرأى المستقل الذى لا ينصاع ، غير الحريص على المنصب ، عفيف اللسان .. إلى غير هذا وذاك من نبيل الصفات ، بينه وبين الكراسى العالية سداً ، لا يخترقه إلا من يحملون عكس هذه الصفات ، باستثناء بعض المواقع التى لابد فيها من الأدمية ، حتى أنك عندما تقرأ عن فلان قد أصبح ذا كرسى عال ، توقعت

أن يكون غير جدير بالموقع ، فهذه قاعدة من قواعد الحكم والإدارة فى مصر المأسورة.

فى مستهل عام دراسى سابق ، أخبرنا زميل من الزملاء عن تعيين " واحدة " من الأساتذة فى منصب كبير ، فتساءل خبيث ممن يعلمون واقع الحال فى مصر : زوجة من هذه السيدة ؟ ذلك لأنه يعلم علم اليقين أن التعيين هنا لا يكون بالجدارة ، ولا بالأقدمية ، ولكنه بـ " العلاقة " الشخصية ، والقرب من ذوى السلطان ، وبالفعل أجاب أحد العليمين بالأسرار : إنها زوجة .. وعرفنا ساعتها معيار الاختيار !

لابد عند ذلك أن تدرك : كم من المواقع يقودها غير الجديرين بها ، والعكس كذلك : كم من عقول رائعة ، وكفاءات نادرة ، وشخصيات مثالية ، تراها مهملة ، ملقى بها فى عرض الطريق ، فتعرف أى مصاب نعيشه ، وإلى أى مصير مجهول نسير إليه ، لا مغمضى العيون وإنما مفتوحيها حتى تسحق أعصابنا ألماً وتتمزق قلوبنا كمداً !

حتى التفكير .. الذى يعبر عنه بالقلم من خلال مقالات تكتب ، أو أحاديث تلقى على شاشات التلفاز ، أو عبر موجات الأثير فى الإذاعة ، تفتش بينها فتجد أن عدداً غير قليل منها هو فى قائمة المقربين ، وأن عدداً قد لا يقل عنها كفاءة وقدرة ، هم من المغضوب عليهم ، الملقى بهم فى غيابات " الجب " دون أن يكون لديهم أمل فى أن يلتقطهم بعض السيارة مثلما حدث ليوسف عليه السلام ، عندما ألقى به إخوته فى غيابات الجب فالتقطه بعض السيارة ! أما فى مجالات الاقتصاد ، فهذا يحتاج إلى أكثر من مقال ، ويكفى أن أحيلك إلى كتاب خطير بالفعل للدكتور أحمد السيد النجار عن الحال الكارثى لهذا العصب الحيوى لكل مجتمع ، فى ربع القرن الماضى لتعرف حجم الكارثة !

أقول الحق ، إن مشاعر الضيق والغضب عندى لم تعد موجهة إلى كل من تسبب فى هذا من قيادات هذا البلد المنكوب وحدهم ، وإنما أجد تحولاً لها تدريجياً نحونا نحن .. نحن أصحاب المصلحة العليا .. نحن أكبر المتضررين .. نحن المصريين ، حيث اكتفينا ب ذرف الدموع والنواح ولطم الخدود !

هل أدعو بذلك إلى " ثورة " ؟ كلا ، فصحيحة بالفعل هذه القاعدة التى تقول بأن العنف يجئ بالعنف ، وإنما لابد من تحرك ما ، لا يقتصر على فئة دون أخرى ، ولا يملك سلاحاً ، ولا يسيل دماً ، حتى ولو اقتصر الأمر على مجرد الخروج الجماعى إلى الشوارع .. إن مصر يا بنى مصر مأســورة ، فمتى نحررها ؟!

حرية النباح*

إذا كان هذا العنوان هو نفس العنوان الذى صدرت به مقالا لى منذ ثمانية عشر عاما على صفحات جريدة الشعب " الموءودة " فماذا يعنى هذا ؟ لأول وهلة قد يكون الجواب السريع هو أن الكاتب لابد أن يعانى إفلاساً فكريا ، فلا يملك الجديد الذى يكتب فيه للقراء ، فيستعين بما كان قد كتبه من قبل . لكن ، ألم يكن باستطاعتى ألا أشير إلى سبق استخدامى هذا العنوان ، اعتمادا على أن زمنا طويلا قد مر على استخدامه لأول مرة ، وقراء اليوم هم غير قراء الأمس ، فضلا عن ضعف ذاكرة ، نتهم كثيرا بـه ؟! عندما تطلب من ابنك أو تلميذك أو العامل الذى يعمل معك ، أو أى إنسان آخر طلباً ما، ولا يبادر إلى فعله ، فماذا يكون رد فعلك ؟

رد الفعل الشائع أن تكرر الطلب .. لكنه إذا بادر وفعل ما طلبت ، فلن تكرره مرة أخرى وسوف تفكر ، فى وقت آخر ، فى التوجه إلى أمر مختلف . وهذا هو تفسير التكرار .. نقول ما نقول نقداً لأمر ، وتنبيها على قضية ، وبيانا لأوجه خلل .. وتصويبا لمسار .. لكن لا حياة لمن تنادى ! ليست الحرية أن تقول ما تريد ، ولكنها مسئولية من يقول ، بكل ما تحمله هذه المسئولية من معان ، كأن تعتمد على الحجة المنطقية والأدلة العقلية والبيانات الصادقة ، والتعبير المهذب ، والبعد عن المآرب الشخصية ، والرغبة فى الانتقام والتشهير .

ثم لا يقف الأمر عن هذا الحد ، فهناك مسئولية يتحملها الشخص أو الجهة التى يوجه إليها الكلام ، بأن يكون لكلامك " صدى " عملى أو قولى . بطبيعة الحال ، لا نتوقع من السلطة التنفيذية أن تهب بالاستجابة لكل من يكتب فى كل أمر ، فهذا أمر بعيد عن التصور .. ولكن الأمر يتوقف على

---

* جريدة الوفد ، ١٩ سبتمبر، ٢٠٠٦

كثير من المتغيرات ، مثل مكانة الكاتب ، ومكانة أداة النشر والإذاعة ومدى قوة الحجج المقدمة ، والبيانات المعتمد عليها ، ومشركة آخرين فى المطلب نفسه .

افرض إنك كتبت عما آل إليه القطاع الخاص فى التعليم من توحش ، انحرافا بالفلسفة الليبرالية إلى الاستغلال . هنا نتوقع أن يكون هناك إجراء ما على أرض الواقع يتخذ ، فإذا لم يكن فإن أضعف الإيمان أن تسمع أو تقرأ من يناقشك الرأى ، والحجة بالحجة ، ممن هم مختصون بالقضية ، لكن ماذا يكون شعورك إذا لم تجد هذا ولا ذاك ؟ النتيجة المتوقعة هى الشعور بالإحباط ، وربما " تنسد نفسك " ، فلا تجد بنفسك رغبة فى الكلام والكتابة ، ربما لبعض الوقت ، وربما طول الوقت ، وتلك هى الكارثة بعينها . وبطبيعة الحال ، لا تتحقق هذه النتيجة بسبب موقف واحد ، لكنها تحدث عندما يتكرر الموقف ، وهو الأمر الذى كثيرا ما حدث لى ، فى فترات مختلفة فأجد بنفسى صدودا عن الكتابة ، وأعلن أن قلمى قد أصيب بالسكتة الكتابية !!

لكن حكمة الله وفضله وكرمه تقضى بأن أشفى بعد وقت من مثل هذا الحال من الإحباط، فأعاود الكتابة ، على الرغم من توقعى بأن أثرها ، فى معظم الأحيان ، سيكون كأثر خدوش تحدثها على سطح ماء ! وربما يكون مفيدا أن أسوق أمثلة من هذا المجال الذى هو تخصصنا المهنى والعلمى .

فلقد تباينت طرق وزراء التربية مع ما أكتب طوال السنوات الماضية .. فالراحل منصور حسين ، فى أواسط الثمانينيات كان يتصل بعميد الكلية ويطلب منه البحث عن طريقة لكفى عن نقد سياسته ، وكان رد العميد : إن صاحبنا – كاتب هذه السطور – معتزل تماما لأى موقع تنفيذى أو حتى أى لجنة وصك تشبيها التصق بى منذ ذلك الحين : إنه يجلس على الرصيف ، فبماذا أهدده ؟

أما الدكتور فتحى سرور ، فى أواخر الثمانينات ، فكان كثيرا ما يتصل بى تليفونيا ويناقشنى فيما كتبت ، لكنه فى معظم الأحوال يصر على ما فعل وما قال؟ وطوال فترة توزر الدكتور حسين بهاء الدين كان لا يغفل أبداً عن أى سطر يكتب متصلا به ، لكن أساليبه فى رد الفعل كانت لا تختلف كثيرا عن ردود فعل السلطة فى أى نظام شمولى ، بكل ما يحمله هذا من معانى البطش والتنكيل وإخراس المتحدث باى وسيلة ، فضلا عن أساليب " وقائية " يكسب عن طريقها كتابات مادحة وإشادة ، لم ينل مثلها وزير تربية فى تاريخ مصر الحديثة والمعاصرة ، حتى طه حسين والسنهورى ود. هيكل !

وحتى تعرف أيها القارئ ماذا فعل مع واحد مثلى ، فلتقرأ الجزء الخاص بذلك فى كتابى " هاؤم أقرءوا كتابيه .. قصة حياة أستاذ جامعى " ! وانظر إلى ما يثار فى الوقت الحالى بين الصحف الحكومية وكثير من الصحف الحزبية والمستقلة ، من اتهام الأولى للثانية بأنها قد خرجت عن كل الخطوط الحمراء، وبأسلوب لا يصح ولا يجوز ، وأن كتاباتها لا تخرج عن كونها " صريخا بالصوت الحيانى"!! وهنا تبرز لنا نفس القضية : افرض أنك وراء باب غرفة أغلق عليك ، وقمت بالدق البسيط على الباب حتى يفتحوا لك ، فلم يفتح أحد .. بالتالى فسوف ترفع من نبرة صوتك ، لعلهم لم يسمعوا فى أول مرة ، فلا تجد مجيبا ، فترفع صوتك أكثر ، فلا مجيب ، وهكذا ، فماذا ستكون النتيجة ؟ لابد أنك ستصرخ عاليا ، فإذا استمر هذا أيضا بغير نتيجة ، فلربما قمت بمحاولات كسر الباب ، وفى أضعف الأحوال ربما تلجأ إلى الصياح بكلمات إهانة وربما سباب ! إن الذى يتصور أن مجرد الكتابة والحديث ، بغير قيود ، هو تعبير عن " حرية " وأهم إلى حد كبير ، فإذا لم يكن لهذا الذى نكتب ونقول ونتحدث آثار على أرض الواقع ، ويمثل قوة تغيير ودفع إلى أمام فإنها ليست حرية تعبي بل هى حرية نباح !

راعى الغنم *

من أشهر الأوصاف التى نخلعها على البعض من الأمـريكيين عنـدما نفكر فى سلوكيات تقوم على الاستغلال والاغتصاب والغطرسة بغير حـق تعبير " رعاة البقر " مما نراه شائعاً فى بعض الأفلام الأمريكية ، بينما يشيع فى ثقافتنا العربية وصف آخر هو " رعاة الغنم " ! ويبدو أننا نحتاج اليوم إلى عملية مزج بين الأمرين ، بحيث نخلع المصطلح الثانى (رعاة الغنم) على موقف الرئيس الأمريكى الأخير ، لتبدل فى المسميات وتغير فى العلاقـات بين الأطراف موضوع الحديث .

فالرئيس الأمريكى لم يعد فقط ، من قوم نصفهم برعاة البقر ، وإنمـا من كثرة عشقه للشرق الأوسط عامة ، والعربى منه خاصة ، فقـد أصـبح راعى غنم من الدرجة الأولى ، لكن الأغنام التى يرعاها ويقوم بشأنها ليست من تلك الأغنام التى نعرفها ، مما يمشى على أربع ، وإنما هـم مجموعـة آدمية المظهر والتكوين ، لكنها " غنمية " التفكير والسلوك والمقام ..

إنهم بعض الزعماء الذين ابتليت بهم منطقتنا العربية ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ونحن لا نخترع هذا الموقف ، ولا نخطئ الحساب ، فالخالق عز وجل أشار إلى فئة من الناس يملكون آذاناً ، من المفـروض أن يـسمعوا بهـا ، ويملكون قلوباً أعينا مفروض أن ترى وتبصر ، لكن بالنسبة للإنسان لا تقف المسألة عند حد انتقال أثر صوت إلى الأذن ، ولا أثر صورة بصرية ، ولا صوت إلى الأذن ، ولا أثر صورة بصرية ، ولا أحاسيس ينفعل بها الإنسان ، بل لابد أن تؤدى هذه الانطباعات الحسية إلى فهم ووعى وإدراك ، يعقبـه

---

* جريدة الدستور، ٥ أغسطس ٢٠٠٧

تغيير وتطوير وتبديل فى الموقف والعلاقات مما يعزز مقام الإنسان ، ويؤكد " تعلقه " .

فإذا ما توافرت أجهزة حس ، واختفت مظاهر الوعى والتعقل التى كان يجب أن تترتب على ما تلقته الأجهزة الحسية من انطباعات ، لا نكون إزاء " إنسان " مهما اتخذ صورته وشكله ، ولكن من هذه الفئة من الكائنات الحية ، ذلك لأن الحيوانات عندما لا تعى ولا ترتب الكثير على ما تتلقاه من انطباعات حسية ، فلها عذرها ، لأنها فاقدة العقل والتعقل والوعى ، ولذلك أنزل الله عز وجل تلك الفئة من البشر التى تملك أجهزة حس مثل الأغنام ، لكنها لا ترتب عليها فهما ووعيا وإدراكا يغير من الأمور فى الطريق المستقيم منزلة أقل من منزلة الأنعام ، فهو سبحانه يقول :

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)) سورة الأعراف.

فمنذ فترة قصيرة وقف الرئيس الأمريكى بوش داعيا لعقد مؤتمر جديد يناقش المدعوون إليه فيما قد تعارفنا عليه بأزمة الشرق الأوسط ذلك أن قلب الرجل رق لسوء الأحوال فى بلداننا العربية ، ولا يرضى ضميره أن تنعم أمريكا بالهدوء وراحة البال بينما الدماء تسيل بغزارة على أرض البلدان العربية ، وتنفق أموال هائلة على الحروب والقتال وسفك الدماء ، بينما معظم شعوب المنطقة يعانون فقرا ومرضا وجهلا .

ولا يقف " سيدنا " عند هذا الحد ، بل يشير مقدما إلى الأسباب التى تكمن وراء سوء الحال هذا ، بل وتهدد مستقبل شعوب المنطقة ، وتتلخص أهم الأسباب فى وجود قوة إرهابية اسمها حماس على أرض فلسطين ما زالت تمسك بالسلاح ، بينما العالم ينشد السلام ، وكذلك حزب الله ، الذى يهدد الديمقراطية على أرض لبنان ، حيث كان يؤمل أن تحتذى بالنموذج

العراقى فى الديمقراطية الذى دفعت فيه أمريكا دماء كثير من أبنائها ، وأموالا ضخمة (!!) ، ثم يذهب " سيدنا " فى التحليل أكثر ليؤكد أن الجهة التى تمد هاتين القوتين بالسلاح وتشجعهما على ما يقومان به هى إيران بالدرجة الأولى وسوريا بالدرجة الثانية ، حيث هى " المعبر " التى تمر من خلاله المساعدات التى تعين كلا من حماس ، وحزب الله !

سمعت مثل كثيرين هذا وشاهدته وفركت عينى ، وحاولت تسليك أذنى خوفا من أن يكون قد لحقهما خلل فى السمع حيث كذبهما عقلى ، لكن حقيقة إذ بالمثل الشهير نفسه يفرض نفسه على فورا ، وهو القائل " يقتله ويمشى فى جنازته " !

فمن الذى ساعد أصلا منذ عام ١٩٤٨ (بل وقبلها فى التحضير والإعانة والتقوية) قيام دولة لم يكن لها وجود منذ آلاف السنين تسمى إسرائيل لتغتصب أرض وطن وتشرد شعبا ؟ ومن الذى غزا العراق ودمره وخربه ، لا منذ الغزو عام ٢٠٠٣ بل ومنذ حرب الكويت فى صيف عام ١٩٩٠؟ ومن الذى يثبت نوعية من الحكام مصاصى دماء شعوبهم وقاهرى أمتهم، والذين يعقدون حلفا بين الفساد والسلطة ؟

عشرات التساؤلات التى يمكن أن تحتاج إلى عدة صفحات ، لكننا نكتفى بهذه الأمثلة المعدودة ، لا لضيق المساحة ، وإنما لأن الأمثلة لا تبارح ذاكرة إنسان من شعوب المنطقة ، باستثناء حكامها والمنتفعين بالسلطة .

هذه الأمثلة المعدودة ، وتلك الكثيرة مما يعرفها الجميع تشير إلى السبب الحقيقى فى البلاء ، ألا وهو هذا الإنسان نفسه الذى بلغ به الاستهتار بعقول أبناء المنطقة إلى درجة " الاستهبال " لا لشئ إلا لأنه يعلم علم اليقين أن شعوب المنطقة تحكمها نظم أقل ما توصف به هو أنها من تلك الفئة التى وصفها المولى عز وجل بأنها من " الأنعام " ، لأن كل الحقائق والأدلة والبراهين واضحة وضوح الشمس ، لكنهم يصمون أذانهم ويضعون أيديهم

على أبصارهم ، ويكذبون قلوبهم ، فيهرعون إلى إعلان الفرح والمؤازرة لما سموه بمبادرة " بوش " من أجل إحلال السلام !!

كأنني وأنا أرى بوش يدعو زعماء المنطقة إلى هذا المؤتمر المنشود أرى راعى غنم يناديها أن تهرع إليه ، وهو يمسك بحزمة برسيم ، بينما هو يسعى إلى جرها إلى حيث المصير المعروف ... سلخانة الذبح والقهر والاستغلال !!

كان راعى الغنم حقيقة رحيم القلب ، رقيق الحس ، فلم يكتف بأن ينبه على سفرائه فى بلدان المنطقة بأن يبلغوا حكامها بالتعليمات الجديدة ، وإنما أرسل إليهم كثيرين من وزرائه ، وزيرة الخارجية ووزير الدفاع ، وقبل أن تجئ الآنسة " كوندا " أشارت بإصبعها إلى نفر من هؤلاء الذين ابتلى العرب بهم قادة وحكاماً كى يقابلوها فى المنتجع الكارثة الذى أصبح اسمه مرتبطا عندنا بالدسائس والمؤتمرات والاجتماع على مزيد من التسليم ومزيد من التفريط ، ومزيد من التأكيد على أننا إلى الهاوية سائرون !!

ويواكب هذا وذاك إعلان صفقات سلاح ضخمة ، لبلدان لا نعرف حقا الهدف الحقيقى لتخزينها هذه الأسلحة ، فمن هو العدو الحقيقى الذى يتربص بنا ؟

منذ ما يزيد قليلا عن الخمسين عاما ، جاء " دالاس " وزير خارجية أمريكا زائرا مصر ليقنع عبد الناصر بالتحالف مع بعض الدول العميلة العربية لمواجهة ما أسموه خطر الإتحاد السفيتى الذى كان قائما ، فكان جواب جمال عبد الناصر أن الاتحاد السوفيتى بعيد عن مصر، ولم يشكل لها تهديداً ، وإنما التهديد الحقيقى يجئ من إسرائيل لأنها واقع حقيقى قام على الاحتلال والاغتصاب ...

هذا موقف قيادة مصرية وطنية تجاه سعى خارجى يبغى الاتصياع ..

قل ما تريد أن تقول عن عبد الناصر نقدا فى جوانب أخرى ، لكنك لا تستطيع أبدا أن تنكر هذا الموقف الرجولى ، الذى يذكرنا على الفور بكلمات الممثل العظيم الراحل " محمود المليجى " فى فيلم (الأرض) وهو يعرض لذكريات كفاحه وزملائه من أجل الوطن ، حيث كان يعقب بعد رواية كل واقعة (علشان كنا رجالة) !!

نعم كان الذى يحكمنا من هذه الفئة التى أشار "المليجى " إليها ... كانوا رجالة ! واليوم يتكرر الأمر نفسه بصورة أخرى ، حيث لا نجد " رجالة " !! دعوة إلى التحالف من أجل مواجهة إيران ، حيث يروجون لخطرها المزعوم ، أما إسرائيل التى اغتصبت وطنا وشردت شعبا ، فلا تشكل الخطر الحقيقى ...

وهاتان الفئتان الوحيدتان " الرجالة " فى المنطقة ، اللذان ما زالا يرفضان الخنوع ويقاومون بهدف تحرير الأرض الوطنية ، حماس – وحزب الله ، يحرصان على تشويه صورتهما ليخرسوا وهم خطرهما على أمن المنطقة ..

حقا ، نحن أمام أبشع صور التضليل وتزييف الوعى وتجريف العقول ... صورة يتضح فيها بجلاء ذلك المنطق المزرى الشيطانى ، من حيث الخلط بين الحق والباطل .

إننى لا أكاد أصدق أن هناك صاحب عقل من هؤلاء الزعماء والحكام ، يصدق أن إسرائيل لم تعد خطرا ، بل هى حليف ، وأن إيران هى الخطر ، وأن حماس وحزب الله من الأمراض التى يجب استئصالها ... فقد يمكن تصديق ذلك ، إذا طرحنا السؤال المهم : خطر على من ؟

ليسوا أبدا خطراً على أرض الوطن ... وليسوا أبدا خطراً على شعوب أوطاننا .. لكنهم يمكن أن يكونوا خطرا على هذه النوعية من القادة والزعماء .. فحماس وحزب الله يضربان المثل فى التضحية بالحياة فى سبيل الوطن ،

ويضربان المثل فى أن إسرائيل ليست مما لا يقهر ويضربان المثل فى التوعية بما تمثله أمريكا وحلفاؤها من خطر على شعوب المنطقة ، وهما بهذا يعريان حقيقة من يحكمون أمام الشعوب وأمام التاريخ ، ومن ثم ، يطبقون مقولة تشرشل عندما سئل : كيف يتحالف مع الاتحاد السوفيتى الشيوعى فى الحرب العالمية الثانية ، فكان رده أنه مستعد أن يتحالف مع الشيطان ، ما دام ذلك من أجل أن ينقذ بريطانيا !

لكن المقولة التى تقوم عليها نظم الحكم الحالية فى بلداننا العربية : فلنتحالف مع الشيطان ، من أجل أن نبقى حكاما حتى ولو ذهبت شعوب المنطقة إلى الجحيم !!

حكم العسكر "١-٢"*

تصور لو أنك دعيت إلى حفل زفاف ، ثم إذا بأحد المدعوين يطلق صوت راديو لمقرئ يتلو من إحدى سور القرآن الكريم قول المولى عز وجل : (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ... (٧٨)) سورة النساء ، أو قوله : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)) سورة آل عمران ؟

فى غالب الأحوال سوف يضيق الناس بهذا ، مع أن الكلام المذاع هو لله الخالق الأحد الصمد ، ومن ثم فلن يكون الضيق ناتجاً من سماع كلام الله ، وإنما هو أن " المناسبة " لا تتسق مع الكلام ، على عظمته وعظمة قائله عز وجل ، ومن هنا كان قول المتخصصين إن البلاغة هى مناسبة القول لمقتضى الحال ، وفى المجال الإنسانى نجد تلك الحقيقة التى نلمسها بأنفسنا ، وقام عليها علم كبير ضمن الدراسات النفسية اسمه " سيكولوجية الفروق الفردية " الذى يتعلق بما بين الناس من فروق فى القدرات والاستعدادات ، والتى تعبر عنها المقولة الإسلامية العظيمة " كل ميسر لما خلق له " ، والتقط المفكر العبقرى ابن خلدون تلك الحقيقة وأقام عليها نظريته فى الاجتماع الإنسانى ، حيث أن كل إنسان وجد أنه بحاجة إلى ما لا يستطيعه هو ويستطيعه غيره ، والعكس صحيح ، فاحتاج كل منا إلى الآخر ، فقام المجتمع البشرى .

ولا يقف الأمر عند حدود ما نكون عليه من فطرة نولد بها ، ولكن يضاف إلى هذا ما نتلقاه من تعليم تدريب ، كما نرى بالنسبة للمهن المختلفة ، فيصبح كل من تأهل فى نطاق مهنة مع عمله ، لا يحق له أن يزاول ما يقع فى نطاق مهنة أخرى ، إلا إذا قام بما يسمى بـ " التدريب التحويلى " حيث

---

* جريدة الدستور، ٩ ديسمبر ٢٠٠٧

ضرورة أن يتزود بما تتطلبه المهنة الجديدة من معارف وقدرات ومهـارات وفى التكوين الاجتماعى ، نرى فئات ومستويات وهيئات وطبقات ، كل لهـا مهامها التى تكلف بها ، ولها أدوارها التى تقوم بها .

وقديماً ،عندما بحث أفلاطون أحوال مجتمعه الإغريقى فى أثينا ، حيث كانت فى غاية السوء ، وبحث عن كيفية إقالة هذا المجتمع مـن عثرتـه ، وتحقيق " العدل " وجد أن العلة تكمن فى أن قاعدة " كل ميسر لما خلق له " غير قائمة ، وأن من الضرورى إقامة نظام جديد للتعليم يؤهل كل فئة وكـل طبقة لما تقدر عليه .

وإذا كان أفلاطون قد قام بعملية إعادة التركيب والتوزيع فى المجتمـع على " الفطرة والوراثة " فإننا نزيد عليه بما كشفت عنـه العلـوم التربويـة والنفسية منذ قرون ، من أن " التعليم والتدريب " لهما فعل السحر فى عملية التشكيل والتكوين ومن ضمن الفئات والشرائح الاجتماعية ، هناك " المؤسسة العسكرية " المعروف وظيفتها ، وهى من أجَلّ الوظائف وأعظمها حقـاً ، إذ ماذا يكون أرفع وأعظم من أن تقوم وظيفة فئة على التضحية بالحياة الفردية من أجل أن تقوم حياة الوطن وأن تستمر حياة الأمة عزيزة مكرمة ؟

وكل من ينخرط فى هذه المؤسسة العسكرية ، لابد أن تكون له قدرات مناسبة واستعدادات ميسرة ، مما يدفع المسئولين إلى أن يعقدوا الاختبـارات والامتحانات لكل من يرغب فى الانخراط فى سلك هذا التعليم بداية ، وعنـد التأكد من وجود ما يؤهل الفرد ، يخضع عدة سنوات لتعليم شاق وقاس ، فإذا بالمتخرج يكتسب شخصية عرفت فى الدراسات الاجتماعية والنفسية بـ " الشخصية العسكرية " لها سماتها وقدراتها ومهاراتها ، التى تزيدها الخبـرة نمواً وعمقاً ونضجاً ، كأن يتسم العسكرى بـ " الحزم " و " الحـسم " لمـا تتطلبه المواقف القتالية ، وكذلك التزام النظام ، والضبط والربط والنزعة إلى الانجاز ، فضلاً عما هو معروف من ترسخ ما يسمى بـ " الهايراركية " أو

" التراتبية " التى لا نجد مكاناً تتحكم فيه وتترتب عليه تنظيمات واتجاهات وأوامر مثلما نجد فى المؤسسة العسكرية ، وكل هذا تتطلبه بالفعل الحياة العسكرية .

لكن هذا الذى له آثاره الإيجابية فى الحياة العسكرية إذا نقلته إلى الحياة المدنية ربما يفلح بعضه ، وربما لا يفلح بعضه الآخر ، فالعسكرى على سبيل المثال يعرف جيداً قيمة " السرية " وضرورة التكتم على كثير من الأمور ، وأنه بقدر ما يلتزم بالسرية والتكتم بقدر ما يكون نجاحه وتوفيقه ، لكن الحياة المدنية – باستثناء بعض المواقف تقوم على ما أصبح يسمى بـ " الشفافية " والعلانية والوضوح .

ومسألة التشاور والديمقراطية عصب أساس فى الحياة المدنية ، خاصة فى المجالين السياسى والاجتماعى ، لكنها فى المجال العسكرى ربما تكون لها دوائرها الضيقة التى تمارس فيها خاصة مستوى القيادة ، والقاعدة الحاكمة هى " الطاعة " من قبل مستويات وإصدار الأوامر من قبل مستويات أعلى .

وفى الدول المتخلفة ، حيث لا نجد " الموضوعية " و " العلمية " و " الديمقراطية " هى من ضوابط إيقاع الحياة ، أغرت القوة المسلحة بعض الضباط أن يستخدموا ما يملكون للاستيلاء على السلطة ، ربما يكون بهدف وطنى حقيقى ، وربما فى أحوال أخرى لدوافع شخصية أو لتنفيذ مخططات خارجية .

واشتغال العسكر بالسياسة أمر له خطورته وتداعياته السلبية الكثيرة ذلك أن الحياة الديمقراطية ، تعتمد على أسلحة وأدوات معينة ، منها الرأى والفكر والجدال بالتى هى أحسن ، والصندوق الانتخابى ، وكل مواطن له رأيه الذى لا يقدح فى قيمته أن يكون موظفاً بالثانوية العامة أو أن يكون حامل دكتوراه فإذا ما اعتمد آخرون على المدافع والدبابات والقنابل ، سكت

صوت المنطق ، واختفى التشاور ، وتراجعت الفكرة ليعلو صوت القوة المادية ، حتى يمكن لمن لا يملك من العلم إلا أبسطة أن تكون له اليد العليا ، ما دام واقفا على ظهر دبابة يهدد ويتوعد .

إن البعض يشير ، وهو بصدد المعارضة لتولى إسلاميين الحكم فى مجتمع ما بأنهم غير ديمقراطيين ، يميلون إلى الانفراد برأيهم هم ، وبغض النظر عن مدى صدق أو خطأ هذا الظن ، فإن هذا البعض لا يلتفت إلى هذا النمط الذى ابتليت به كثير من الدول النامية ألا وهو " الدولة العسكرية " لا بمعنى أن يكون الحكام عسكراً ، وإنما بمعنى انتهاج النهج العسكرى فى تسيير الأمور ، حتى لو كان الحاكم مرتديا ملبساً مدنياً ،والعكس صحيح ، فقد رأينا الجنرال ديجول يحكم فرنسا ، وكذلك الجنرال أيزنهاور يحكم أمريكا ، لكن النهج لم يكن عسكرياً .

"٢"

لقد تعرضت مصر منذ الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ لحكم العسكر، حيث كانت هناك ظروف ربما اقتضت ذلك ، مما جعل البعض يصف الثورة بأنها " انقلاب " وكان قائد الثورة عبد الناصر بالفعل زعيما وطنياً مخلصاً ، مهما كانت أخطاؤه وسلبيات فترة حكمه، لكن ذلك لم يكن مبرراً أبداً أن " تتعسكر " مصر فى إدارتها ، وكانت الخطوة الأولى عندما رأينا فى كل وزارة من سمى بـ " مندوب القيادة "، أى قيادة الثورة ، وعندما ردد بعض ضباط المدفعية الذين تمردوا على مجلس قيادة الثورة القول بأنهم لم يتخلصوا من فاروق " الملك " ليجئ ثلاثة عشر فاروقاً " عدد المجلس فى البداية ".

---

* جريدة الدستور، ١٦ ديسمبر ٢٠٠٧

من هنا أدرك عبد الناصر خطورة اشتغال العسكر بالسياسة ، وحرص فى سنوات الثورة الأولى على ذلك ، لكنه انتهج سبيلاً كانت له تداعياته السلبية ، حيث أبعد عدداً كبيراً من الضباط عن القوات المسلحة ، وأدمجهم فى إدارة الدولة والمجتمع ، بحيث لم يترك مجالاً من مجالات الحياة إلا وتم " غزو العسكر" له : من اقتصاد وثقافة وصحافة وتجارة وصناعة وتعليم وموسيقى وإذاعة وتليفزيون وسينما ، ونشر وتوزيع وطباعة ، إلى غير هذا وذلك من مجالات الحياة .

ومن هنا فقد عرفنا شخصيات مثل يوسف السباعى وعبد القادر حاتم وعبد المنعم السباعى وأحمد حمروش ولطفى واكد وثروت عكاشة وكمال رفعت وكمال الحناوى ووجيه أباظة وغيرهم كثيرون ، فضلا عن " غزو عسكرى لمواقع المحافظين بالداخل والسفراء والملحقين بالخارج "، فكان أن " تعسكرت " الإدارة العامة للمجتمع المصرى ، على الرغم من أن الضباط الذين انتشروا فى خلايا الحياة المدنية خلعوا ملابسهم " الكاكى" وبعضهم وفق فى العمل الذى أوكل له ، لكن ، كم منهم استطاع أو حتى حاول أن يخلع منطق تفكيره ونهج حياة وسمات شخصيته ذات السمات العسكرية ؟

دع عنك افتقاد كثيرين مقومات التأهل الأساسى لهذا العمل وذاك ، لكن انتقلت عدوى العسكرة إلى الخلايا العامة للإدارة المصرية . لم تعد المسألة متعلقة بشخصيات تتخرج فى كليات عسكرية ، بل أصبح النهج العسكرى متجذراً ، حتى لو كان صاحبه لا يلبس الكاكى . ولا أحد يستطيع أن ينكر أن بعض المواقع قد كسبت من بعض سمات الشخصية العسكرية عندما تحكم ، وأبرزها السرعة والحزم وقوة النفوذ .

ويحضرنا فى هذا السياق ما أفاد به وجود واحد مثل " كمال الدين حسين" على رأس وزارة التربية ، وكذلك توليه موقع نقيب المعلمين ، فقد استطاع المعلمون أن يكسبوا على يديه موقعاً لهم استراتيجيا على كورنيش

النيل ، ما كان لهم أن يحلموا به ، وكذلك الأمر على شواطئ الإسكندرية ، فالمعلمون – كما تدل وقائع الحال– قوم مغلوبون على أمرهم " بصرف النظر عما نعرفه فى عصرنا الحاضر من سطوة تتعلق بالدروس الخصوصية وما تجره من مكاسب باهظة ، لا يمثلون –على الرغم من كثرتهم– قوة ضغط حقيقية مثل جماعات مهنية أخرى !!

بل حكى لنا أستاذ راحل أنه شهد من كمال الدين حسين زيارة لمدرسة مصر الجديدة الثانوية للبنين ، كان فناؤها ضيقا للغاية، فنظر الوزير إلى مساحة مجاورة وسأ ل: تبع من هذه ؟ ثم صرح فى الحال : اعتبروها ضمت إلى فناء المدرسة ، وحدث هذا بالفعل !! لكن ، لو قيست بعض الجوانب الإيجابية ، بأخرى سلبية تتعلق بنمط التفكير والحكم لتبخرت تلك الجوانب التى وصفناها بالإيجابية !

ونظراً للأعداد الكبيرة من الضباط الذين اقتحموا الحياة المدنية التى برزت خشية أن يكون هناك فراغ " فى المؤسسة العسكرية فى كوادرها المؤهلة" ، فإذا بقرار تختصر بمقتضاه فترة الدراسة فى الكلية الحربية اختصاراً شديداً، حتى يمكن أن تخرج أعداداً كافية ، خاصة وقد بدأت الأخطار تحيط بمصر ، من قبل قوى تربصت بها، بل لم يقف الأمر عند حد التربص ، وإنما وقع اعتداء بالفعل كما رأينا عام ١٩٥٦، ولم يمض على قيام الثورة إلا أربع سنوات فقط.

المشكلة الكبرى التى نعانيها فى مصر، أننا هواة الاختيار السيئ من بين أنماط الحياة والسياسات والفلسفات ، فالسياسة الاشتراكية كانت لها سلبياتها ، لكن كانت لها إيجابيات ، فإذا بك– اليوم – تجد استمراراً للنهج الاشتراكى فى وجهه السيئ ألا وهو الإدارة المركزية ، وفى القهر والاستبداد فى مجال الرأى والثقافة.

والليبرالية لها أيضاً وجهها الأبيض ، ولها كذلك وجهها الأسود ، فأخذنا توجهها فى الاقتصاد ونسينا أن نأخذ بالنهج الليبرالى أيضا فى الحكم، فإذا بقوى " السوق " تتحول إلى قوى " سوء" بل قوى متوحشة تعربد وتنطلق تنهش الاقتصاد وتمزق الجيوب وتخرب المم والأخلاق. وهكذا أيضا بالنسبة للعسكرة.

المفروض أن المؤسسة العسكرية بعيدة عن الشأن السياسى، لكن " نهجها" ومنطق تفكيرها ، الذى له فعالياته الإيجابية فى الحياة العسكرية، له تداعياته السلبية خاصة إذا انتقل إلى الحياة السياسية، ولعل أبرز ما تلمسه حالياً، هو العقل الذى تعود على أن العلاقة مع الآخر هى علاقة بعدو، لابد أن يتكتم إزاءه ويخفى ويفاجئ.

وهم التغيير ..!*

منذ أسابيع قليلة عندما كانت أنهر الصحف تفيض بأحاديث متعددة ترشح هذا الوزير كى يخرج ، وذاك الشخص كى يدخل ، لم آخذ أيا منها مأخذا جديا ، بل كنت أقول لنفسى ، أنك إذا أردت أن تثبت وزيرا ، فشع أنه سوف يخرج ، وإن أردت أن تحرق شخصا ، فأذع أنه مرشح بقوة كى يكون وزيرا أو محافظا أو هذا الموقع أو ذاك من تلك المواقع التى يتهافت عليها الناس ، ذلك أن " النهج العسكرى " فى التفكير - الذى سبق لنا أن كتبنا عنه من قبل - وما زالت له السيادة فى مصر ، له منطقه الخاص الذى تفرضه الحياة العسكرية وخاصة أثناء الحروب ، فإذا عرفنا أن العدو يتوقع منا أن نهجم عليه بحرا ، يكون من الحصافة أن نهجم عليه عكس ذلك ، أى أن يكون الهجوم جوا أو برا ، وإن عرفنا أنه حسب حساباته على أساس أننا سوف نبدأ بالهجوم يوم كذا من شهر كذا ، فلابد من استباق ذلك... وهكذا مما هو معروف من أوليات التفكير العسكرى القائم على أساس " المفاجأة . "

وهكذا رأينا أمثلة كثيرة فى مواسم توقعات التغيير ، وهذا ما يفسر أن كل تغيير عادة ما يعقبه شعور بالإحباط.

ومن هنا ، فعندما يشيع حب وتقدير لوزير من الوزراء ، فهذا إيذان بأنه لابد أن يذهب ، وعلى العكس من ذلك ، عندما تشيع كراهية لآخر ، وانتشار لأخبار فساده ، فهذا مؤشر على أنه سوف يبقى ، ومن ذلك رأينا وزير الداخلية الأسبق ، أحمد رشدى ، ووزير التموين السابق أحمد جويلى ، ونادية مكرم عبيد... وعلى العكس من ذلك فى شخصيات مكروهة وأخبار فسادها تزكم الأنوف ، وإذا كان بعض هؤلاء قد ذهب بالفعل ، مثل يوسف والى ، لكن بعد سنوات طويلة ضاق صدر الناس فيها ، ونال جريدة الشعب وأبطالها

---

* جريدة آفاق عربية ، فى ٢٠٠٤/٧/٢٩

ما نالهم من سجن وتعطيل ، ثم وصل الأمر إلى إحراج شديد للنظام فى قضية يوسف عبد الرحمن الأخيرة.

ويظل الناس فى عجب لا ينتهى ، فهذا كمال الشازلى ، لا تجد مصريا إلا ويقول عنه ما يفزع ، مما يؤكد أن هذا لابد وأن يكون قد طرق أسماع القيادة السياسية ، ومع ذلك فهو باق كالطود الأشم ، يتغير الرؤساء لكنه يمثل الأهرامات فى ثباتها واستمرارها.

ويضرب الناس كفا على كف ، ويمصمصون الشفاة ، ولو سألت أى اقتصادى عن يوسف غالى لقال فى أدائه الكثير من النقد ، ومع ذلك ، ففى كل تغيير تراه يرتقى ويرقى ويصعد ، وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد ، بل إن هذا الصنف عادة ما يصبح "نمرودا " مستأسدا فى موقعه ومواقفه !!

ومن هنا فإن الإنسان ليعجب حقا من الإسراف فى استخدام كلمة " التغيير "، فهل ما تم ، وما يجرى هذا المجرى هو بالفعل تغيير ؟

الأمر يتوقف على ما تقصده من تغيير ...

فحتى الآن ، لا يتعدى التغيير الذى يجرى على أرض المحروسة ، إبدال هذا بذاك من الوزراء ، وتظل السياسات قائمة ، ويظل النظام مستمرا بهيكله وعناصره وقواعده ، ومن ثم فمن العبث تسمية ما حدث بأنه تغيير ، إنه شبيه بهذه النكتة التى تقول أن فلانا كان اسمه " أحمد الحيوان " فنصح بأن يغير اسمه ، فإذا بالإسم الجديد هو " فوزى الحيوان " !! مع الاعتذار الشديد لمن يتصادف أن يكون اسمه هكذا.

صحيح أننا لا نجد فى الدول الصناعية الكبرى ، مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا على سبيل المثال ، تغييرا جذريا يحدث عندما يذهب هذا ويأتى ذاك من الحكام ، لكن هذا لأن النظام هناك ، وما يقوم عليه من قواعد وما يمثله من مبادئ وأصول والسياسة العامة ، ليست من نتاج هذا الشخص أو ذاك... هو تراكم خبرة وجهود وتضافر وتعاون بين قوى مختلفة كونت

جملة الشعب الأمريكى أو الإنجليزى أو الفرنسى ، بحيث لا يصبح التغيير الجذرى مطلوبا ، وإنما هى تغييرات تفرضها سنة الحياة ، ووفقا لما تشهده البشرية من تطورات ومتغيرات .

لكننا فى مصر ، مثلنا فى ذلك مثل كل الدول المتخلفة ، نجد شكل النظام القائم وقواعده وعناصره ومقوماته هى من صنع فرد ، أو مجموعة أفراد قد لا يزيد عددها عن عدد أصابع اليد الواحدة ، وربما يتم تفصيل بعضه حتى يناسب مقاس هذا أو ذاك ، مثلما فعل السادات عندما أطلق مدة تجديد رئاسة الجمهورية . وعندما يتغير عهد بعد عهد يستبقى من سابقه ما يفيده هو ، وأوضح الأمثلة على ذلك نسبة العمال والفلاحين ، فهذه ربما كان لها منطقها وفلسفتها فى ظل نظام سابق رفع راية الاشتراكية ، أو قل رأسمالية الدولة ، ومع شدة التغير الذى حدث منذ أوائل السبعينيات من تحول إلى الرأسمالية ، نظل محافظين على هذا لأنه فى مصلحة القوى الحاكمة .

من هنا يصبح التغيير بالمعنى الشامل الجذرى مطلوبا فى بلد مثل بلادنا ، والتغيير الذى نحلم به لا يعنى " انقلابا فى نظام الحكم " ، وإنما يتم بطريقة ديموقراطية دستورية ، فهناك الكثير من الجوانب التى بح صوت كتاب ومصلحين وقوى متعددة فى المطالبة بها ، لعل أبرزها قانون الطوارئ ، فليس مما يشرف أبدا نظام حكم ويزكيه أن يستند إليه طوال حياته التى امتدت الآن إلى ثلاث وعشرين عاما . لقد بدأ النظام يشعر بالحرج بالفعل أمام العالم (لكنه لم يشعر بالحرج أبدا أمام شعبه) ، فإذا بأقوال هنا وهناك يتم تسريبها ، بأن هناك نية بالفعل فى إلغائه ، لكن ليس الآن وفورا ، حتى يتم إعداد بعض القوانين التى تكفل محاربة الإرهاب ! حجة متهافتة ليس وراءها من دافع إلا الهروب ! وهناك هذا الإطلاق لمدة رئاسة الجمهورية...

ألسنا نبدى إعجابنا بأمريكا ونتغنى بعظمتها وريادتها وزعامتها ؟ فلم لا نتشبه بها فى أمر مثل هذا فنقيد هذه المدة بفترتين ؟ إن قيل وأين نحن من

أمريكا ، فالناس فيها متنورون ونحن ما زلنا متخلفين ، قلنا ، بالعكس ، لأننا كذلك ، فنحن أشد حاجة ، حيث لا طريق للتخلص من حالة التخلف إلا بالنهج نهجا يقوم على الديموقراطية .

ولم نذهب بعيدا ، فها هى لبنان تسير على مثل النهج الأمريكى ، فلا يسمح لرئيس الجمهورية بأن يتولى الرئاسة أكثر من مرتين.

وهذه الأغلال التى تقيد حرية إصدار الصحف والمجلات ، وتقيد كذلك حرية تكوين الأحزاب ، هى من أهم السبل التى نحتاج إلى كسرها والتخلص منها.

وتسأل : ألا يوجد ما يشبه الإجماع بين القوى والتيارات السياسية على مثل هذا وذاك ؟ فتكون الإجابة بالإيجاب ، فإذا ما سألت : فلم لا يتم التغيير وفقا لهذا وما يجرى مجراه ؟ فلا تملك إلا تخمين إجابة وحيدة مخيفة تفرض نفسها... إنهم يخافون على أنفسهم من النتيجة ، ويشعيون العكس ، بأنهم يخافون على " مصر " ، بينا مستقبل مصر لن يشرق إلا به.

هل يستقيم الظل والعود أعوج* ؟!

حكمة جرت على لسان أديب فسرت واستقرت فى العقول والقلوب ، وأصبحت مثلا يضرب على الأصل عندما يكون معوجا ونأمل أن يستقيم ما يصدر منه ، ولقد فرض نفسه على قلمى وأنا أتأمل فيما أصبح يجرى على الألسن فى بلادنا العربية المنكوبة ، والألسن هنا ليست ألسن جماهير الناس العادية ، وإنما هى ألسن الحكام والسياسيين وكتاب الصحف وضيوف الإذاعة والتلفاز .

إن الحديث عن " الإصلاح " فى النظم العربية القائمة يحمل فى طياته تناقضا منطقيا واضحا ، فلو أن الكثرة الغالبة من هذه النظم نبعت من إرادة محكوميها فغالبا ما ستكون قابلة للإصلاح ، إن لم تكن صالحة بحكم تكوينها ، تماما مثلما تريد أن تقيم بناء ، فإذا وفرت الشرط الأول وهو أن تكون له " أسس " ضاربة فى باطن التربة ، يسهل بعد ذلك أن توفر له بقية شروط الجودة فى البناء ، لكن لو حدث العكس ، وتم البناء على سطح الأرض دون هذه الأسس المشار إليها ، فلن يفلح أبدا أمر البناء ، إلا إذا كان على هيئة " كشك " أو كوخ !

كذلك ، لا أدرى كيف يتم الإصلاح ؟

إذا كان من أهم أركان الإصلاح أن يكون النظام ديموقراطيا ، فهل يمكن لمن جاء بغير ديموقراطية أن يتيح فرص الديموقراطية لغيره ؟ هل يمكن للشوك أن ينبت عنبا ؟

ولو فرض أن المستحيل قد حدث وأخلص هؤلاء فى دعواهم أفليست الخطوة الأولى أن تكون الجماهير هى القائمة باختيار من يحكمها ؟ فكيف

---

* جريدة آفاق عربية فى ٢٠٠٤/٤/٨

يمكن أن يتم هذا؟ إن تصورنا أنه يمكن أن يتم والحاكم جالس على كرسيه ، وليس هناك من ينافسه ، وتقوم أجهزته بتنظيم استفتاء ، فسوف نعود إلى سابق عهدنا ونعيد التمثيلية نفسها القديمة المخجلة ، وإلا فليشر لى أحد على حاكم عربى واحد طوال تاريخنا الحديث أمكن للناس أن يصوتوا لغير صالحه وترك الحكم طائعا مختارا ؟

وانظر حواليك لترى كيف أن الزعماء العرب مغرمون بالتشبه بصفتين من صفات الله تعالى ألا وهى الأبدية والانفرادية ، فهذا يزيد حكمه على الثلاثين عاما وذاك خمس وعشرون ، وهذا يزيد على العشرين٠٠٠ وهكذا ، وكل منهم لا حاكم إلا هو ، إن أراد فلابد من التنفيذ ، وإن رفض فلا حول للناس ولا قوة!

هل يمكن حقا أن نأمل ديموقراطية وقوة الأمن الداخلى - ولا أقصد الشرطة العادية التى يتعامل معها الناس - تكاد أن تساوى ، وربما تفوق ، قوة الجيش ، وعناصرها متعددة من قوات منظورة وأخرى غير منظورة ، وهى تجثم فوق الصدور ، تجدها حاضرة فى التو واللحظة ، إذا حدث تجمع ، مهما كان صغيرا ، حول مسألة سياسية ، ولا تجد قوة الأمن العادية إلا بعد طول انتظار ، إذا كان هناك قتيل من جماهير الناس العادية أو حريق ؟

كنت فى أحد الاجتماعات ، يوم السبت ٢٠/٣ الماضى ، التى يحضرها علماء كبار يناقشون سبل النهوض بالجامعة فى مصر ، وعندما خرجت من الاجتماع رأيت ما أذهلنى : قوات أمن مركزى مكثفة تحيط بكل مداخل ومخارج ميدان التحرير ، حتى خيل إلى أن هناك معركة عسكرية كبرى وشيكة ، ولا تسل عما أصاب ألوف الناس من عنت وإرهاق نتيجة ذلك فى سبيل قضاء أعمالهم وحوائجهم ، ولما عرفت سبب هذا ، تبخرت كل أحلام التطوير الجامعى التى ناقشناها ، وبرزت الحكمة القائلة بأنه : لا يستقيم الظل والعود أعوج !

وانكشف المستور!*

منذ فترة طويلة ، تراودنى جملة شكوك وعلامات استفهام حول هوية النظام السياسى فى مصر ، وفقا للتصرفات والأفعال ، لا وفقا للتصريحات والكلمات.

كانت - وما زالت - التصرفات والأفعال تكشف لى عن مغايرة واضحة بين توجهات النظام وبين طبيعة هذه الأمة وطموحاتها ، وكان لسان حالى يدعو دائما بينى وبين نفسى : اللهم خيب ظنونى !

لا أقصد بكلماتى أن أصدر حكما بالتخوين لا سمح لها ، وإلا وقعنا فى تلك الهوة الجهنمية البغيضة التى وقع فيها البعض من حيث ركوب موجة التكفير ، وإنما أقصد تعبيرا عن ملاحظة انخفاض شديد فى درجة ونوعية " الوطنية " ، إلى درجة تجعل أصحابها يفقدون القدرة على التمييز بين العدو وبين الصديق ، وأن ما يفعلون إنما يصب فى النهاية فى مصلحة العدو الذى يغفلون

نحن لسنا بدرجة من السذاجة التى تجعلنا نغفل عن أن المحرك الأساسى للسياسة والعلاقات بين الدول هو المصلحة ، لكن كيف تتحدد المصلحة ؟ تتحدد بتحليل مبدئى لطبيعة وسياسات الأطراف الدولية الأساسية التى نتعامل معها ، فإذا كانت طبيعة كيان مثل الكيان الإسرائيلى تقوم على الإضعاف المستمر للقوة العربية الاسلامية ، حتى ولو أدى هذا إلى اقتطاع ما يمكن اقتطاعه منها ، أرضا أو بشرا أو اقتصادا أو غير هذا وذاك ، " فالعداء " من ثم لابد أن يكون نتاجا طبيعيا بيننا وبينهم ، ولا يعنى هذا دعوة لمقاتلتهم عسكريا ، فنحن نعى تماما درجة الاستضعاف التى نحن عليها ، ونعلم جيدا أن التفكير فى هذا يعد ضربا من الجنون فى المرحلة الحالية ، ولكنه يعنى أن ننأى تماما عن اتخاذ أية خطوة تكون إضافة إلى قوتهم ،وتغليبا لمصلحتهم.

---

* جريدة آفاق عربية فى ٢٠٠٤/١٢/٣٠

لقد كان يستوقفنا دائما الشجب المستمر من السياسة المصرية للعمليات الفدائية الفلسطينية ، وفى الوقت نفسه قلما نسمع عن شجب مماثل فى الكم والنوع لعمليات يومية إسرائيلية ضد الفلسطينيين ، والذين هم مدنيون جميعا إلا قليلا ممن يمارسون العمل الفدائى.

ونحن نعلم أيضا أن السياسة المصرية كانت تسعى بصفة مستمرة لإيقاف المقاومة المسلحة بحجج مختلفة ، واستجاب قادة المقاومة أكثر من مرة ، وتوقفت العمليات الفدائية شهورا ، ومع ذلك ففى أثنائها كان العدو الصهيونى لا يكف عن ممارسة نازيته المعروفة ، دون أن نرى موقفا إيجابيا من الحكومة المصرية ، ولو بالقول الكسيح!

وبالأمس ، الخميس ١٢/ ٢٣ كنت أشاهد على إحدى القنوات الفضائية العربية فيلما تسجيليا ، دار جزء منه حول ما كان قائما على أرض فلسطين المحتلة قبل نكبة ٤٨ من " عصابات " صهيونية ، قادتها هم الذين تُربعوا بعد ذلك زعماء وقادة لدولة العدو بعد ٤٨ ، وكان من أعمالها تدمير فندق الملك داود الذى كان يضم قيادات من البريطانيين الذين كانوا يحتلون فلسطين ، فضلا عن قتل " برنادوت " مبعوث الأمم المتحدة فى ذلك الوقت ، والكثير من المجازر ضد الفسطينيين ، أشهرها مذحة دير ياسين.

كانت عصابات متعددة تقوم بالقتل والتشريد والتدمير على نطاق واسع ، وكانوا يعتبرون كل عملياتهم عمليات " تحرير" ! وإذا جاء ذكرها أمام زعيم معاصر برر ذلك بأن تحرير الأرض أوجب ذلك !

لكن عندما يقوم الفلسطينيون اليوم بواحد على ألف مما قام به الإسرائيليون ، يصمت نظامنا السياسى أحيانا ، ويبدى امتعاضه أحيانا أخرى ، ولن أشطح فى التفكير والأمل فأقول أن المفروض أن يدعم ويساند ويساعد.. فقط ينحصر أمل الفلسطينيين فى أن يكف الجيران عن عن كبح حركاتهم ووضع العراقيل أمامها ، فضلا عن التبليغ عنهم للعدو الصهيونى ؟!

واللافت للنظر حقا أمران : أولهما تصريح من القيادة السياسية عقب وفاة عرفات بأن الجو قد أصبح مهيأ الآن لمواصلة مسيرة " السلام" ! إذ يحمل هذا القول شبهة الارتياح على أساس أن الرجل كان يشكل عقبة ، وممن ؟ من الإسرائيليين ومن الأمريكيين ، وباستخدام قليل من المنطق البسيط ، فإن هذا يعنى بالنسبة لى كمواطن عربى عادى أن الرجل كان يقف عقبة فى طريق تحقيق السياسة الإسرائيلية والأمريكية ! وهذا الموقف المصرى هو نفسه هو موقف الحكومتين الإسرائيلية والأمريكية ؟!

الأمر الثانى : تصريح نسب إلى وزير الخارجية المصرى يستخدم فيه مصطلح " الهجمات الإنتحارية " ، وصفا للعمليات الاستشهادية ، وهو تحول خطير فى الخطاب السياسى المصرى الرسمى.. كانوا يقولون " أعمال العنف " المتبادل ، وكنا نأسف ونخجل من أن تسوى حكومتنا بين أعمال مقاومة للتحرير ، وبين أعمال عدوان لمغتصبين ، وكنا " نُصبر" أنفسنا بأنها ربما مقتضيات سياسية ، أما أن يصل الأمر إلى حد وصف عمليات المقاومة بأنها انتحارية ، فهذه كارثة ، تحمل من المعانى والدلالات ما لا يقوى لسانى على البوح بها ، وإنما أعتمد على ذكاء القارئ فى فهم المقصود.

وفى الفترة نفسها التى كانت العصابات الصهيونية تمارس فيه عملياتها الإجرامية بعد الحرب العالمية الثانية كان الإخوان المسلمون يقعون فى خطأ تبدى فى بعض عمليات عنف مسلح ، مع الاختلاف الشديد بين الهدفين ، وبعد أن قامت دولة النازية الصهيونية ، استمرت تمارس - بصفة رسمية علنية متقدمة - نفس سياسة القتل والتدمير والاغتيال والتسميم والاصطياد .

وعلى الرغم من سجل طويل واضح استمر خمسين عاما للإخوان ، يخلو تماما من أى عنف يجئ من جانبهم ، مع حدوث عنف شديد وُجه إليهم ، يصدر من القيادة السياسية منذ أيام ذلك التصريح الغريب بأن الإخوان جماعة لها تاريخ إرهابى ! لست أتحدث نائبا عن الجماعة ، فهم أولى وأقدر منى على

ذلك ، لكنى كمواطن مصرى من خارجها أشعر بخجل شديد لهذا التباين فى التقييم والحكم ، فيوصف قائد الإرهاب الإسرائيلى شارون بأنه يسعى إلى السلام ، وسجله معروف ، هو وعشرات من الساسة الإسرائيليين ، بينما توصف مجموعة من مواطنى مصر بالإرهاب ، فأى إرهاب يرتكبوه ؟ دلونى عليه لأقف معكم وألعنهم كما تفعلون ؟!

بالنسبة للعدو الإسرائيلى يغفرون لهم ، رغم استمرارهم فيما يجرمون ، وبالنسبة لمواطنين مصريين لا يغفرون لهم ما فعلوه منذ أكثر من خمسين عاما ..عجبى ؟!

بل إن رحمة الحكومة المصرية تصل إلى درجة أن تسكت تماما بعد مقتل ثلاثة شهداء من جنود الحراسة المصريين ، داخل الحدود المصرية ، من قبل جنود الجيش الإسرائيلى ، وكأن دم المصريين قد تحول إلى ماء ، بل وتكافئ مصر العدو الإسرائيلى بالإفراج عن جاسوس ثبتت جريمته بعد تحقيق ومحاكمة ، قال إيه ؟ حتى يفرجوا عن طلاب مصريين " اصطادوهم " من على الحدود كى يساوموا به حكومتنا السنية فتفرج عن الجاسوس ، وشتان بين جريمة هذا وهؤلاء ، ثم نسمع عجبا لتبرير هذه " العملة " بأن دماء الطلاب المصريين تستحق الافراج عن الجاسوس ، والله ؟ وأين دماء الجنود الثلاثة الذين قتلوا غدرا وبغير ذنب وأثناء تأديتهم الواجب ؟

ويتم تتويج الهرولة نحو قاتلينا ومغتصبى أرضنا ، فيفتح لهم سوقنا التجارى والصناعى باتفاقية تتم من وراء ممثلى الشعب ، ويقولون أننا سوف نستفيد .. تماما مثلما يرضخ واحد فيخدم العدو بنقل معلومات إليه ، نظير " استفادة مالية " مكافأة له ، ويردد نفس المنطق : ألست مستفيدا من هذا ؟

عنترية مغشوشة*!!

طوال الأيام الماضية تصفع آذاننا تصريحات متعددة من قيادات عربية تنبئ لأول وهلة بأننا أمام قيادات شجاعة لا تخشى فى الحق لومة لائم ، همها الأول هو مصلحة الأمة ، وشغلها الشاغل مستقبل أبناء هذه الأمة ، ومفروض بناء على هذا أن تغمر الفرحة قلوبنا وأن تشرئب الأعناق زهوا وفخرا ، وأن تزول علامات الانكسار التى احتلت قلوبنا عبر أكثر من سنتين مضتا ، عندما احتل بلد إسلامى هى أفغانستان ، وتلاها ما حدث مما هو معروف ومشين.

لكن ، هل نحن بالفعل أمام مواقف شجاعة ؟

ليس ظنا ، وإنما هو ما قد يصل إلى يقين بأن تلك التصريحات لا تنبئ عن حقيقة ، وإنما هى تزيت بزيها ، ورفعت شعارها...

الشعارات المطروحة هى أننا لا نقبل أن تفرض علينا برامج إصلاح ، وإنما مثل هذه البرامج والتوجهات يجب أن تنبع من داخل بلداننا ، فنحن أعلم بشئون دنيانا ، ونحن أدرى بما ينفعنا وما يضرنا ، ونحن مغموسون فى واقع ثقافتنا وقضايانا ومشكلاتنا ، مما يتيح لنا الفرصة أن نبصر الطريق الصحيح إلى ما ينهض ببلادنا ويصلح أحوالنا.

هل يمكن لأحد أن لا يتفق مع مثل هذا الطرح ؟ كلا بطبيعة الحال...

لكن السؤال هو : وماذا تنتظرون حتى يجئ " الآخر " كى يطالب بإصلاح أحوالنا ؟ لو كان العدد الأكبر من القادة العرب " محدثى حكم " لقلنا أن الوقت لم يسعفهم بعد ، ولكن ما القول ، وهذا موجود على سدة الحكم منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وذاك منذ خمس وعشرين ، وفلان منذ أكثر من عشرين ، وعلان منذ كذا وكذا من سنوات ، لوكانت كل سنة تشهد خطوة

---

* جريدة آفاق عربية فى ٢٠٠٤/٣/٢٥

واحدة لما كان الحال هو الحال ٠على الفور يمكن لكوكبة المنتفعين من سوفسطائى هذا الزمان أن يبادروا بالزعم بأن هناك إصلاحات مستمرة عبر سنوات مضت وما زالت مستمرة ، والحق أن وقتى ووقت القارئ ثمين بحيث يستحيل أن أضيعه فى إيراد ما لا يحصى ولا يعد من الشواهد المبرهنة على زيف هذا الزعم ، فقط نرد بأن نطلب أن نختار عينة عشوائية من المواطنين السائرين فى الطريق ، بعيدا عن أعين آلات التصوير ، وحاصلين على ضمانات بألا يضاروا ، واسألهم عما صارت إليه الأمور فى هذا البلد أو ذاك ، وسوف تسمع ما يدمع العين ويبكى القلب٠

بل إننا لنتساءل : لماذا أصبحنا كما مهملا على قارعة طريق السياسة الدولية ؟ وفى مصر : لماذا هذا التراجع المستمر فى موقعنا فى ترتيب الدول وفقا لمقاييس التنمية البشرية ؟

هى شعارات زائفة لا تعكس عنترية حقيقية ، وإلا :

لماذا سارعت كثرة من القيادات قبل احتلال العراق تردد ما ما يقوله قادة أمريكا وبريطانيا من ضرورة أن يمتثل العراق لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة ويقوم بنزع ما شمى بأسلحة الدمار الشامل ، ثم تبين كذب هذا الادعاء ، وفقا لما أصبح يتردد على ألسنة هيئات وشخصيات لها مصداقيتها فى هذين البلدين المعتدين ؟

لماذا سارع هذا وذاك لتسليم مواطنين من بلده إلى الولايات المتحدة ، أو " تطفيشهم " رعبا وهلعا بأن يظن السيد الأمريكى بأن هذا وذاك ليس بدرجة كافية من الإخلاص " وسماع الكلام " ؟

هل كان يمكن للمعتدى أن يقوم بما قام به من غزو واحتلال للبلد العربى الوحيد الذى يجمع بين ثروات ثلاث : المياه ، والإنسان ، والنفط من غير " تعاون " و " تسهيل " من قادة عرب ؟!

لماذا لم يتسارع هؤلاء القادة ويواجهوا مشكلة جنوب السودان ، وهى

قائمة لأكثر من ربع قرن تستنزف هذا البلد المسكين ، وتركون ينزف حتى يجئ السيد الأمريكى ويفرض ما يراه من حل يحقق مصلحته دون مصلحة السودان ؟

لماذا يصمت هؤلاء أما الجرافات الإسرائيلية وهى تحاصر وتهدم الزروع وتقتل الضروع والبشر بصورة شبه يومية ولا يفتح الله على أحد منهم بإدانة صريحة وتحرك ما ويكتفون بهذه العبارة المتخاذلة " العنف المتبادل " ؟!!

لا أريد الاستطراد ، فالكثرة الغالبة من الناس أصبحت تعلم جيدا الإجابة عن مثل هذه التساؤلات ، وغيرها كثير ... يعلمون أن لا أحد لديه القدرة على المواجهة ، ونحن لا نطمع حقا فى ذلك ، وإلا لحملناهم فوق ما يستطيعون ، وكيف يستطيعون ذلك وهناك من الدول الكبرى القوية فى أوربا -روسيا وألمانيا وفرنسا - بدت لنا لأول وهلة ، أثناء حرب العراق وكأنها أسود جدد ، فإذا بهم بعد ذلك يطأطئون الرؤوس ويقبلون الأقدام ؟

بل إن التجمع العربى الرسمى لم يعد معبرا تعبيرا حقيقيا عن شعوبه حريصا على مصالحها - ومتى كان ؟ - بعد أن تطورت الأمور ليصبح بداخله عدد ممن يمكن تسميته " بالوكالات الأمريكية " تقف بالمرصاد لأية خطوة من شأنها أن تصلح من الحال الجماعى الكلى العام ، والجميع يعرف هذه الدول ، ومتيقن من الدور الذى أصبحت تقوم به!

ولم يستحدث هذا فقط منذ حرب الخليج الثانية ، فقد سبق لمحمد حسنين هيكل أن أشار فى إحدى دراساته أن مؤتمرا لقمة عربية عندما بدأت الاستعدادات لعقده فى إحدى العواصم العربية منذ سنوات ، جاء وفد من الموساد الإسرائيلى ، وسُهلت له الأمور بحيث استطاع أن يقيم وسيلة للتنصت على ما يجرى من مناقشات بين القادة العرب ، بطم قيادة هذا البلد العربى !!

فقط ، نريد اللعب على المكشوف ، فقد سقطت ورقة التوت الباقية يوم سقطت بغداد ، ولم يعد أحد من الشعوب " مختوما على قفاه " ، مهما تعددت

القنوات التلفزيونية التى تردد الزائف من المواقف ، ومهما تبارى المنتفعون من سوفسطائيو هذا الزمان فى التهليل والتصفيق على ما يصفونه بأنها مواقف شجاعة تستجيب لحاجات الأمة وتعر عن آمالها !!

فإذا سألت وكيف يعرف ملايين أبناء البلدان العربية الحقيقة ويظلون على حالهم لا يعبرون عما يعتمل فى صدورهم ، لأشرت لك إلى الألوف المؤلفة من الجند المدجج بأحدث الأسلحة والهراوات المحيطين بكل المواطنين ، حيث يمكن أن يتجمعوا ، وإلى أكثر الأساليب تطورا فى الرصد والتتبع لكل من تسول له نفسه بأن يرى غير ما يُراد له أن يرى ، بل إن من أحلامى الكبرى أن يجرؤ بلد عربى أن يعلن كم هو مرصود من المال لأجهزة الأمن الداخلى ، وتسليحها وعدد أفرادها ، خاصة وأننا (زمان) كنا لا ننزعج من ذلك على اعتبار أن بلداننا مهددة من هذه الدولة أو تلك من قوى البغى والاستعمار ، فلمن هذا كله ، والعدو لم يصبح خارجيا ؟

بل إن من أحلامى ما هو أهم من هذا ، أن يكون كلامى هذا كله غير صحيح ، فليس ما هو أدمى للقلوب حقا من أن نخطئ التقدير فيمن يكون العدو : أهو هذه القوى الباغية المتربصة ، أكلة الشعوب فى العصر الحديث أم هو قوى الداخل المتلهفة لاستعادة الكرامة والنهوض ؟

الوساطة الأمريكية
بين الجرح والتعديل*

لفقهاء المسلمين جهد رائع فى إخضاع ما يروى من أحاديث نبوية لمحكات تكشف الصحيح من الزائف ، وتصل فى دقتها حد وضع مستويات صحة وسلامة ، وقوة وحجية لكل حديث ، سموا العلم الذى يقوم العلماء على طريقه بهذه المهمة : علم الجرح والتعديل .

وليسمح لنا علماء الجرح والتعديل فى علوم الدين باستعارة هذا الاسم لمحاولة الكشف عن إمكان أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية " وسيطا " بين العرب والإسرائيليين فى قضية الصراع المحتدمة منذ عشرات السنين.

وعلى الرغم من أنه من المفروض أن نؤجل حكمنا إلى النهاية ، بعد سوق الأدلة والبراهين ، لكننا نصارح القارئ مقدما عندما نرى أن الوساطة الأمريكية " مجروحة " ، أى أنها لا تصلح أبدا فى عملية الوساطة هذه .

ولن نستغرق طويلا فى التاريخ ، على أهميته ودلالته ، منذ إعلان الدولة الصهيونية وسرعة اعتراف الولايات المتحدة بها ، وحملها دولا مختلفة على مشاركتها هذا الاعتراف ، حتى تحصل إسرائيل على العدد اللازم للموافقة على قيامها دوليا ، فهذا معروف ومشهور ،ولن نشير إليه بأكثر من هذا ، إذ قد يرى البعض أن هذا أمر ماض قد انقضى ، وأن الولايات المتحدة الأمريكية الآن غيرها عام ١٩٤٨ ، وسوف نسلم جدلا بذلك ، ولننظر إلى الماضى القريب ، والقريب جدا ..فهناك تقارير متعددة تؤكد أن الجيش الإسرائيلى يعد ثالث أو رابع أقوى جيش فى العالم ، وأنه ، منفردا ، يتفوق على جملة الجيوش العربية مجتمعة .

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠٢/٤/١٢١

ولو راجعنا تسليح الجيش الإسرائيلى فسوف نجده غالبا أمريكيا ، فالولايات المتحدة تزوده بشكل يكاد يكون روتينيا بالدبابات ومروحيات الأباتشى ، ومقاتلات ال ف ١٦ النفاثة .

وهذه القوة الرهيبة لمواجهة شعب أعزل ، ألا وهو الشعب الفلسطينى ، تحاصره فى كانتونات منفصلة عن بعضها وتفرض عليه من حين لآخر مجموعة إجراءات تقوم على الإغلاق والمحاصرة والسيطرة عليهم والتحكم فى حركاتهخم ، ثم لا تكتفى بذلك بل وتتحكم فى مواردهم الطبيعية ،وتستغل قواهم العاملة ، وتحظر اية جهود فعالة من أجل التنمية المحلية .

ومع الأسف الشديد ، فإن الجمهرة الكبرى من الأمريكيين لا يعلمون أن مثل هذه العمليات الإسرائيلية هم الذين يدفعون تكلفتها عن طريق الضرائب ، مما دفع بعدد من الأمريكيين ، ذوى الأصول العربية إلى الاحتجاج مرات عدة دون طائل ، ذلك أن إخوانهم بالأرض المحتلة يموتون ويتشردون وتهدم بيوتهم بتمويل منهم!!

والجمهرة الكبرى من الأمريكيين لا علم لهم بخصوصية العلاقات الاقتصادية بين بلدهم وإسرائيل مما تختلف فيه عن كثير من البلدان الأخرى التى تتلقى مساعدات مالية من الولايات المتحدة مما يتضح مما يلى :

١- من بداية العام ١٩٨٢ أصبحت المساعادت الأمريكية لإسرائيل تدفع مرة واحدة مع أول السنة المالية ، بينما يتم تقسيط ما يدفع للبلدان الأخرى على أربع مرات فى السنة .

٢- لا تلزم الإجراءات إسرائيل الإخطار عن نوعيات المشتريات فى الوقت الذى تطلب فيه البلدان الأخرى بالاقتصار على مقاصد يتم تحديدها بدقة ، وعليها الالتزام بالإبلاغ عن كيفية إنفاق ما تحصل عليه من مساعدات ، بل يمكن لإسرائيل أن تضم ما تتلقاه من

مساعدات إلى ما فى صندوقها العام مما يسمح لها بالتالى محو ما يكون بين أنواع المساعدات من صور تمايز . وبتأمل ما يستتبع ذلك نجد ممولى الضرائب الأمريكيين ، وبينهم مسلمون وذوو اصول عربية ، يساهمون فى الدعم المالى لاحتلال غير مشروع ، وفى زرع المستوطنات الصهيونية ، وما يصحب هذا وذاك من ضربات كثيرة للحقوق المدنية الفلسطينية .

٣- فإذا ما جئنا إلى " حجم " المساعدات الأمريكية لإسرائيل وجدنا أنها تشكل نسبة ثلث ما تقدمه الولايات المتحدة لجملة دول العالم ، فى الوقت الذى يشكل الإسرائيليون فيه سكانيا ما نسبته واحد بالألف من جملة سكان العالم . ولمزيد من الإيضاح ، فإن هذا يعنى أن ما تحصل عليه إسرائيل يفوق ما تحصل عليه إفريقيا بأكملها ولأمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبى ، إذا استثنينا مصر وكولومبيا .

٤- وأخيرا فإن الإحصاءات تقول أن جملة ما حصلت عليه إسرائيل منذ عام ١٩٤٩ إلى عام ٢٠٠١ يصل إلى ٩٤,٩٦٦,٣٠٠,٠٠٠ ، فإذا أضفنا جملة المساعدات التى تتلقاها إسرائيل العام الحالى (٢٠٠٢) ، فإن هذا المبلغ يصل إلى مائة بليون دولار .

إنها الحقيقة التى يجب ألا تغيب عن أذهاننا ، وهى أن أهمية إسرائيل للولايات المتحدة تكمن فى كونها ركنا اساسيا فى مشروع الثانية للهيمنة على المنطقة ، ويكفى أن نعلم أن ٩٩% من جملة مساعداتها لإسرائيل جاءت بعد هزيمتها للعرب عام ١٩٦٧ .

ومهما كان من مرارة هذه الحقائق ، فإنها لا تعنى المخاصمة والمقاطعة ، ففضلا عن أن هذا أمر لم نعد نستطيعه ، فإنه ليس من حسن السياسة ، ولكن فقط ألا نعول على الولايات المتحدة دائما ،وكأن السلام لن يأتينا إلا من خلالها !

عندما يفرز المجتمع لصوصا*

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ٠٠ (٤١)) الروم٠

أحيانا ما يجلس الإنسان مع نفسه ،محاولا أن ينسلخ من نهر الحياة المتدفق حوله ليعيش لحظات من الماضى ، من خلال التقليب فى بعض أوراقه القديمة ، ويحدث هذا غالبا عندما تشتد وطأة هذا الحاضر ،وكأن هروب الإنسان إلى لحظات ماضية هو محاولة لالتقاط الأنفاس ، كما أنها قد تكون محاولة لأن يستمد بعض الطاقة فى مواجهة هذا الحاضر الضاغط٠

كانت هذه الأوراق القديمة ،مجموعة مقالات كنت قد كتبتها فى أواسط الثمانينيات ، ثم غذا بواحدة منها تتثبت عيناى على عنوانها ، فإذا بى وكأنى أقرأ عنوانا لموضوع من موضوعات الحالة المصرية فى عام ٢٠٠١ ، على الرغم من المفارقة الكثيرة بين كان وما أصبح كائنا ٠

كانت هناك حوادث فساد وإفساد مما ارتبط بأسماء عرفناها فى أوائل الثمانينيات ،وكان بعضها يدور حول مئات ألوف من الجنيهات أو بضعة ملايين فى حدود أصابع اليد الواحدة ، مما أفزعنى فكتبت مقالا بهذا العنوان الذى تجده على مقال اليوم (عندما يفرز المجتمع لصوصا) ٠

لم تكن المسألة فى نظرى ،وما زالت هى أرقام الأموال المنهوبة والضائعة ، على الرغم من شدة حاجتنا إليها ،وعلى الرغم مما يسببه نهبها وضياعها من المزيد من الخسارة والتعطيل لطاقات التنمية فى هذا البلد المنكوب ،ولكن ما لا يقل عن ذلك أهمية ، الانتباه إلى صور خلل بنيوى فى المجتمع القائم ،مما أتاح الفرصة لمثل هذه النوعيات أن تظهر،وبالتالى فلم تكن المهمة الساسية التى كان ينبغى أن يستنفر المجتمع قواه المختصة للبحث

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠١/٧/١٦

فيها هى القبض على مثل هذه الشخصيات ، والحصول منها على ما سرقوه ، وإنما هى البحث عن هذه الصور من الخلل النبيوى فى النظام الاجتماعى بمفهومه العام الذى يشمل كذلك النظامين الاقتصادى والسياسى .

إن المسألة كانت أشبه بظهور صداع شديد فى الرأس ، الذى قد يدفع الإنسان مؤقتا إلى البحث عن حبوب لتسكين الصداع ، لكنه إن تكرر ، واشتدت وطأته ،وجب البحث فى الجسم عن " الأصل " الذى قد يكون فى النظر أو الأسنان ، أو ضغط الدم ، أوغير هذا وذاك من أسباب أصلية مما يقتضيه هذا من تحليلات طبية وصور أشعة ، ثم التشخيص الصائب الدقيق ،وبالتالى السير على طريق العلاج الحقيقى .

لم نفعل شيئا من ذلك ، إذ لم يتعد رد فعلنا استخدام الإسبرين لتسكين الصداع ، وبالتالى كان لابد أن يعود مرة أخرى ، بل ومرات ،وفى كل مرة يكون فيها أشد وطأة من المرة التى تسبقها ،ويصبح الفساد غير مركز فى فئة بعينها دون سواها أو شريحة خاصة من الشرائح الاجتماعية ،وإنما يصبح " وباء " مستشريا ، بدرجة وصورة تتناسب مع كل موقع وشريحة .

وهكذا لم يكن غريبا بالنسبة لى ، عندما أخذت " أرص " أمامى العديد من التقارير والصحف والمقالات والاستجوابات البرلمانية التى تصرخ كلها بصوت عال شاكية من الفساد الذى توغل واستفحل وأصبح ديناصورا ..لم يكن غريبا ألا أجد أصدق من العنوان القديم نفسه أشارك به فى عملية " الصراخ " طلبا للنجدة .. ،سفينة نوح أخرى تقفز عليها هربا من هذا الطوفان القذر ،وهذا أمر محزن حقيقة ، أن تمر سنوات عبر سنوات ، فإذا بك لا تجد بأسا من أن تعيد وتكرر ما سبق لك أو لغيرك أن كتبه أو قاله منذ عدة سنوات . إن هذا إن دل على شئ فإنما يدل على أننا تعودنا على الآذان فى مالطة نطالب الناس المسلمين الذين نتصورهم يقيمون فيها بأن يهرعوا إلى الصلاة ، بينما لم يبق فيها مسلم !!

ودعونا نوجه أبصارنا إلى " عينات عشوائية " من صور الفساد ونبدأها بتلك التى يتورط فيها صغار ،ومتوسطون ،مع لفت الإنتباه غلى أن ما نشير إليه هو " ما تم ضبطه " ،وبالتالى ، فمن الممكن تذكر المثل ذى المغزى القائل " وما خفى كان أعظم ".

فتشير تصريحات رئيسة هيئة النيابة الإدارية عن حصيلة عام إلى أن المخالفات المالية للموظفين بلغت ٣٨ الفا و٨٣٩ مخالفة ، وأن جرائم الاختلاس زادت إلى ٣٥٢٦ قضية ، وهناك ٣٠٠٠ قضية رشوة و ٤٠٥٨ قضية إهمال وإفشاء اسرار العمل .

ويعترف أحد المصادر المسئولة فى وزارة التنمية المحلية بأن النيابات أجرت ٢٥٠ ألف تحقيق مع مهندسى الأحياء خلال العام المالى ٢٠٠٠/٩٩ ، أى ما يقرب من ٧٠٠ تحقيق يوميا ، علما بأن هؤلاء المهندسين إنما هم فى أغلب الأحوال " كبش فداء " لمسئولين كبار يستطيعون أن يفلتوا من المحاسبة .

أما الجهاز المركزى للمحاسبات ، فإن تقاريره " مفزعة " حقا ، لا يتسع المقام حتى لتلخيص ما فيها ، ويكفى الإشارة فقط إلى بند من بنوده يشير فيه غلى أن قيمة الطاقات غير المستغلة فى شركات قطاع الأعمال قد بلغت أكثر من ستة مليارات جنيه ،وقد اشار التقرير إلى أن بعض هذه الميارات قد أهدرت فى شراء آلات ومعدات الإنتاج المحلى أو المستورد دون الحاجة إلىهذه المعدات ، كما انتقد التقرير الرقابى غياب دراسات الجدوى الدقيقة قبل تنفيذ المشروعات بهذه الشركات .

وحول الحساب الختامى للهيئات الاقتصادية يكشف التقرير عن وجود أكثر من ٢,٣ مليار جنيه تجاوزات فى الهيئات الاقتصادية وحدها !

ويكشف الجهاز المركزى للمحاسبات أيضا عن أن منحة صندوق أبو ظبى للتنمية الخاصة بمدينة الشيخ زايد والبالغ قيمتها ٢٠٠مليون دولار

أمريكى ، لا يوجد تحليل لمفرداتها أو لمستندات الصرف المؤيدة لها ، كما يكشف كذلك عن أن التعديات على أراضى التجمعات والمدن الجديدة بلغت مساحتها نحو ٢٠٨ ملايين متر مربع ، ولم يتم تقنين وضع أكثر من ٢٣٣ مليون متر مربع ، ولم تتم متابعة تنفيذ سداد ٨١ مليون جنيه مقابل حق الانتفاع على مساحات مئات الأفدنة فى جهاز العاشر من رمضان لعدد من الجمعيات الخاصة ،ويضاف إلى ذلك ما أشار إليه الجهاز من مخالفات أخرى بمئات الملايين من الجنيهات فى المدن الجديدة ببنى سويف وبدر والشروق ،وعمليات بيع الراضى الصحراوية .

وفى بلد يعيش ٤٠% من سكانه تحت خط الفقر ،نجد موظفا فى البورصة المصرية يتقاضى مبالغ تصل إلى ما يقرب من ٦٠٠ ألف جنيه سنويا ، أى خمسين ألف جنيه شهريا ،وعندما تفتش فى المهارات والمؤهلات الخاصة ، فلن تجد أبدا ما يبرر هذا الرقم المفزع حقا ،ويكفى أن تتذكر عزيزى القارئ أن الذى يلتحق بكلية مثل كلية الهندسة ، بعد الحصول على ما يزيد عن ٩٥% فى الثانوية العامة تأتى غالبا نتيجة دفع مبالغ باهظة دروسا خصوصية ، ويقضى خمس سنوات يدفع فيها ألوفا أخرى ، عندما يتخرج يعين على الدرجة الثالثة بمرتب أساسى ٤٨ جنيها شهريا تصل إلى ١٣٠ جنيها ، بعد إضافة العلاوات الاجتماعية ،وبعد ست سنوات ، عندما ينتقل إلى الدرجة الثانية ، يصبح ما يحصل عليه ١٦٠ جنيها ..وهكذا قل بالنسبة لخريجى الجامعات مما لابد معه أن تحدث صور لا حصر لها من الأزمات والانحرافات والمشكلات .

وبطبيعة الحال لا يمكن أن ينفرد شخص واحد بمثل هذا المرتب الفلكى ، إذ لابد أن تحيط به كوكبة أخرى من المحظوظين من أبناء كبار المسئولين ، " بنوبهم من الحب جانب " ،حتى تغمض العيون عن واقع الحال ،وهناك القنوات المتعددة التى " ترش " على كل هؤلاء ،ومن هنا نجد بنودا مثل

٢٧٧ ألف جنيه (مزايا عاملين) ٠ بند بدل انتقال وحضور جلسات يبلغ ٧٤ ألف جنيه ،وبدل سفر وانتقال داخلى ، ويبلغ ٩٤ ألف جنيه ، وبند استشارات يبلغ ٥٩٠ ألف جنيه ،ومصروفات سيارات وتبلغ ٨٥ ألف جنيه ، وضيافة تبلغ ١٨٨ ألف جنيه ، وأمن وحراسة ٩٣ ألف جنيه ، ومصروفات بوفيه ١٧ ألف جنيه ، وتليفون وفاكس ٢٩٨ ألف جنيه ، وصيانة وحاسب ١٠٨ ألف جنيه ، وكتب وصحف ٥٩ الف جنيه ، ومصروفات طبع نشرة ٢٣١ ألف جنيه ٠٠وهلم جرا ٠

مئات الألوف الأخرى على بنود مشابهة ، وربما يقول قارئ إن دخل البورصة لابد ضخم بحيث يتيح هذا الإغراق الكبير فى العطايا ، لكن هذا غير صحيح ، ودليل ذلك أن إجمالى إيرادات البورصة فىعام ١٩٩٩ وصل إلى ١٩,٨٨ مليون جنيه ، لم يرتفع إلا ارتفاعا طفيفا ليصل بالكاد إلى ٢٠,٥٦ مليون جنيه فى نهاية عام ٢٠٠٠ ،ولنقارن هذا بجملة المصروفات التى كانت قد بلغت ١١,٩ مليون جنيه عام ١٩٩٩ ، ثم إذا بها تقفز لتصل إلى ١٧,٤ مليون جنيه بنهاية عام ٢٠٠٠ !!

وحتى تكتمل الصورة المأساوية فلابد أن نضيف إلى ذلك تآكل رأس المال العامل للبورصة من ١٤,٥ مليون فى نهاية عام ١٩٩٩ ليصل إلى ٣,٤ مليون جنيه بنهاية عام ٢٠٠٠

أما أصول البنوك ، فتلك حكاية أخرى تقتضى وقفة خاصة ٠٠

الخلاصة ، أن مصر ليست دولة فقيرة ،وإنما هى دولة " منهوبة " ،وإذا كانت مصر قد عرفت بأنها " محروسة " التى يحميها الله من المهالك ، لكن هذه الحماية لا يمكن أن تستمر ما لم تحدث يقظة قومية ، تصحح الخلل الهيكلى الذى ينتج مثل هذه الصورة من السرقة والنهب والإهمال ٠٠

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ٠

لا عفا الله عما سلف* !

فى إشارة ذكية للواء صيدلى متقاعد إبراهيم رياض كامل فى بريد الأهرام ، طرح تساؤلا على أساتذة القانون الجنائى مؤداه : ما هى عقوبة رجل الأمن فى إسرائيل أو فى أمريكا إذا أطلق الرصاص على شخص ما ، غير فلسطينى ، فقفه بطوبة ؟ وما هى العقوبة إذا قتلت الرصاصة ذلك الشخص ؟ الإجابة معروفة يفسرها هذا الذى أصبح مشهورا بما يسمى ب " ازدواجية المعايير " ، فالعقوبة لابد أن تكون رادعة إذا كان المعتدى عليه غير عربى ، أما إذا كان عربيا ، فلا حياة لمن تنادى .

وإسرائيل ، رغم مرور أكثر من نصف قرن على ما أسموه " بالمحرقة " أو الهولوكوست ، ما زالت تستثمر أحداثها ووقائعها ، بل وتضخم فيها ، بينما ما حدث وما زال يحدث للفلسطينيين منذ أكثر من نصف قرن يفوق فى جملته وبشاعته ونتائجه هذا الذى زعموه قد وقع لليهود ، من قبل على الأرض الأوروبية .

ومن المدهش حقا أن يحرص الإسرائيليون على أن يظل الحديث حول الهولوكوست مستمرا وحيا ، يعذب ضمير العالم ، خاصة الأوربى ، لكننا إذا أردنا تكثيف الضوء على " عذابات " الفلسطينيين ومحرقتهم على أيدى الإسرائيليين عشرات السنين ، وتبلغ الآن ذروتها منذ اندلاع الانتفاضة هب بعض من قومنا يعيبون علينا ذلك ،ولسان حالهم يقول " عفا الله عما سلف " . والملفت للنظر حقا أن هذا الشعار نفسه يسقط عندما نقف فى مواجهة أخطاء ماضية لفريق منا ضد فريق آخر . هنا تظل الذاكرة حية لا تريد أن تغفر أبدا ، ولا أريد أن أستطرد فأسوق العديد من الأمثلة حتى لا نخرج عن

---

* جريدة الوفد فى ٢٠٠١/١/١٢

موضوع المقال ، ومن ثم يصبح من المطلوب الا نكف عن تذكير أنفسنا وتذكير العالم بالمحارق المتعددة التىتقيمها إسرائيل للفلسطينيين ٠

فعلى الرغم من توقيع اتفاقيات سلام ، إلا أن الأرض الفسطينية لم تعرف الأجواء الحقيقية للسلام ، ففى دراسة أعدها معهد واشنطن للدراسات الاستراتيجية فى أكتوبر عام ١٩٩٩ ، فيما نقل ط محمد سعيد قدرى " تضمنت مقارنة بين حوادث العنف وأعداد القتل خلال ٦٩ شهرا سبقت توقيع إعلان أوسلو (من ٩ ديسمبر ١٩٨٧ إلى ١٣ سبتمبر ١٩٩٣) وخلال ٧٠ شهرا بعد التوقيع (من ١٤ سبتمبر ١٩٩٤ إلى ٦ يوليو ١٩٩٩) ، أى قبل انتفاضة الأقصى ، تقول النتائج أن الفترة الأولى وقع فيها ٩٧٣ حادثا بمعدل ١٤,١ كل شهر ، وفى الفترة الثانية انخفض العدد إلى ٢٥٤ حادثا ، بمعدل ٣,٦ كل شهر ٠ فى الفترة الأولى بلغ عدد القتلى من الإسرائيليين ٣١٢ قتيلا (٣,١ كل شهر) ، والفلسطينيين ١٢٣٦ قتيلا (١٧,٩ كل شهر) ٠ وفى الفترة الثانية بعد توقيع اتفاقيات أوسلو ، قتل من الإسرائيليين ٢٧٨ قتيلا (٤,١ كل شهر) ،ومن الفلسطينيين ٣٩١ (٥,٦ كل شهر) ، وبالتالى فقد كان المنطقى ألا تنمو ثقة ، بل على العكس من ذلك أن ينمو المزيد من مشاعر الشكط والريبة فىحقيقة شعارات السلام التى رفعت ٠

كذلك فى ظل الفترة التى أعقبت توقيع اتفاقيات أسولو لم تتوقف إسرائيل عن التمدد فى الأرض وابتلاعها ،وأصبح معروفا للجميع أن إسرائيل خلال الفترة الماضية تتمدد على الرض بصورة مطردة ، عن طريق المستوطنات والمصادرات المستمرة للأراضى الفلسطينية ،وعلى سبيل المثال ، فحين وقع الاتفاق قبل سبع سنوات كان يقيم على أرض الضفة والقطاع – دون القدس الشرقية – نحو ١١٠ آلاف مستوطن يهودى ،وفى شهر يونيو الماضى ٢٠٠١ ارتفع عددهم إلى ما يقرب من ٢٠٠ ألف مستوطن ، يضاف إليهم

١٥٠ ألف مستوطن يقيمون فى مناطق القدس الشرقية ومحيطها ، ووضع هولاء أيديهم على مساحات شاسعة من الأرض من أجل توسيع المستوطنات القائمة ، وإقامة مستوطنات جديدة ، وبلغت مساحة الراضى الفلسطينية المصادرة الف دونم (الدونم ألف متر) ، منها مساحات صودرت تحت عناوين المناطق الخضراء والشوارع الالتفافية ، والربط بين المستوطنات .

وإذا كان البعض ما زال يتصور أن حزب العمل هو " حمائم " فى مواجهة " الليكود " الذين هم " صقور " ، فإننا نلفت الانتباه إلى تصريح لباراك يفخرفيه أنه لم يتورط فى تسليم متر واحد إلى الفلسطينيين طوال فترة حكمه . كما نلفت الانتباه إلى أن ما يحدث منذ الثامن والعشرين من سبتمبر لم يحدث مثله فى عهود أخرى قريبة . بل إن باراك خطط لعملية فصل عنصرى بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، وتتضمن هذه الخطة إقامة طوق عسكرى حول الراضى الفلسطينية للمنطقتين أ ، وهى تحت السيطرة الكاملة للسلطة الفلسطينية ،وب ، وتقع تحت السيطرة الفلسطينية إداريا ، والسيطرة الإسرائيلية عسكريا . أما المنطقة الباقية المعروفة باسم ج ، ومساحتها نحو ٥٠% من أراضى الضفة الغربية و ٤٠% من أراضى قطاع غزة فتوضع تحت السيطرة الإسرائيلية الكاملة ، مع ضم قسم كبير منها إلى حدود إسرائيل الجديدة ، ويوضع احتمال أيضا أن يقوم الجيش الإسرائيلى بإعادة بإعادة احتلال بعض المناطق الخاضعة حاليا للسيطرة الفلسطينية إذا ما دعت الضرورة لذلك ، وفق ما صرح به الجنرال عمرام مشناع ، رئيس بلدية حيفا وأحد مساعدى باراك الأساسيين .

ولا يمر يوم إلا وتحمل الأنباء إلينا صورا بشعة للوحشية الإسرائيلية فى مواجهة الانتفاضة ، فقد قارب عدد القتلى من الفلسطينيين حتى الآن ما يقرب من الأربعمائة ، فضلا عن آلاف الجرحى، من بينهم مئات سوف يعانون من الإعاقة بقية حياتهم ، ويوجد ألوف من الشهود على استخدام إسرائيل

لترسانتها من الأسلحة السريعة التى تسحق العظام والأعضاء الداخلية للإنسان ، الطلقات التى تشطر الرأس ، الرصاص المطاطى الذى ينسف العينين ، الصواريخ التى تدمر المنازل وتحرقها ، القنابل التى تشتعل النيران فى أحياء بكاملها فى منتصف الليل ، آلاف الفلسطينين الذين يضطرون منازلهم ليلا خوفا من هجوم بالصواريخ والرصاص ، مئات البشر الذين تهدمت منازلهم بالفعل نتيجة للهجمات الإسرائيلية، وآلاف غيرهم يعيشون حالة فزع خوفا من أن يكونوا الهدف التالى للهجمات .

ومع كل هذه الضراوة والوحشية ، فما زال الفلسطينيون يواجهونها بكل بسالة وروح استشهادية ، ولعل أروع مشاهد الانتفاضة حقا ، تلك التى تتعلق بالأطفال ، فالإسرائيليون يروجون أن الآباء والأمهات ، بل والقيادة الفلسطينية ، هم الذين يدفعون بالأطفال إلى ساحة القتال ، وبالتالى ، فبدلا من أن يكسب هؤلاء الأطفال الإعجاب والتقدير والتعاطف من الرأى العام العالمى ، يتجه شعورهم بالغضب إلى " الكبار " الذين صورتهم إسرائيل محرضين للأطفال ، ففى برنامج إخبارى أذيع فى التلفزيون الإسرائيلى فى آخر أكتوبر الماضى أجرى مقدم البرنامج مقابلة على الهواء مباشرة مع أحد كبار ضباط الجيش الإسرائيلى فى قطاع غزة ، ووجه إليه سؤالا نصه : هل تستطيع أن تحدثنا اليوم كيف أن السلطة الفلسطينية تستعمل الأطفال فى الجبهة ؟ ويطلق مقدم البرنامج على هؤلاء الأطفال مصطلح " عرفات يوجين " ، على غرار " هتلر يوجين " ، أى شباب هتلر ،حتى يوحى للعالم بأن هؤلاء الأطفال إرهابيون.

والحق أن العكس هو الصحيح ، فالكبار كثيرا ما يحاولون إبعاد أطفالهم عن أجواء المعارك ، لكن الأطفال أنفسهم يواجهون بصور لا تعد ولا تحصى من الاستفزاز الذى يعبئ مشاعرهم بالكراهية والرغبة العارمة فى الانتقام من مصدر المآسى التى يعيشونها دائما ، فكثيرا ما يجد الأطفال

الطريق إلى مدارسهم مغلقا بفعل قوات الحصار الإسرائيلى ،ويضطرون إلى سلوك طرق أخرى التفافية طويلة وعرة ، بحيث قد يضطر الطفل منهم إلى المشى مسافة كيلومترين أو ثلاثة ، حتى يصل إلى المدرسة ، وهو كثيرا ما يجد من العسير عليه أن يذاكر ،لأن الكهرباء فى يد إسرائيل التى كثيرا ما تقطعها . كما أن المياه يمكن أن تقطع عدة أسابيع ،ولا يكون أمامهم إلا استعمال مياه الآبار ، مع ما يترافق مع هذه الوسيلة من معاناة ومخاطر . ويؤكد محللون أن اندفاع حكومة باراك فى طريق العنف والتوسع فى صوره وأشكاله وأدواته كانت بداية إغماض عين القيادة الإسرائيلية عن أعمال عنف عنصرية بدأت من جانب المستوطنين ، ثم إذا بالموقف يتطور إلى شكل من أشكال المباراة بين الحكومة والمستوطنين على أيهما أكثر استخداما للعنف ضد الفلسطينيين ،وكأن هذا معيار الوطنية والإخلاص للدولة العبرية .

وتلخص الصورة التى نقلتها بعض الشبكات التلفزيونية العالمية من داخل واحدة من المستوطنات الإسرائيلية هذا الاتجاه الاستفزازى ، فقد وقف المستوطن سرجر فيشر بين زملائه صائحا " إن العرب لا يفهمون سوى القوة ، وإذا نحن قلنا سنطلق عليهم النار ، فمن الضرورى أن ننفذ ذلك ،ذلك أن دماء المستوطنين ليست دماء حمرا مثل بقية الإسرائيليين " .

ولأن هؤلاء أعلى صوتا وأكثر حركة ونشاطا ، ولأن هناك المزايدات السياسية ، إذا بالمستوطنين يتحولون إلى قوة تأثير واضحة على الرأى العام الإسرائيلى ،وترتفع حدة الأصوات . وفى مناخ مثل هذا يزداد التوتر ، وتكثر المواجهات ، وتكون إحدى النتائج الخطيرة أن يميل المجتمع أكثر إلى القيادات اليمينية الأكثر تطرفا ، ولعل هذا يفسر هزيمة شيمون بيريز أمام نتنياهو فى الانتخابات السابقة ، وما تشير إليه استطلاعات الرأى فى الفترة الأخيرة إلى تقدم نتنياهو على باراك قبل انسحاب الأول ، وتشير كذلك إلى تفوق نسبى أحيانا لشارون .

كيف يخلط النظام الحاكم
بين الدين والسياسة*

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ..

توجيه أخلاقى شهير نقوله لمن يتصدى لنصح الناس وتربيتهم ، لكن نظامنا السياسى ، ينهى عن خلق ويأتى مثله !!

فمن المقولات التي يرددها النظام الحاكم في مصر منذ عدة عقود " لا سياسة في الدين ، ولا دين في السياسة " ، دون توقف أمام مفهوم السياسة نفسه لنعرف ما المقصود به هنا ؟ ولا التوقف أمام الوظيفة الحقيقية للدين ، حيث تكون الإشارة هنا غالبا متجهة إلى الدين الإسلامى ، لأن الإخوة المسيحيين لا يدعون أن المسيحية تعنى بالسياسة ، بينما يؤكد على ذلك الجمهرة الكبرى من المسلمين ، أو بتعبير أدق " الإسلاميين " .

فإذا تحدد مفهوم السياسة – كما نفهمه – بأنه الشأن العام الذى يخص مصلحة مجموع الأمة ، وحددت وظيفة الدين– وفق فهمنا أيضا– في الإسلام بأنه "منهج حياة " ، لن تجد تعارضا بين الأمرين ، لكننا لن نتوقف عند هذه القضية لنناقشها ، فغرضنا هنا أمر آخر ، وهو مبنى على التسليم – جدلا – بمقولة فصل بين السياسة والدين ، لنؤكد أن النظام الحاكم نفسه يمارس الكثير مما يؤكد خلطه بين السياسة والدين ، بكل معنى من المعانى التي يمكن أن تساق عن كل من السياسة والدين .

وأبرز ما يمكن أن يساق هنا هو ذلك التناقض بين المقولة المذكورة وبين ما جاء نصا في المادة الثانية من الدستور القاضية بأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع في مصر ، فإذا جئت على سبيل

---

* جريدة الدستور ، ٢٠٠٨/١٠/٥

المثال إلى القانون المنظم لتكوين الأحزاب ووجدت أنه ينفى الموافقة على وجود حزب تكون مرجعيته دينية ، فإنك بهذا تلمس تناقضا صارخا بين القانون وبين المادة الدستورية ، وبالتالى فإن حزبا مثل حزب الوسط " تحت التأسيس " ، وكذلك الإخوان المسلمين ، يستحقان الموافقة عليهما بنص الدستور ، ومنعهما هو مخالف له . وبالتالى فالوقوف ضد هذين التنظيمين إنما هو استغلال للسياسة ضد المرجعية الدينية .

فإذا ما تأملنا في سر المحافظة على وجود هذه المادة في الدستور والتى ورثها النظام الحالى عن نظام السادات وجدت " السياسة " تطل برأسها ، ذلك أن النظام يدرك تمام الإدراك مدى قوة المشاعر الدينية لملايين الناس في مصر ، وحذف مثل هذه المادة في التعديلات الدستورية التي جرت عام ٢٠٠٥ ، كما طالب بذلك البعض ، يمكن أن يفجر غضبا عارما بين المسلمين ، فكأن النظام ينافق الناس من غير إيمان حقيقى بالمعانى الواردة في المادة ، وإلا لتغيرت أمور كثيرة في الدولة ، ويكون المعيار الأساسى للنظام هنا هو نفس المقولة الشهيرة الموروثة عن " ميكيافللى " القائلة بأن الغاية تبرر الوسيلة ، وفى هذا تبرز " السياسة " بأجلى معانيها .

وانظر إلى مؤسسة ضخمة عريقة مثل الأزهر التي يصفها الكثيرون بأنها مؤسسة دينية ، بينما لو شئنا الدقة فهى ليست كذلك ، ذلك لأن رئيسها يعين بقرار من رئيس الدولة ،والعاملون بها يحتلون مواقع ووظائف ومستويات تنشأ وتشكل بناء على قوانين مدنية ، مثل أعضاء هيئة التدريس بجامعة الأزهر ، حيث تتحكم في التعيين والترقية قواعد العمل الجامعى ، ولا يوجد في الإسلام ما يسمى " برجل " الدين ،وإنما الصحيح أن اسمه " عالم " الدين ،وهى مرتبة مفتوحة لكل من يريد إذا حصل ودرس ما يكفى للتبحر في أحد علوم الدين .

ولو كان شيخ الأزهر يتم اختياره من بين علماء الأزهر بالانتخاب لكان الموقف مختلفا تماما ، لكن النظام حريص أشد ما يكون الحرص على ألا يفلت أمر مثل هذا من يديه ، ومشهور كيف كان النزاع مع الملك فؤاد الذى جعل القضية قضية حياة أو موت ، فلماذا هذا الحرص المتوارث بين نظم الحكم المختلفة ، سواء في العهد الملكى ، أو العهد الثورى أو العهد الحالى الذى يصف نفسه بالليبرالى ، على أن يظل تعيين شيخ الأزهر ، وبالتالى الأزهر كله تحت عباءتها ؟ الإجابة ليست عسيرة ، فهى : لكى تظل الدولة مسيطرة على الرمز الأكبر للشأن الدينى في مصر ، وعن طريقه يمكن التحكم والتوجيه والسيطرة .

وفى كتابنا (دور الأزهر في السياسة المصرية) الذى نشر في سلسلة كتاب الهلال عام ١٩٨٦، صفحات طويلة تؤكد كيف أن الأزهر عندما كان " مستقلا " بمشيخته وبموارده استطاع أن يكون " صوت الجماهير " ليدافع عن مصالحها أمام طغيان من تولى مصر من حكام . ولعل الدور الأبرز والأشهر ، قيادة الثورة ضد الحملة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ، وأكثر من هذا ، قيام علماء الأزهر باختيار حاكم مصر عام ١٨٠٥ ، وهو محمد على ، والذى وعى خطورة استقلال الأزهر وقوته ، فبدأ هو – الذى تولى الحكم عن طريقه – سلسلة الخطوة التي أدت بالأزهر إلى أن يكون مؤسسة حكومية ، وأن يكون شيخ الأزهر " موظفا " ، مهما علا مقامه ورتبه فهو مؤتمر بما تراه الحكومة ، لا يستطيع عن ذلك حولا !

ولعل هذا يفسر لك كيف تصدر التصريحات من قبل شيخ الأزهر في الاتجاه الذى يعزز سياسة الدولة ،لا يقرب أبدا مما يخالفها ، وأشهر هذه المواقف ، عدما ثارت القضية الخاصة بصحة الرئيس في عام ٢٠٠٧ ، ووصف الذين نشروا هذه الإشاعة بأنهم قاموا بشهادة زور ، ثم أتبع هذا بأن شاهد الزور لابد أن يجلد !! لكنه أبدا لم يتحدث عن حرمة تجويع مليون

ونصف فلسطيني ، حيث انكشف أن النظام المصري يساهم في هذا الحصار ، ولا فتح فمه عندما غزت أمريكا دولة مسلمة كبرى هي العراق ..إلى غير هذا من مواقف ..

قد يقول البعض إن عدم حديث الشيخ عن مثل هذه الأمور هو التزام بألا سياسة في الدين وألا دين في السياسة ، فنقول أن في هذا لعبا بالألفاظ ، فلماذا يكون الحديث المؤيد حلالا ، والحديث المعارض حراما ؟ بل إن مجرد السكوت عن بعض القضايا المهمة هو سياسة أيضا ، وهو ما يذكرنا بما قاله فيلسوف اليونان (أرسطو) وهو يدافع عن الاشتغال بالفلسفة ضد البعض ممن حرموها ، إذ قال " فلنتفلسف إذا اقتضى الأمر أن نتفلسف ، فإذا لم يقتضي الأمر أن نتفلسف ، فلنتفلسف لنثبت أن التفلسف أمر لا لزوم له " !!

وغير خاف كيف أن جهات أجنبية ، وبخاصة " أمريكية " ، لا تقول تتدخل في مناهج التعليم الأزهري ، لكنها من خلال مقابلات ، تجرى أثناءها مناقشات تتناول ، ولو بطريقة غير صريحة ، بعض الجوانب ، أو من خلال تصريحات من هذا المسئول الأمريكي أو ذاك ، فإذا بعملية تغيير تجرى ، وربما عن طريق توجيهات حكومية مصرية ، والذي يقارن بين مناهج التعليم الأزهري الآن وما كانت عليه من ربع قرن يستطيع أن يلمس هذا بكل وضوح .

وهو الأمر الذي جرى كذلك في مناهج الدين في التعليم العام ، فلن تجد أبدا ما يشير إلى الجهاد ، مع أنه فريضة على القادر عليه ، ولن تجد أية آية قرآنية تذكر مكايد اليهود وغدرهم ..ألم يكن هذا تدخلا للسياسة في الدين رسميا ؟

بل إن وجود مقرر في مناهج التعليم المدني عن الدين هو إعلان بربط بين السياسة والدين ، ذلك أن هذا المقرر تقوم بأمره وزارة التربية والتعليم ، وهي – عن طريق من تختاره ووفق توجيهاتها – تحدد ما يتم تدريسه وما لا

يجب ، وما ينبغى أن يدون في الكتب المقررة وما لا ينبغى ، وبطبيعة الحال ، يتم كل هذا وفق توجيهات السلطة الحكومية .

وما قلناه عن الأزهر يقال أيضا عن " وزارة الأوقاف "، حيث أن وجودها نفسه ، هو أجلى صورة لما نذهب إليه ، خاصة وأن فيها مجلسا أعلى يسمى " الشئون الإسلامية " أشرُف بعضويته ، وهو يقوم بأعمال رائعة حقا ، لكن تظل مقولتنا مع هذا صحيحة ، وهى أنه بذلك هو الآخر إذ يعمل تحت مظلة الدولة ، إنما يعبر عن مناقضة النظام القائم لمقولته الشهيرة .

والحديث عن وزارة الأوقاف يطول من حيث خضوعها إلى حد كبير لتوجيهات أمن الدولة ، سواء في تعيين الأئمة أو غلق المساجد فورا عقب الانتهاء من الصلاة ، والقضاء قضاء مبرما على الوظيفة التي مارستها المساجد طوال أكثر من ألف عام من حيث كونها " بيوت الله " كانت أبوابها مفتوحة طوال اليوم ، فمنع أمن الدولة ذلك .

ومُنع الخطباء يوم الجمعة أن يتناولوا المشكلات المجتمعية ، بادعاء أن ذلك " تهييج " للناس ، ولعب بالسياسة ، حتى ولو كان الموضوع عن احتكار السلع ، وسرقة المال العام وسرقة أراضى الدولة .. هنا يكون التركيز – بالأمر – على عذاب القبر أما عذاب الشارع ، فهذا سياسة ..إن هذا المنع نفسه سياسة بالثلث ، وفقا لمنطق أرسطو الذى أشرنا إليه .

وانظر كذلك إلى ما يقوم به رئيس الدولة – أو من ينيبه – من صلاة الجمعة الأخيرة في رمضان ، ثم صلاة العيد ، ويعلن ذلك في أجهزة الإعلام الرسمية عدة مرات ، أليس هذا خلطا بين السياسة والدين بصورة واضحة ؟

وهل أتاك حديث ليلة القدر من كل عام ، حيث تقيم وزارة الأوقاف احتفالية ضخمة لتوزيع الجوائز على حافظى القرآن ، وكذلك جائزة مبارك للدراسات الإسلامية ، حيث حضور مكثف من قيادات الدولة كلها ، وعلى رأسها رئيس الجمهورية ، الذى يلقى كلمة تمس الشأن الدينى العام ، وتسأل

: لم سميت الجائزة الكبرى في الدراسات الإسلامية باسم رئيس الدولة ؟ لقد كان لى حظ الحصول عليها عام ٢٠٠٧ ، وسلمنى رئيس الدولة هذه الجائزة يومها ، وكم كنت أود أن أهمس في إذنه : أليس هـذا خلطـا بـين الـدين والسياسة ؟

الأمثلة كثيرة ، ومتنوعة ، وتحتاج إلى مزيد من الصفحات ، لكننا نكتفى بهذه النماذج لنؤكد أن المقصود مما تردده الحكومة هو الحيلولة بـين قـوى إسلامية وبين الوصول إلى السلطة ، حيث تعرف الحكومة أن الفرصة لـو أتيحت لهذه القوى أن تخوض الانتخابات بحرية حقيقة ، فإنها سوف تكتسحها وتفوز ٠٠وهذا هو بيت القصيد ٠٠٠ فالمسألة إذن ليست مبـدأ يـؤمن بـه النظام القائم ، وإنما هى في ذاتها ٠٠لعبة سياسية غير نظيفـة ، شـعارها " اللى تغلب به ٠٠إلعب به " !

أوهام تبددت ...
وحقائق تأكدت*

صدق الله العظيم ، القائل فى محكم تنزيله : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) ...

فالعدوان الفاشى على لبنان بلغ درجة من الوحشية حدا جعل واحدا مثلى يعانى طوال فترة العدوان من صراع عنيف بين أمرين ، أولهما الرغبة فى مشاهدة الأنباء لمتابعة الموقف ، وثانيهما ، حسرة تكاد تمزق قلبى وأنا أرى المنازل تهدم والأطفال تقتل والطرقات والجسور تقصف ، وكل ما فيه نفع وفائدة يخرب بأيدى الفاشيين والنازيين الجدد ، فلا أجد بنفسى قدرة على تحمل رؤية هذا ، فإذا بى بعد خمس دقائق أسرع بإغلاق التلفاز ...هربا . لكن هذه الأنباء التى كانت تزف إلينا كل يوم شواهد بطولة حزب الله وبسالة جنوده كانت دائما تزرع الأمل والاطمئنان والإعجاب .

وعندما بدأ التداول فى إصدار قرار من مجلس الأمن كنت دائما أضع يدى على قلبى ، فمثل هذا المجلس نوقن أنه أصبح وكأنه جزء من مكونات الإدارة الأمريكية ، والبراهين على ذلك كثيرة ، ليس هنا وقتها ، ولكن كان أخشى ما أخشاه أن يحاول الفاشيون والنازيون الجدد أن يحققوا بالمكر والخديعة المعروفة عنهم ، ما فشلوا أن يحققوه على أرض المعركة .

فلما صدر القرار كالعادة يحمل بنودا زئبقية تحمل أكثر من تفسير ، ويحاول أن يكافىء المعتدى ويلوم الضحية أصبحت العين متجهة إلى ما سوف يلى وقف إطلاق النار ، خاصة وأن لنا تجارب سيئة كشفت عنها نتائج حرب أكتوبر ١٩٧٣، حيث أحسنا إدارة المعركة فانتصرنا ، لكننا أسأنا إدارة

---

* جريدة المصريون الإلكترونية فى ٢٠٠٦/٨/١٦

ما تلاها من " سياسة " فإذا بنا نعانى – حتى الآن – من نتائج كأنها ثمن هزيمة لا ثمن انتصار، ولا عجب فى ذلك ، فالمعركة السياسية لا تقل شأنا وخطورة عن المعركة الحربية ...وعلى العكس من ذلك حرب ١٩٥٦ ، كنا قد انهزمنا حقيقة (دون أن يدرى الناس) لكن الإدارة السياسية لما بعد المعركة استطاعت أن تقطف ثمارا أكبر مما أنتجته مقاومة العدوان .

إن هذه الحرب العدوانية الضارية على لبنان ، بمقدار ما خربت ودمرت وقتلت ، لابد أن تكون لها تداعياتها بعيدة المدى على لبنان وعلى المنطقة العربية ، ذلك أنها بددت أوهاما سعوا عبر سنوات أن يزيفوا بها وعينا ، كما أنها أكدت حقائق كنا نشعر شعورا داخليا بصدقها ، لكن آلة النظم الحاكمة سعت دائما إلى أن تثير حولها الغبار حتى تبدو على غير ما هى .

أبرز الأوهام التى بددتها المقاومة الإسلامية فى لبنان هى " شرعية " النظم الحاكمة فى العالم العربى ...

إن شرعية أى حاكم الحقيقية تتحدد بمقدار ونوع ما يقوم به لتحقيق مصالح الأمة ومواجهة ما يحيط بها من أخطار ، والتحسب لكل خطوة لها على طريق المستقبل ، ومن هنا فإن الذين حكموا بأن قيام المقاومة بالثأر لشعبها الذى يجد جزءا من أرضه محتلا ، ومئات ، بل وألوف الأسرى فى سجون المحتل إنما هو مغامرة غير محسوبة لا يمكن أن يكونوا سائرين على طريق مصلحة الأمة ، ولا يمكن أن يكونوا متجهين على طريق مستقبل زاه لبناء الأمة ، بل هم يوجهون خنجرا مسموما فى ظهر هؤلاء الرجال الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل استعادة كرامة هذه الأمة التى سبق أن تمرغت فى الوحل والطين على يد هؤلاء الحكام !

الوهم الثانى ، هو هذا الذى ملأوا الدنيا صراخا به ، وهو " السلام " ....

نقول كان هذا وهما دون أن نقصد مهاجمة للمبدأ فى حد ذاته ، فالمسلم بصفة خاصة تحيته الأساسية التى يمارسها عدة مرات كل يوم هى " السلام عليكم " ، لكن هل تركن إلى أفعى بجوارك وتطيع من يقول لك أنها غير سامة ويجب أن يكون بينك وبينها سلام ؟ هل تطمئن إلى لص اقتحم بيتك ، وأقام فيه ، وتصدق من يقول لك بأنه لا يريد بك ضررا ويجب أن تتعايشا سويا ؟

هذا سخف والله وسفه عظيم ، لا يدل إلا على أن هذا الآخر الذى يطالبنا به يتصور أننا قوم من البلهاء لا نملك عقلا يميز بين السلام الحقيقى وبين النصب والاغتصاب والقهر والعدوان !

السلام ليس مجرد انعدام إطلاق الرصاص وسيلان دماء ، ولكنه – بالإضافة إلى ذلك – عيش كريم ، وعزة محفوظة ، ورأس مرفوعة ، وانظروا إلى مصر ، بعد كامب ديفيد المشئومة : هل يعيش أهلها عيشا كريما ؟ هل هم يشعرون بعزة وطن ؟ هل يشعر المصرى بأن رأسه مرفوعة ؟ أعود مرة أخرى إلى الموقف المخزى الذى وقفته مصر الرسمية من حركة مقاومة نبيلة ورائعة ، لتجد أن الإجابة على مثل هذه التساؤلات هى بالنفى المؤكد !

الوهم الثالث ، هو أن أمريكا هى حليف استراتيجى ، وأن إيران عدو يتخفى فى زى صديق ، بينما هو يريد السيطرة والهيمنة علينا ..

سخف آخر ، وسفه فى التفكير واضح ، ولكن ، هكذا دارت عجلة الوعى الزائف الذى بثه حكام هذه النظم العربية ، (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل) !! فآخر الخزعبلات التى رددها زعيم الفاشية الأمريكية " بوش " مثلا ، يوم الإثنين ١٤ أغسطس ، أن الإسرائيليين عندما كانوا يقتلون مدنيين

لبنانيين كانوا يحزنون ، أما حزب الله فكانوا عندما يقتلون مدنيين إسرائيليين يفرحون !

وكأن الرجل لم يسمع عن مذبحة قانا الثانية التى قتلت أطفالا معوقين ، وأن مليونا نزحوا من بيوتهم ، وأن أكثر من ألف قد قتلوا ، بينما لم تقتل صواريخ المقاومة على الأرض المحتلة أكثر من خمسة عشر على وجه التقريب وفقا للأنباء المعلنة .

إنه نفس المنطق الذى روج له القائمون على رأس النظم العربية ، وهو أن إسرائيل وأمريكا هما أصدقاء اليوم والغد !

أما إيران التى تمد المقاومة بكل ما يعينها فهى عدو هذه النظم ! عجبى !

فإذا ما جئنا إلى الحقائق التى أكدتها المقاومة العظيمة ، فأولها أن هذا العدو النازى ليس هو الذى لا يقهر ، بل إن قهره أمر مقدور عليه ...إنه ليس أسطورة قوة ، وإنما الذى جعله أسطورة هو ضعف نظم وتخاذل حكام ، فعندما ينتصر طرف على آخر ، فليس هذا دليل مؤكد على قوته ، وإنما ربما يكون السبب هو ضعف الآخر وأنه لم يبذل الجهد اللازم للمقاومة .

العرب والمسلمون إذن قادرون على إلحاق الهزيمة بهؤلاء النازيين الجدد ، إذا كان وراءهم وأمامهم قيادات وطنية مؤمنة ..إذا كانوا متسلحين بالعزم والإيمان وطلب الشهادة ...إذا لم ينخدعوا بالوعود الكاذبة وأصروا على مطلب التحرير .

وأعود مرة أخرى إلى حرب ٧٣ ، فقد استطعنا بالفعل هزيمتهم ، لكن سوء إدارة السياسة التى تلت وضع الحرب أوزارها فوتت علينا قطف ثمار الانتصار ، وعلى العكس أعطتنا ثمارا لا يستحقها إلا المنهزمون !

وثانى هذه الحقائق ، هو ذلك الذى كشف عنه زعيم المجاهدين الشيخ حسن " نصره الله " ، عندما أعلن عن تكتيل جهد المقاومة فى سبيل تهيئة السبل لإعادة النازحين إلى بيوتهن وتكفل المقاومة بالبناء والتعمير والتعويض

، وهو الأمر الفريد حقا ، والذى لم نسمع ونقرأ عنه حتى الآن ، ليرسى مفهوما للجهاد هو بالفعل المفهوم الإسلامى الصحيح .

فمثلما يكون الجهاد قعقعة سلاح ضد العدو ، فهو أيضا تعمير وبناء وعلاج وتطهير ...

لقد أبلوا بلاء حسنا عندما أمسكوا السلاح وتصدوا للرصاص والقنابل ، واستعملوا هم أيضا الرصاص والقنابل والصواريخ ،فهل ينتهى دورهم بعد أن تضع الحرب أوزارها ؟ كلا ،إنهم يتصدون للمهمة الأكبر :مهمة التعمير!

أليس هذا هو مغزى ما أثر عن رسول الله ، بعدما عاد من إحدى الغزوات مرددا ، عدنا من الجهاد الأصغر على الجهاد الأكبر!

وثالث هذه الحقائق التى تأكدت ، أن الزعامة الحقيقية هى تلك التى قدمها هذا الرجل " نصره الله " ...عندما يقدم ابنه شهيدا على أرض المعركة ، ويشترك الآخر فى معركة أخرى ...

عندما لا يسكن القصور ، ويعايش الضعفاء والمساكين ...

عندما لا يطأطئ رأسه لزعماء الهيمنة والبغى العالمى ...

عندما يصدق إذا وعد ، فلا يكذب ولا يخادع ...

عندما يكون عفيف اللسان ، مهذب العبارة ، يمسك بتلابيب لغة قومه ودينه فيتحدث بعربية فصيحة سليمة ...

عندما تشيع فى كلماته وعباراته مفردات الثقافة الإسلامية و القرآنية ...

يحسن التفكير ويدبر الأمور ولزنا كل هذا وذاك بمصلحة الناس ، لا بكرسى ، ولا منصب ولا جاه ولا مال !

لقد جاء التساؤل فى القرآن الكريم : أليس منكم رجل رشيد ؟

نعم يا أله ...هذا الزعيم الفريد هو " الرجل الرشيد " ...لا نبالى أى مذهب يعتنق ، يكفينا أنه يشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأنه يعمل لقومه وليس لذاته !

الشحاذين أهمّه* !!

يعلم الله كم أُضررت اضطرارا إلى عنونة المقال بهذه الجملة التي كانت ثقيلة على قلمي وعلى قلبي ، ولكن ، ما العمل ، وقد وصل بنا الحال إلى ما وصلنا إليه ، بحيث أُضطر إلى أستبدل هذه العبارة ، بتلك العبارة الشهيرة (المصريين أهمّه ، حيوية وعزم وهمّة) التي تنطلق الأصوات بها عبر قنوات الإعلام عندما ينتصر فريق كرة في مباراة حاسمة خارجية – وقليلا ما يحدث ذلك .

كانت المناسبة مخجلة غاية ما يكون الخجل ، مؤلمة غاية ما يكون الألم ، عندما أقرأ في صدر صحيفة المصرى اليوم ، في عددها الصادر يوم الإثنين ٢٢ من سبتمبر ٢٠٠٨ عن تجمهر مئات من المصريين أمام السفارة القطرية ، انتظارا لمائتى جنيه شاع أن السفير القطرى يتبرع بها للمحتاجين .

وتأبى المقادير إلا أن تقرن بهذا أيضا ، وعلى نفس الصفحة من المصرى اليوم ، خبرا آخر عن العثور على مركب صيد يقل خمسين مهاجرا مصريا ، واختفاء مركب آخر قرب سواحل اليونان ، وهى الظاهرة المتكررة ، أن يذهب عشرات إلى المجهول ، مع احتمال أن يفقد الواحد منهم حياته غرقا ، سعيا إلى أن يجد لقمة عيشه التي افتقدها فيما يسمى بالوطن ، في الوقت الذى تكتب فيه الصحف يوميا منذ فترة عن رجال أعمال ينفقون ملايين على راقصات ومطربات !

الواقعتان يربطهما ، وبغيرهما من الوقائع التي قد تبدو مغايرة ، خيط واحد ، إذ يشخص مظاهر مأساة الشعب المصرى ، لكنها في الوقت نفسه

---

* جريدة المصريون الإلكترونية فى ٢/١٠/٢٠٠٨

تشير إلى بعض الأسباب الجوهرية .

لا أريد أن أسطر القليل أو الكثير من الأسطر منطلقا من نزعة شوفينية بالتحسر على أيام كنا نقرأ فيها العكس ..عن معونات كبيرة تصدرها مصر إلى دول عربية ، إذ يمكن أن نقول : هذه حال الدنيا ، لكن إذا صح هذا على المستوى الفردى ، فإنه لا يصح على مستوى بناء المجتمعات .

فمنذ أوائل السبعينيات عندما كنا نرى طوابير لمصريين يقفون على أبواب القنصليات الخليجية ساعات ، وربما أيام طلبا لعمل ، كانت هذه صورة من صور التسول ، ما دامت بغير أصول وقواعد وآداب تحفظ على المواطن كرامته ، ويتأكد الوجه الآخر من الحقيقة ، وهى أنه في الوقت الذى يبدو فيه هذا المواطن بحاجة إلى القرش ، فالذى كان معه القرش ، كان هو نفسه بحاجة أيضا إلى عقل المحتاج للقرش وموهبته ومهارته وعبقريته وتعليمه وعلمه ، وكان هذا يمكن أن يتم لو جرت الأمور وفق اتفاقات بين الدولة والدول الأخرى تقرر فيها القواعد والأصول والشروط والجزاءات وأوجه الإثابة والمكافأة وفك العقد أو استمراره .

كان التفسير الشائع لحالة الفقر التي بدأت تخيم على المصريين ، أننا أمضينا سنوات نحارب نيابة عن العرب ، وانطلق كل من الدكتور لويس عوض ، والدكتور حسين فوزى ، وتوفيق الحكيم ، في عام ١٩٧٨ يمهدون لاتفاقية كامب ديفيد ، يؤكدون هذا التفسير الساذج غير الصحيح ، وأن مصر ينبغى أن تفرغ لحال مواطنيها فتنهض بهم وتحافظ على أرواحهم بدلا من أن تذهب بها الحروب التي لا ناقة لمصر فيها ولا جمل (كذا) ، وإلا ، فمن يفسر لى كيف مضى ثلاثون عاما على هذه الاتفاقية ، ونفضت مصر يدها تماما من القضايا والمشكلات العربية ، ولم ينحسر الفقر ، بل زاد مده ، حتى أصبح " تربة " شيطانية تزرع الكفر بالوطن ، والاستعداد للتضحية بالحياة لا

دفاعا عن هذا الوطن ، وإنما فرارا منه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ترافق مع هذا – صدفة – ما دلت عليه محادثة مع حفيدتى ، عندما سألتها عما أصبحت تدرسه الآن بالصف الأول الثانوى ، وما تسلمته من كتب ، فجاء ذكر مادة (التربية الوطنية) ، فإذا بها تسخر منها ، بينما أحاول أنا أن أثبت لها العكس ، فإذا بها تصفع أذنى بتساؤلها الاستنكارى الذى حرت معه ، بماذا أرد : " يا جدو دى بتتكلم عن شئ غير موجود أصلا " – تقصد الوطنية – على الرغم من أنها لا تعيش في ضيق مادى مثل هذا الذى قد يكون مبررا لهؤلاء الذين تجمهروا أمام السفارة القطرية ، أو الذين يجازفون بالهرب عبر مراكب صيد غير مأمونة هربا من مصر !!

أما ما حملته الجريدة في العدد نفسه مما قد يسلط ضوءا على بعض أسباب التردى ، فهو ما جاء بصدر الصفحة الأولى أيضا عن خبر مؤداه أن وزير التربية كان قد أخطر مدرسة الشيخ زايد التجريبية ب " ٦ أكتوبر " بنيته بزيارة المدرسة ، فلما تأخر الوزير عن الموعد ، لم تجد إدارة المدرسة بدا من إتمام إجراءات الطابور ، وصعد التلاميذ إلى فصولهم ، وبدأ المدرسون الشرح ، في الوقت الذى تلقت فيه المديرة اتصالات من مرافقى الوزير لكى تكون في استقباله لدى وصوله ، فأصدرت أوامرها بوقف الحصة الأولى ، وإعادة طابور الصباح وتحية العلم والنشيد الوطنى بحضور الوزير الذى تحدث في كلمته التي وجهها إلى الطلاب عن أهمية تحقيق المزيد من الجودة والإتقان في التنفيذ !

أرأيتم كم ونوع " القرع " الذى يتبدى في سلوك من نُكبنا بأن يحكمونا ونسكت عن ذلك ؟

جودة إيه وإتقان إيه أيها المربى الكبير ..." الجمل " ؟!

ألست أنت أولى بالالتزام بمعايير الجودة والإتقان ، وهذا الذى تضحكون به على الناس ، وتحصلون على ملايين من الاعتمادات والقروض والمنح والمساعدات ؟

هل الإخطار المسبق بزيارة الوزير يمكن أن يكون " إتقانا " للقيام بمسئولياته ؟

هل إعادة الطابور من أجل معاليه ، الذى وصل متأخرا ، وإعادة تحية العلم والنشيد الوطنى ، بعد أن قام بها التلاميذ وصعدوا إلى فصولهم وبدأ المدرسون في الشرح لدروس الحصة الأولى ، صورة من صور الجودة والإتقان ؟

أرأيت عزيزى القارئ لِمَ يسخر واحد مثلى من مئات الصفحات التي تصدر عن الوزارة تحمل أرقى ما وصلت إليه العلوم التربوية النفسية ، وما يصدر عن المسئولين من تصريحات تزدحم بألوان الماكياج الصارخ والمساحيق الملونة التي تحاول أن تخفى الوجه القبيح لهؤلاء القوم ؟

هل يمكن أن ألوم حفيدتى – ومثلها كثيرون – عندما تسخر من وجود مقرر باسم " التربية الوطنية " ، مؤكدة أنه يتحدث عما هو غير موجود مثل " العنقاء " !!

هذا مظهر قد يبدو بسيطا ، لكنه يكشف لك عن أسلوب التنشئة وطريقة التربية ، ومناخ التعليم الذى ينتج شخصيات ينتهى الأمر ببعضها أن يقفوا متسولين على أبواب السفارات ، ويهربوا مجازفين بحياتهم عبر البحار غير الآمنة !!

ونوالى القراءة في العدد نفسه من المصرى اليوم ، وهى جريدة من الصعب وصفها بأنها من الجرائد المعارضة ، فالمعروف أن مموليها مجموعة من كبار رجال الأعمال ، ومثل هؤلاء يحرصون عادة على أن ألا تنقطع شعرة معاوية بينهم وبين السلطة ، فماذا حملت الجريدة كذلك ؟

في الصفحة الثانية مانشيت يقول (مياه الصرف الصحى تغرق مئات الشقق في أسيوط) .

وعلى الصفحة الثالثة نقرأ عناوين (التحقيق مع قاض وحبس لواء شرطة سابق وضابط حالى ، في قضية رشوة) !!

ثم نقرأ عنوانا (اعتصام ٥٠ سيدة وطفلا من منكوبى الدويقة لاحتجاجا على " فساد المسئولين " ..والأمن يطن تقريرا عن " الرشاوى ") !!

وعلى نفس الصفحة الثالثة نقرأ خبرا يقول أن تقرير متابعة الأهداف الإنمائية للألفية في مصر لعام ٢٠٠٨ ، أكد أن معدل الفقر ارتفع من ١٦,٧% خلال الفترة من ٢٠٠٠ -٢٠٠٥ ليصل إلى ٢٠% عام ٢٠٠٨ .

هذا النظام الذى جلب الفقر والتسول والدمار ، ويحكمنا بوزراء بعضهم لا يفقه مهمته الحقيقية ويرضى بمظاهر النفاق والكذب ، بل ويدعمها ...هذا النظام " يستأسد " فيقرر منع شخصيات مهمة في المجتمع من السفر لأداء العمرة أو للحاق ببعض المؤتمرات والمهام العلمية - كما نشرت الصحيفة في العدد نفسه - هل تدرى السبب ؟ إن هؤلاء الممنوعين هم من " الجماعة المحظورة " ،وكأن الحكيم العربى الذى قال (أسد علىّ وفى الحروب نعامة) كان قد تنبأ بأن النظام الذى سوف يحكم المصريين هو من ينطبق عليه هذا القول تمام الانطباق.

وآخر ما يمكن أن يدخل في باب " التفسير " ما أشير إليه في صفحة أخرى من أحد أركان النظام (الراسخون في السلطة والنفوذ) أكد أن رفض مساعدات رجال الأعمال في مأساة الدويقة ،وحريق الشورى انطلق من التأكيد على أن الدولة " مش واقعة " ،وهى تستطيع أن تواجه بنفسها مثل هذه المحن ، وأنها ما زالت تملك من الإمكانات ما لا ينبغى أن يكون محل مزايدة من أحد !!

ويضاف إلى هذا خبر آخر بالصفحة الأولى عن ترشيح الرئيس المصرى لجائزة نوبل للسلام ، بحكم ما أكدته السنوات السابقة من دور لمصر إيجابى في حل الخلافات العربية (باستثناء المساهمة في تقييد تسهيلات للغزو الأمريكى للعراق ، ومقاطعة القمة العربية في دمشق ، والمشاركة في حصار مليون ونصف فلسطينى في غزة) !

أصارحك أيها القارئ أننى حاولت أن أجمع أطراف ما تبقى لدى من شجاعة ، للتعليق على هذين الأمرين، فإذا بما يمكن توقعه من نتائج ، لا تستطيع حالتى البدنية والنفسية أن تتحمله ،وقد جاوزت السبعين من العمر ، ووهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، وحرت بماذا أفسر موقفى أمام القراء الذين قد يفقدون ثقتهم بى كاتبا يدعى الشجاعة ، ثم إذا بالمساحة الباقية من الصفحة تنتهى فأجد المنقذ ، ألا وهو أن الوقت قد انتهى ، وفقا للقول المشهور (وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح) !!

كيف أصبحت مصر غير محروسة* ؟

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦)) سورة الإسراء

من يقرأ تاريخ مصر بإمعان في كثير من فتراتـــه ، فلابـــد أن يأخـــذه العجب حقا عندما يلمس أنه قد لا يوجد في شعوب الدنيا شعب تعرض لمثل ما تعرض له الشعب المصرى من محن وأزمات طاحنة وابتلاءات مذهلة ، وصور لا حصر لها من النهب والاستغلال والسرقة ، ذلك أنك لو وضـــعت جملة أو أبرز الأمثلة للدلالة على ذلك لتساءلت معى : كيف تأتى لمصر مع كل هذا أن تستمر حتى الآن على خريطة الدنيا ، بل ويكون لها في ســـجل التاريخ ما لها من صور العطاء الحضارى ؟

ولعل هذا ما جعل اسم مصر مقرونا بوصف (المحروسة) ، فكأن هناك عناية إلهية " تحرسها " من كيد من يكيدون لها ويمتصون دماءها ، وبـــذلك أصبحت بالفعل " كنانة الله " .

لكن الله لا يستمر في مساندة عباده إذا هم تنكبوا عن الطريق المـــستقيم إلى أجل غير مسمى ، ذلك أن هناك قانونا إلهيا معروفا تعبر عنه الآية التي صدرنا بها المقال .

إن الإنسان بطبيعته يعشق الغنى ، وما يتصل به من صور ترف ، عبر المولى عنها في قوله (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَـــاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)) ، لكنه أعقب هذا بتأكيده علـــى أن " ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب .

---

* الوفد في ٢٠٠١/٧/٢٨

وإذا كان الغنى حلما للجمهرة الكبرى من البشر ، لكن بأى وسيلة ؟ وعلى أى طريق ؟ وفى أى اتجاه ؟ ووفقا لأية قاعدة ؟

طوال الخمسينيات والستينيات ، ولظروف خاصة أحاطت بمصر ،ولحقت بالأغنياء أشنع التهم وأبشع الصور ، حتى أصبحنا ننظر إليهم وكأنهم شياطين ، لا يجب ألا نكتفى بصب اللعنة عليهم ، وإنما أصبح من صور " الوطنية " أن نطاردهم ونقضى عليهم ، وكانت النتيجة المؤسفة حقا أن هرب المال وأصبحت مصر بالنسبة إليه أرضا غير مرغوبة .

فالأغنياء هم الذين كونوا الجمعية الخيرية الإسلامية في أواخر القرن التاسع عشر ، والتى ملأت مصر بالكثير من المدارس والمستشفيات لتعليم أبناء الفقراء نظير سوم شكلية بسيطة .

والأغنياء هم الذين أسسوا أول جامعة فى تاريخ مصر الحديثة ، بل في الوطن العربى كله ، كان لها من قوة الدفع الحضارى ما ساعد على إشاعة صور نهضة وتنوير وتقدم .

لكن خصائص العقلية المتخلفة ما زالت تحكم تفكيرنا ، والتى من مظاهرها التراوح بين إما أقصى اليمين ، وإما إلى أقصى اليسار ، فإذا قمنا بمطاردة الأغنياء طوال الخمسينيات والستينيات ، والنظر إليهم باعتبارهم " خونة " إذا بنا منذ السبعينيات ، وحتى الآن نذهب إلى الاتجاه المقابل النقيض تماما ، وهو حسن الظن بلا حدود بالأغنياء ، والنظر إليهم وكأنهم هم الذين سيقودون بالفعل حركة النهوض القومى ، ثم إذا بنا نسمع ونرى ونلمس وكأنهم أصبحوا يقودون مصر إلى هاوية ، الله وحده أعلم بمدى عمقها وخطورتها ، نتيجة عمليات بشعة من سوء استغلال والنهب والسرقة ، ويا ليت ما ينهبون ويسرقون يقومون عن طريقه ببناء المشروعات الدافعة للتنمية ، ولكنهم ينهبون ويستغلون ويسرقون للهروب به على الخارج !

إن كثيرا من أغنياء اليوم يكادون يبدأون من نقطة الصفر ، ولا أقصد أنهم يبدأون برأس مال صغير ينمو مع التشغيل والاستثمار والحركة ، ولكن كثيرا منهم يعتمدون على ما لديك ولدى الكثيرين من نقود أودعوها البنوك ، فيقترضون مئات الملايين ، نتيجة عمليات مريبة ، ويبدأون في بعض المشروعات ، ولأن ما بنى على فساد لابد أن يتسرب إليه العفن ، تتعثر مثل هذه المشروعات ، فيهرب ولا يسدد الملايين التي لهفها ، ممن ؟ منى ومنك ، مما أودعناه أمانة لدى البنوك !!

فوفقا لتقرير صادر من الجهاز المركزى للمحاسبات ، عن أحد البنوك العامة ، نجد أن مديونية كبار العملاء فيه ، المشكوك في تحصيلها ، وصلت إلى ١٢٧٥٣ مليون جنيه ، ووصلت مديونية هؤلاء العملاء أنفسهم للبنوك الأخرى إلى ١٤٤٤٩ مليون جنيه ، وبالتالى نجد أن مجموع المديونية وصل إلى ٢٧ مليار جنيه ، و في هذا تجاوز لكل حدود الأمان ، لأنها أصبحت تمثل نسبة تصل إلى ١١,٧% من إجمالى ديون القطاع الخاص ، علما بأن المفروض أن تتراوح هذه النسبة بين ٣% و ٥% . ولا يقف الأمر عند هذا ، بل نجد أن القروض والسلفيات التي حصل عليها أصحابها من غير ضمانات ، تصل إلى ١١٥٢٩ مليون جنيه ، هذا بالنسبة لبنك واحد!!

وقد فرح الناس عندما فجر بعض نواب مجلس الشعب العديد من الجوانب التي تتصل بهذه القضية حيث كشف النقاب عن كم من الأرقام المخيفة ، لكن الفرحة لم تتم ، فبحجة أن " اللغط " حول هذا الموضوع يضر بالاقتصاد القومى ، ويسبب خسائر للبنوك ، تم وضع " ماجور " على الخبر ! لكن ، ماذا تم الكشف عنه ؟ المجال قد لا يتسع حقيقة ، لكن أحد التقارير رصد هروب ٣٦ مليار دولار من مصر فى عام واحد تم تحويلها إلى حسابات بالخارج ، سواء بشكل مباشر ، أو باستخدام كروت بلاستيكية إيداع دولية وصل إجمالها إلى ٨ مليار دولار ، هذا بالإضافة إلى تحويل أرباح

الأجانب التي بلغت نحو ١,٢ مليار دولار ، بغرض استيرادها ، ولا تدخل أصلا في حدود خمسة مليارات ، وأخرى بغرض التبرعات أو الإعانات لأشخاص وجهات خاصة في الخارج ، في حدود ٢,٥ مليار دولار ، بالإضافة إلى ٢٥ مليار دولار في صورة عمليات خفية ، تقع في بند السهو فى ميزان المدفوعات ، ويتم تحويلها إلى الخارج !

ووفق إحدى الدراسات الهامة الخطيرة ، فإن حجم القروض التي حصل عليها القطاع الخاص حوالى ١٥٠,٤ مليار جنيه ، حتى نهاية شهر يونيو من عام ٢٠٠٠ ، هذا في الوقت الذى وصلت فيه القروض المنوحة للحكومة والقطاع العام إلى ٤٤,٥ مليار جنيه .

وداخل القطاع الخاص هناك " حيتان ، وصل عددهم إلى ٣٤٣ عميلا ، حصلوا وحدهم على ٤٢% من التسهيلات الائتمانية ، وداخل هؤلاء هناك " ديناصورات " بلغ عددهم ٢٨ حصلوا وحدهم على نحو ٢٦,٧ مليار جنيه ، وحصل على كل واحد منهم مليار ونصف المليار !

إننا نضع أيدينا حقا على قلوبنا ، فسنن التاريخ كالإعصار ، لا ترحم ، ولا تتخلف ، ، حذرنا منها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما نبه على أن الذى أهلك من كان قبلنا أن الشريف إذا سرق تركوه ، وأن الفقير إذا سرق أقاموا عليه الحد !!

تفكيك وإعادة تركيب*

قولة حق تنتهى إلى باطل ..

غيرنا صياغة المقولة المعروفة " قولة حق يراد بها باطل " ، لأنها تحمل معنى اتهام بقصد سوء مغلف بغطاء طيب ، بينما نحن هنا لا نستطيع أن نتهم كل من يردد المقولة التي نتهم كل من يردد المقولة التي سوف نشير إليها بأنه يقصد سوءا خفيا ، وإنما قد يتسبب – دون قصد – في إيقاع أذى وإحداث أضرار ..

أما هذه المقولة التي نقصدها ، فهى تتصل بذلك الرد المعتاد من كل من يقرأ أو يستمع إلى قول لنا أو غيرنا بأن كل ما يحدث على الساحة العربية الآن ، ومنذ سنوات بعيدة ، وهو تنفيذ لمخطط استعمارى شيطانى ، حيث يوجه إلينا اتهام بأننا أسرى " نظرية المؤامرة " ! وإذا كان القصد هو ألا نتهم الآخر دائما بأنه سبب ما يمر بنا من أحداث تصب في خانة الضعف والتخاذل والتمزق والتراجع ، فلابد أن نؤكد هنا وعينا بأهمية " العامل الذاتى " ، وإيماننا بأن أى فعل خارجى لا يؤتى أكله عادة إلا بالقدر الذى يكون فيه " وهن " بالداخل وتقصير وسوء تقدير .

وعلى أية حال ، فما نشير إليه اليوم ، وثائق منشورة ، صدرت من إسرائيل ، نشر ملخصا لها " نواف الزرو " فى جريدة " السبيل " الأردنية ، في عددها الصادر في الرابع عشر من مارس الماضى ، من ذلك – على سبيل المثال – ما نشرته مجلة " كيفونيم " العبرية الصادرة عن المنظمة الصهيونية العالمية بعنوان (استراتيجيات إسرائيلية) للثمانينيات ، تكشف عن استهداف العمل على تفكيك

---

* آفاق عربية ، في ٢٠٠٥/٣/٢٤

عدد من الدول العربية ، خاصة المحيطة بإسرائيل ، مثل مصر ولبنان وسوريا ، وكذلك تلك التي تشكل خطرا عليها مثل العراق . ويبدو أن مصر تشكل هدفا مؤجلا ، لأنها أكثر من غيرها تماسكا اجتماعيا ، وتخلو من التمايزات العرقية والطائفية ، وإن كان الأمر لا يخلو من بعض المشاغبات التى تظهر آثارها من وقت للآخر ، فيما يمس العلاقة بين المسلمين والأقباط جراء بعض التوترات التي زادت وتيرتها في الفترة الأخيرة ، فضلا عن خدمات مذهلة غير معلنة صراحة أصبحت مصر تؤديها لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل على الجانب الفلسطينى ، من حيث ممارسة الضغوط على منظمات القوة المسلحة ، وكذلك ما تبقى من مقاومة في السلطة الفلسطينية.

أما العراق ، فلسنا في حاجة إلى الإشارة إلى ما أصبح ظاهرا ومكشوفا على الساحة من إقصاء السُنة والتركيز على كل من الشيعة والأكراد ، وما يتجه إليه الأكراد من نزعة انفصالية ، وهو ما يهدد بأن يطلب شيعة الجنوب المعاملة بالمثل ، ولاشئ نفسه يسير في اتجاه التحقق في السودان ، إذ من المتوقع أن يختار الجنوب الانفصال بعد ست سنوات ، وإقليم دارفور في الطريق إلى أن يحذو حذو الجنوب .

إن هذا التفكيك يتيح الفرصة لأن يعاد تركيب الأجزاء المفككة في أشكال أخرى تتغير وظائفها بتغيير العلاقات بين العناصر الجزئية ، والذى يحدد الوظائف الجديدة هو القائم بأمر التفكيك ، كما هو معروف في المنطق ، الذى تقوم عليه فكرة " النظام " .

أما بالنسبة لسوريا التي قفزت هذه الأيام على قائمة سلم الأولويات الإسرائيلية الأمريكية ، بفعل مساندتها لحزب الله ، فنجد في الوثيقة المشار إليها سابقا حسب ما نشرته صحيفة السفير في السابع والعشرين من مارس ٢٠٠٣ ما يلى :

١- أن سوريا لا تختلف اختلافا جوهريا عن لبنان الطائفية ، باستثناء النظام العسكرى الذى يمسك بأجزائها بقبضة حديدية ، لكن هناك صراعا مكتوما يمكن أن ينفجر إذا أحسن استغلاله بين الأغلبية السنية والأقلية الشعية العلوية الحاكمة التي تشكل ما لا يزيد على ١٢% من السكان .

٢- إن تفكيك سوريا والعراق فى وقت لاحق إلى أقاليم ذات طابع قومى دينى مستقل ، كما هو الحال في لبنان ، هو هدف إسرائيل الأسمى فى الجبهة الشرقية على المدى القصير ، ومن ثم يصبح من المهم تفتيت سوريا بحيث تكون هناك :

أ- دويلة علوية على الشاطئ .

ب-دويلة سنية في حلب .

ت-دويلة سنية في دمشق معادية لتلك التي في الشمال .

ث-دويلة درزية في الجولان .

ج- وكذلك في حوران وشمال الأردن ، حيث يكون ذلك ضمانا للأمن والسلام في المنطقة كلها ، وفق المنظور الإسرائيلى.

وفى الثالث عشر من أكتوبر ٢٠٠٣ ، نشرت صحيفة الخليج الإمارتية ما وصفته بلائحة إسرائيلية لمواجهة سوريا تتضمن النقاط التالية :

١- الإسراع بطرح وتنفيذ خطة لدفع الإدارة الأمريكية نحو إدراج سوريا على قائمة " محور الشر " ، على حد وصف بوش ، وذلك بدلا من العراق ، بعد التخلص من صدام حسين .

٢- توجيه اتهامات لسوريا بتطوير أسلحة دمار شامل بالتعاون مع إيران وكوريا الشمالية فى مجالات الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية والصواريخ .

٣- فتح ملف سوريا فى مجال حقوق الإنسان وإعداد سجلاتها في هذا الشأن ، مع الاعتماد على منظمات دولية والأصدقاء في وسائل الإعلام والكونجرس ، لتكثيف مطالباتهم بمناقشة هذا السجل ، بما في ذلك " سجل" فترة الرئيس الراحل حافظ الأسد ، مع تذكير العالم بوقائع كثيرة مثل أحداث " حماة " ، والتى وجهت إلى الإسلاميين عامة والإخوان المسلمين خاصة ورح ضحيتها مئات السوريين ، وكذلك أحداث أخرى غيرها .

٤- محاولة الدفع بعمليات البحث الاستخبارتية حول زعم محاولة حصول سوريا على تكنولوجيا متقدمة تستخدم للتصنيع النووى والكيماوى بصفة خاصة ، مع اتهام سوريا بأنها أكثر البلدان العربية تقدما فى مجال السلاح الكيماوى .

٥- فتح ملف ما يسمى باحتلال سوريا للبنان ، مع تشجيع عناصر لبنانية داخل لبنان وخارجها (في أوربا والولايات المتحدة) لإطلاق حملة تستهدف رفع يد سوريا عن لبنان ، وتأكيد النظر غليه باعتباره احتلالا ، وبالتالى فإن التخلص منه يعتبر تحريرا.

٦- محاصرة سوريا اقتصاديا بالتركيز على ضرب أهم مصادرها المالية بهدف إضعاف الحكومة وإعداد الشارع السورى نفسيا ، بعد أن يعايش أزمة اقتصادية حادة للترحيب بالتحرر من الحكم القائم في اللحظة المناسبة .

٧- تكثيف حملات متعددة ، هجومية ، ذات نبرة عالية تتجه جميعها إلى اتهام سوريا كحكومة بتشجيع العداء للغرب والولايات المتحدة على الأخص ومعاداة السامية .

٨- تكثيف التوجه نحو تبنى واشنطن لقناعة مفادها أن سوريا دولة " داعمة للإرهاب " ، وتمثل خطرا على المصالح الأمريكية ، ويجب

إدراجها فى قائمة الدول المستهدفة أمريكيا ، مع إبراز تعاونها مع منظمات إرهابية ، منها " حزب الله " و " الجهاد الإسلامى " و " حماس " و " الجبهة الشعبية الديمقراطية " ، وتقديم سوريا كدولة " مصدرة للإرهاب " إلى العراق وإسرائيل .

وليس عيبا أن تمارس إسرائيل مثل هذا النوع من " التفكير الإستراتيجى " ، فهذا واجب عليها ، اتساقا مع الفلسفة التي قامت عليها ، ومن ثم فنحن إذ نذكر ما سبق لا نذكره على سبيل التنديد بإسرائيل وتحميلها المسئولية فيما يحدث لنا الآن ، ولكنه يتجه بأصابع اللوم ، وأكاد اقول " الاتهام " للنظم الحاكمة في منطقتنا التي لا تعرف مثل هذا النهج من التخطيط الاستراتيجى ، والذى يقتضى نمط التفكير المستقبلى بصفة خاصة ، فلا تداهمه الأحداث المقبلة ، وإنما يكون جاهزا بالسيناريو الملائم الذى يكون قد استقر عليه من بين عدد من السيناريوهات التى تصور احتمالات مختلفة لحركة المستقبل ، فإذا بنا دائما " نفاجأ " بأحداث تداهمنا ، لا نملك حكمة التصرف إزاءها ، بل ونختلف اختلافا حادا ، ولا نجد أمامنا من سبيل إلا أن نستسلم ، وأقصى ما نطلبه ساعتها من الخصوم أن يرأفوا بنا ، وأن تتقدم الأخت الكبرى مصر بمهمة التخفيف من قسوة العقاب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !!

أعتذر للشهيد أمام قبلة الموت*

على إحدى صفحات جريدة الأهرام فى الأسبوع الثانى من الشهر الحالى ، فبراير ٢٠٠٥ يجد القارئ ثلاث صور تصور تدرجا فى خطوات بين " رايس " وبين " محمود عباس " رئيس ما يسمى بالسلطة الفلسطينية ، على اليمين تقف رايس ، وهى ترمق عباس بإعجاب ، كما قد يبدو ، وربما يكون الأمر مختلفا فى قرارة نفسها ، ولو استطاع الفرد منا أن يكشف عما قلبها ، لوجدها تقول بصوت مكتوم شيئا مناقضا تماما لهذا الذى توحى به الصورة ، لكن القارئ – فى الغالب يكاد يحدسه ، عندما يلمس كيف أن ما يخدعونه به ينطلى عليه بالفعل ويصدقه !!

وكانت عيناها تحمل دعوة تشجيع له وترحيب واضحة ، مما جعل الرجل يكاد يطير فرحا ، ولم لا ؟ وهذه وزيرة خارجية أقوى دولة فى العالم ترحب به وتدعوه بعينيها ؟ فتقدم الرجل مستجيبا ليطبع قبلة على خدها ، حتى يتوج بذلك سلسلة من آيات التقدير والإعجاب والمديح من قيادات القوة المهيمنة الكبرى .

لن أقول لك أيها القارئ كم الاشمئزاز الذى شعرت به ، ولا كم ونوع مشاعر تشعر أنت بها وأنت ترى أمام ناظريك مشهدا رمزيا يعلن سقوط أندلس القرن الحادى والعشرين .. فلسطين ، كحلقة فى مسلسل السقوط المتوالى ، فهناك العراق الأسير ، وهناك دولا ، هى فى عرف القانون الدولى ما زالت دولة مستقلة ، لكنك لو فتشت عن حقيقة الأمر لتيقنت أن الذى يحكم هنا أو هناك ، إنما هو صاحب توكيل بالحكم ، مثلما ترى فى عالم التجارة والصناعة ، سلعا تباع ، ربما تخرج من مصنع وطنى ، يملكه

---

* جريدة آفاق عربية فى ٢٠٠٥/٣/٢/١٧

وطنى ، ولكن مسئوليها الوطنيين مجرد " وكلاء " للشركة الأكبر فى بلد المنشأ ، وإن كان صاحب التوكيل يملك قدرا لا بأس به من حرية الحركة والتصرف ، بينما أصحابنا أصحاب التوكيلات السياسية لا حول لهم ولا قوة ، قد تمت " برمجتهم " على خط سير معين ، وعلى خطوات محددة ، لا يستطيعون عنها بدلا ٠

على أية حال ، تذكرت ، فى التو واللحظة " ياسر عرفات " الذى بدأ الحديث عنه منذ مات غيلة وغدرا ، يتوارى إلى منطقة التعتيم ، بينما ينبغى أن تظل سيرته فى الوعى حية نشطة دالة على مقدار الجرم الدولى الذى توارى أمامه خجلا بعض أحداث العنف المسلح التى يرتكبها من يسمون بالإرهابيين ٠

فمنذ عقد اتفاقية أوسلو ، وما تلاها من خطوات ومباحثات ومقابلات أحسست أن الرجل قد وقع فى الفخ ، وأنه لكتفى بأن يطلق عليه لقب " السيد الرئيس " ، ويُفرش له البساط الأحمر ليسير عليه عندما تهبط طائرته على مدرج المطار ، ويُعامل معاملة الرساء ، حيث كنت أتساءل بينى وبين نفسى " هوه رئيس إيه بالضبط ؟ " ، فقد كانت السيادة على الأرض والسماء لدولة الاحتلال الصهيونى ، وكان المسئولون الفلسطينيون يدخلون ويخرجون بتصريح من سلطات الاحتلال ، والأراضى التى يقولون أنها تحررت محاطة بجيش الاحتلال ، وهى أصلا قطع متناثرة من السهل ، فى دقائق ، أن تُحاصر ويُخنق كل من فيها ٠

نتيجة هذا كتبت مرة فى جريدة العربى الناصرية مقالين بعنوان (الثائر ٠٠الذى كان !) نقدا لعرفات ٠

وتمر الشهور والأيام ، فإذا بمفاوضات كامب ديفيد الثانية تزرع فى نفسى مزيدا من بذور الخوف والقلق ، وخاصة أن يضطر إلى التسليم أمام ضغوط الرئيس الأمريكى كلينتون فى ذلك الوقت ، ثم إذا بالمفاوضات تفشل

، وإذا بالأنباء الواردة تحمل اتهاما إسرائيليا لعرفات بأنه تسبب فى إفشال المفاوضات .

منذ ذلك الوقت بدأت أراجع موقفى من الرجل ، إذ برزت لى تلك المقولة الشهيرة " وإذا أتتك مذمتى من ناقص ، فهى الشهادة بأنى كامل " ، وإن كان الكمال لله وحده بطبيعة الحال .

وحدث ما حدث بعد ذلك من انتفاضة الأقصى ، حتى بدأت الإدارة الأمريكية الجديدة المتوحشة ، تحت قيادة بوش الإبن تصدر المرة تلو الأخرى نقدا شديدا لعرفات ، وإذا برئيس الحرب الصهيونى شارون يعزف اللحن نفسه ، بل يعلن مفتخرا أنه لا يقيم أى اتصال بأى صورة من الصور بعرفات ، ثم يستكمل المشهد وتتم محاصرة عرفات منذ عام ٢٠٠١ على وجه التقريب !!

دع عنك ما نقلته لك من أننى كنت أسخر من تسمية عرفات بالرئيس ، مثلما يتسمى رؤساء الدول " الحرة " ، لكنه على أية حال كان فى عرف الملوك والرؤساء العرب كذلك ، فكيف نسى هؤلاء الأشاوس أن يروا زميلهم يقع فى الأسر ويقفوا من ذلك موقف المتفرج إلا من تليفون من هنا وتصريح " أعرج " من هناك ، لا يقدم ولا يؤخر ..إلى غير هذا وذاك من وسائل تشم منها رائحة العاجزين ، لا أدرى أو غير المهتمين ، لا أدرى ، أو السعداء ؟ ...الله أعلم على أية حالة !

ألم يتذكر هؤلاء تلك المقولة الشهيرة : اضرب المربوط يخاف السايب ، وأن الجميع فى مركب واحد ، وأنه فى اليوم الذى يؤكل فيه الثور الأبيض ، هو نفسه يوم القرار بأن الجميع لابد مأكولون ، والأكل هنا ليس بالضرورة محاصرة أو عزلا أو اعتقالا أو قتلا ، فأحيانا ما يكون فرض دور " خيال المآتة " !

وبدأت أراجع نفسى وألمس أن الرجل لابد أنه وطنى ، ومعذرة قارئى العزيز فقد أكون مخطئا ، ولكن قل لى بربك : ماذا يعنى أن يشكر ويمدح قادة القوى المهيمنة التى تذبح العرب والمسلمين وتدمر بيوتهم وتطارد شرفاءهم ، وتصادر أموال الخير ، زاعمة أنها تمول الإرهاب ، حاكما من الحكام ، أو أن تفعل العكس ؟

فى التو واللحظة ، أقول بينى وبين نفسى لابد أن هذا الحاكم الممدوح يحقق للقوة المهيمنة ما يؤكد مصالحها حتى ولو كان ذلك ضد المصلحة القومية والوطنية ، ولابد أن المذموم يقاوم ولا يرضخ ، ويريد أن يحافظ على حرية الإرادة الوطنية ؟

ثم حدث أيضا ما حدث لعرفات الذى تنطق كثير من الشواهد على أن الرجل مات مسموما عن عمد وسبق ترصد ، ولا داعى أن أحمّل القارئ فوق ما يطيق فأعود لاسترجاع بعضا من هذه الشواهد .

لكن ، ما استلفت نظرى حقا هو تلك التصريحات التى بدأت تتوالى إلىّ مفادها كلها : الآن أصبح الجو العربى والفسطينى مهيئا لمواصلة مسيرة الاستسلام ، فكأن الرجل كان بذلك يمثل " عقبة " كؤود ، وما دام كان يمثل عقبة فى سبيل الاستسلام ، فلابد أن نستنتج أنه كان وطنيا ، ولابد أن يكون اختفاؤه " بفعل فاعل " .

هنا شعرت بأن ما سبق أن كتبته عن (الثائر الذى كان) قد جانبه الصواب ، وأننى لابد أن أعتذر حتى لو كان الرجل قد فارقنا إلى رحاب الله ، وعزز من ضرورة تقديم هذا الاعتذار ، هذا المشهد الذى حكيت عنه فى بداية المقال ، ورايس تسبغ آيات رضاها بعباس ، وهو منون غاية الامتنان ، والأكثر من هذا يتلقى أيضا آيات المديح من زعيم النازية الصهيونية ، شارون !!

كانت حقا قبلة موت ..موت لكرامة ، ومصرع لعزة ، ومقتل لقضية ، حيث تتالت المشاهد ، وما زالت ، فعلى أرض مصر عُقد المؤتمر المشئوم ليدشن مرحلة الاستسلام الصريح العلنى " وعلى عينك يا تاجر " و " معدش فيها كسوف " ، " مصر التى فى فى خاطرى " ، التى أراقت دماء عشرات الألوف من أبنائها ، وأنفقت مئات الملايين من أموالها ، وبددت ما يصعب حصره من طاقات حرصا على الأرض المقدسة ، هى هى الآن تتزعم مسيرة الاستسلام على أرضنا التى كانت طاهرة !!

لقد قالها لى منذ سنوات أحد الفلسطينيين المهزومين : إن كنا قد استطعنا أن نسترجع الأندلس ، فسوف نسترجع فلسطين ، وأعذرنى أيها القارئ عندما أبدو هكذا أماك معبرا عن روح تشاؤم ، فأنا بالفعل أعيش حالة اكتئاب ، ادع معى أن يشفينى الله منها .

افهمونا قبل أن تتهمونا* ..

منذ ما يقرب من خمس سنوات ، وبالتحديد فى عام ١٩٩٦ ، وجهت إحدى شبكات التلفزيون الأمريكى سؤالا إلى مادلين أولبرايت ، حيث كانت وزيرة الخارجية الأمريكية فى إدارة كلينتون ، مؤداه أن ما لا يقل عن خمسمائة ألف طفل عراقى " وصل عددهم الآن إلى مليون حسب بعض التقديرات " قد ماتوا نتيجة للعقوبات الاقتصادية الأمريكية ، فماذا كان رد الوزيرة ؟

قالت أن هذا كان خيارا صعبا ، ولكن ، إذا وضعنا فى الاعتبار متغيرات مختلفة ، فسوف نجد أن هذه الأشياء تستحق هذا الثمن !!

لا نبرز هذه الواقعة كى نبرر أن تسفر عمليات ١١ سبتمبر فى نيويروك وواشنطن عن ما يقرب من ستة آلاف قتيل على أساس أن هذا العدد يتضاءل كثيرا أمام المليون ضحية من الأطفال العراقيين ، ذلك أننا لو أردنا المقارنة ، فلابد أن ندخل فى الاعتبار أيضا مئات القتلى من الفلسطينيين منذ العام ١٩٤٨ ، وحتى الآن ، ولابد لنا أن نضيف كذلك آلاف القتلى فى البوسنة والهرسك ، وكوسوفا ، والشيشان والصومال من المسلمين ، فضلا عن مئات ألوف أخرى من أبناء غير العرب والمسلمين فى حروب الولايات المتحدة فى كوبا وفيتنام وكمبوديا ..وهكذا ، كلا ، لا يمكن أن نستحل قتل أبرياء من أمريكا في مقابل قتل أضعافهم من العرب والمسلمين ، فسوف تظل توجيهات ديننا وقيمنا تنهانا عن ذلك إلا على أرض محتلة من بلادنا .

ولكننا نبرز مثل هذه الواقعة ، وهناك عديد غيرها ، أملا فى أن يعيد غيرنا من الغربيين قراءتها أكثر من مرة ، حتى يفهموا لماذا تبدى جماهير

---

* جريدة صوت الأزهر فى ٢٠٠١/١٠/١٩

عربية وإسلامية – دون الحكومات – فرحها كلما أصاب الأمريكيين مكروه كبير ، فلعل هذا الفهم يحرك عقولهم المتمثلة بأحدث المعارف والمعلومات ، ويمسكون بأحدث الأجهزة العلمية والتكنولوجية ، فيسعون إلى فهم الأسباب الحقيقية ، ومن ثم المواجهة معها .

إن الغربيين عامة والأمريكيين خاصة ، بحكم ما لهم من باع طويل فى الدراسات النفسية والاجتماعية ، لا شك يعلمون علم اليقين ، أن مما كشفت عنه هذه الدراسات أن الشرائح الاجتماعية التى يقع عليها ظلم صارخ ، وقهر جامح ، ويفتقدون وسائل دفع هذا وذاك ، تتخلق فى خيالاتهم وأحلامهم صورة " بطل " يستطيع أن ينغص الحياة على من يملكون كل مظاهر القوة والجبروت ، ومن هنا ارتفعت سمعة " أدهم الشرقاوى " فى مصر ، وحرص البعض على تمسية أبنائهم بأدهم ، على الرغم مما عرف عن أن أدهم لم يكن بطلا وطنيا ، لكن يكفى – هكذا استنتج الوجدان الشعبى المصرى – " أنه " يمرمط " بعض رموز الحكومة التى كانت فى ذلك الوقت تمارس أبشع ألوان القهر والاستغلال على الفلاحين ، دون أن يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم هذا القهر وذاك الاستغلال .

وعندما تجد الجماهير المسحوقة المحرومة من الشروط الأساسية للحياة زعيما مثل جمال عبد الناصر ، بكل ما تتوافر لديه من سلطان ، يعيش عيشة تقشف وزهد دنيوى ، فإن هذا كان من شأنه أن يفتح له قلوب هذه الجماهير المسحوقة المغلوبة على أمرها .

شىء مثل هذا – والقياس مع الفارق بطبيعة الحال – يمكن أن يفسر لماذا هذا التعاطف الغريب مع تلك الصورة التى امتلأ بها الإعلام عن بن لادن كمتحد للغطرسة الأمريكية وهمينتها ، وأيضا كيف أنه وهو الذى يمتلك مئات الملايين من الدولارات ، ويستطيع أن يعيش حياته فى القصور ، وكل

ما يمكن تخيله من مظاهر الترف والنعيم ، ومع ذلك يرضى بالتخفى ويعيش داخل الجحور والكهوف ، وهو مهدد بأن يفقد حياته فى أى لحظة .

إن مما لاحظته الكاتبة الهندية " اروندانى روى " ، التى تعيش في انجلترا فى مقال لها نشرته جريدة أخبار الأدب المصرية فى ١٠/١٤ أن خطاب بوش فى الكونجرس يوم ٢٠ سبتمبر تضمن مقولة غير صحيحة ، ومع ذلك تدفع إلى التشاؤم لأنها تعكس جهلا واضحا بالتشخيص العلمى لما حدث ، وما زالت أجهزة الإعلام الأمريكية ترددها ، هذه المقولة التى زعم فيها إجابة عن سؤال : لماذا يكرهوننا ؟ " أن الآخر يكره الحريات التى يتمتع بها الأمريكيون : حرية العقيدة ، حرية الانتخاب والاجتماع ، والحلاف ".

ووجه الخطأ فى هذا أن العكس هو الصحيح ، فالكثرة الغالبة من الناس يحبون هذه الجوانب فى الحياة الأمريكية ويقدرونها ، ولكنهم يكرهون سياساتها الخارجية التى تسعى من خلالها إلى الهيمنة والقهر والاستغلال . وأنا واحد من الناس سافرت خمس مرات إلى الولايات المتحدة منذ عام ١٩٨١ حتى عام ٢٠٠١ ، فترات مختلفة ، تتراوح بين بين عشرة أيام وستة أشهر ، ودائما ما كنت أشعر بالإعجاب والتقدير إلى حد الانبهار لهذه الجوانب بصفة خاصة ، لكننى ، فى الوقت نفسه ، كلما فتشت في مصيبة أصابت قومنا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، غالبا ما أجد اليد الأمريكية وراء ذلك .

ومن هنا فإن الإنسان لابد أن يتساءل : لماذا لم يضرب المهاجمون تمثال الحرية ؟ ولماذا لم يضربوا الكونجرس ؟ لقد ضربوا رموز القوة الاقتصادية والعسكرية ، ولم يقربوا رموز الديمقراطية والحرية ، على الرغم من عدم إيمانهم بالأسلوب الأمريكى فى هذا وذاك ، لأن القوة الاقتصادية الأمريكية والعسكرية كانت مصدر شرور مستمرة على معظم شعوب العالم المقهورة.

قبل انهيار منظومة الدول اشتراكية ، كان المعسكر الاشتراكى يقف بالمرصاد للممارسات الأمريكية ، بل ويساعد حركات التحرر من الاستعمار ، وما زالت ذاكرتنا تعى جيدا كيف أن الولايات المتحدة عندما وقفت بالمرصاد لتمويل السد العالى سارع الاتحاد السوفيتى بهذا التمويل ٠ وعندما رفضت الولايات المتحدة أن تزود مصر بالسلاح الذى شعرت بالحاجة إليه ، بعد اعتداءات إسرائيلية أوائل عام ١٩٥٥ على غزة ، سارعت تشيكوسلوفاكيا ، ثم الاتحاد السوفيتى بتزويدنا بالسلاح ، إلى آخر قائمة طويلة لابد ألا ننساها مهما كان موقفنا الفكرى من الماركسية ٠

الآن ، أصبحت الساحة واسعة من غير كابح يكبح جماح الغول الأمريكى الذى توحش وتحول عدد غير قليل من نظم الحكم فى العالم الثالث إلى " دمى " فى الأيدى الأمريكية ، وتفتقد هذه النظم وسائل التعبير والحركة ، حتى الاحتجاج ، لا يستطيعونه ٠

فى مثل هذه الظروف تجد تلك التجمعات التى تنهج نهج العنف المسلح رافعة رايات تعبر عن أمان تجيش بصدور الجماهير ٠٠الساحة ملائمة لتكون والنمو ٠

إن الذى نود ألا يغيب عن الأمريكيين هى نوعية من الخسارة التى من الصعب تعويضها ، فعلى الرغم من تلك الأرقام الفلكية المصورة للخسائر الاقتصادية إلا أن هذا الاتجاه الذى بدأ يظهر ويتنامى فى الولايات المتحدة نحو مزيد من القيود وصور المتابعة والتعقب والرصد والمراقبة ، ربما يفقد الحياة الأمريكية " أعز ما تملك " ، إذا صح هذا التعبير ، ألا وهو الحرية والديمقراطية٠

بيوت الله تحت الحصار* !

كان يوم الجمعة الماضى الثامن عشر من أبريل ٢٠٠٨ يوما مهما في حياتى المعاصرة ، فهو اليوم الذى تمكنت فيه بصعوبة أن أعاود الذهاب إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة بعد أن كان يوم الجمعة الحادى عشر من يناير هو آخر يوم أديت فيه صلاة الجمعة ، ففى هذا اليوم شعرت وأنا أصلى أن قدمى قد تلاشت ، وعندما حاولت الخروج لم تستطع قدمى حملى فاستغثت بأهلى أن يجيئوا بسرعة لنقلى إلى المنزل ، وكانت البداية لمحنة مرضية طويلة ...

كان الخطيب مملا في حديثه حتى أنه ساعد بهذا مع الأسف على أن أنتبه إلى معاناتى الجسمية من بعض الألم لجلوسى على الكرسى أكثر من ربع ساعة ، مما جعل الذاكرة تقفز بسرعة إلى سنوات مضت كنا كثيرا ما نستمع إلى الخطيب فلا نشعر بالوقت ، لأن حديثه كان يلامس حياتنا ومشكلاتنا ويتسق مع إيقاع حركة المجتمع ، أما هذه الخطب التي أصبحنا نستمع إليها في المساجد ، فهى في الغالب تنصب على موضوعات مجردة ، بعيدة عن حياة الناس وهمومهم ، تحلق في سماء لا يطار لها على جناح ولا يُسعى على قدم !

ولم يتجه ضيقى وغضبى إلى القائم بالخطبة ، فهو مع الأسف الشديد ، لا حول له ولا قوة ، ولو فتشت في داخله فلربما وجدته هو كذلك يشعر بالملل أن يُملى عليه موضوع للخطبة قد لا يكون مقتنعا به وإنما اتجه إلى من كانوا وراء ذلك . نعم اتجه غضبى إلى من نظروا إلى المسجد لا باعتباره بيت الله الذى يهرع إليه المسلمون يستمعون إلى ما يشغلهم ويحل مشكلاتهم ، تأكيدا على مبدأ أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وبالتالى فلابد من *

---

* جريدة المصريون الإلكترونية ، فى ٢٠٠٨/٤/١٦

تنظيف " هذه الدنيا مما يشينها ، ولابد من استقامتها ، ولـن يـتم ذلـك إلا بمواجهة الواقع ، في حركته ، في تدفقه، في مشكلاته ، في قـضاياه ، مـن خلال رأى الدين وما يتوجه بالتوجيه الربانى

ومن غرائب الأمور في مصر حقا أنه في الوقت الذى تُرفع فيه رايات الليبرالية ، ويُنادى بالديمقراطية ، ويُحث علـى التعدديـة ، إذا بالمركزيـة المفرطة تجثم على العقول في المساجد ، ساعية إلى تنميطها في قوالب تُعـد لها خصيصا ، بل وتتوغل القبضة الأمنية ، فإذا بمن يقف على المنبر لا يجد أمامه إلا أن يحلق في أجواء التجريد وعالم المثل ، بعيدا عن حركة الحيـاة الدنيوية .

نذكر كثيرا العهد الاشتراكى بأنه كان يقوم على " التـأميم " والقطـاع العام ، ونردد أن هذا أضر بالبلاد ضررا بالغـا ، فاتجهنـا إلـى التوسـيع التدريجى للقطاع الخاص وتقليص القطاع العام ، وأصبح مـن المعتـاد أن نسمع بين يوم وآخر عن " بيع " كـذا وكـذا مـن الـشركات والمـصانع والمؤسسات ، فإذا تأملنا في هذا وجدناه قاصرا على عالم الاقتصاد والتجارة ، ثم إذا ما جئنا إلى عالم الفكر والثقافة ، وإذا ما جئنا إلى المجال الـديني ، وجدنا أن العهد الاشتراكى كان " أرحم " بدرجة مـا فـي الـشأن الخـاص بالمساجد ، صحيح أنها لم تسلم من المراقبة الأمنية ، لكننا في عهدنا الحاضر " الليبرالى " نشهد " تأميما " للمساجد تحت لافتة " ضـم المـساجد " تحـت إشراف وزارة الأوقاف حتى يمكن النهوض بها والعناية بمرافقها بما تكفلـه الدولة من تمويل وكوادر !!

وكانت تلك قولة حق أريدَ بها باطل ...

إن النظام يعيش في حالة رعب شديد ، فإذا به يُصاب بلوثة تجعله يُفرغ بيوت الله من الكثير من وظائفها ، فكأنهـا أصـبحت محاصـرة لا بجنـد ومصفحات وإنما بقوانين وقرارات وإجـراءات ، وآخرهـا هـذا القـانون

الفضيحة الذى يُجرم أن تشهد المساجد " مظاهرات " ، وهى أيضا قولة حق يراد بها باطل ، فليس من المستغرب أن تحدث حركة احتجاج أثناء تفاقم وضع مجتمعى ما بمناسبة وجود تجمع كبير من الناس ، فيكون هذا في النظرة الأمنية مخالف للقانون ، وترفع شعارات تحتمى وراء " حُرمة المساجد " وهو الأمر الذى يحتاج إلى مناقشة .

لقد أتاحت لى الظروف أن أضع كتابا ضخما عن (معاهد التربية الإسلامية) خصصت فيه فصلا طويلا عن المسجد والأدوار المجتمعية التي كان يقوم بها منذ نشأته الأولى على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبر العصور المختلفة ، حتى أن مسجدا مثل الأزهر كان هو ملاذ المظلومين من الناس في سنوات القهر أيام العهد الثانى للمماليك ، وفى بعض فترات العهد العثمانى ، حتى لم يجد الفرنسيون وقت غزوهم أمامهم إلا أن " يغزوا " المسجد الأزهر " باعتباره " الرئة " التي يتنفس المصريون من خلالها نسيم حرية التفكير والتعبير والانشغال بالهموم العامة ، وهو القلب النابض لأمة المسلمين في ذلك الوقت الذى يمدهم بمشاعر الحياة الكريمة .

ولا نستطيع أن ننسى أيضا ما حدث أيام ثورة ١٩١٩ ...

وطوال عهد الاحتلال البريطانى الذى كنا نصفه بالبطش والاستغلال ، لم نسمع مرة عن استيلاء على مسجد ومحاصرته ، بل دفع الذكاء الإنجليزى قادة الاحتلال إلى البعد تماما عن المسألة الدينية الإسلامية ، وعيا منهم بأن دماء المصريين التي تجرى في عروقهم محملة بالعقيدة الدينية ، حتى قبل أن يعرفوا الأديان السماوية .

إن المشكلة الكبرى في عدد من المفاهيم هى ما تتمتع به من اتساع وكثرة في المدلولات المحتملة بحيث تتاح الفرصة لكل إنسان أن يرى كلا منها بزاوية خاصة به أو بمن يشايعونه في الاتجاه ، ودون استفاضة في هذا الشأن ، فإن مفهوم السياسة في وقتنا الحالى ، ينصرف في الأذهان مع

الأسف الشديد إلى أن يقتصر على الممارسات الحالية للسلطة ، وعندما تكون هذه السلطة " مفروضة " واستبدادية يكون الاشتغال بالسياسة بهذا المعنى لعبا بالنار ووضع اليد في عش الدبابير ، وتخويف مستمر بالبعد عن السياسة ، واعتبارها منطقة محرمة ، بينما لو راجعنا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ٠٠٠) لأدركنا أن ممارسات السلطة إنما هى عنصر واحد من عناصر السياسة ٠

بل إن المعنى اللغوى نفسه يقول بهذا ، فساس يسوس سياسة أى القيام على الشئ بما يصلحه ، وعلى هذا فالاهتمام بمحو أمية جموع الأميين يدخل في السياسة بهذا المعنى ، والانشغال بتوفير لقمة العيش دون " بهدلة " ومذلة وتسول ، وتحت مظلة العدل ، هو سياسة ٠

ومن هنا يصبح إبعاد المسجد عن السياسة هدما لأبرز وظائفه ٠٠٠

إن الوظيفة الأساسية للمسجد ليست فقط أن يكون مكانا لتأدية فريضة الصلاة ، ذلك أن القيام بهذه الفريضة لا يستلزم المسجد بالضرورة – باستثناء صلاة الجمعة – فقد جعلت الأرض للمسلمين مسجدا ، أى مكانا للسجود ، طالما توافرت لها شروط الطهارة ، مما يتيح للمسلم أن يؤدى الفريضة في أى مكان آخر غير المسجد إذا اقتضت الظروف ذلك ، وتفضيل الصلاة في المسجد ، إنما يجئ حثا لتجمع المسلمين وملاقاة بعضهم بعضا تثبيتا لروابط الأخوة ، فضلا عما يشيعه جو المسجد من تلك الأجواء التى تبث خشوعا وتقوى وحضورا قويا خالصا ، صافيا أمام الله سبحانه وتعالى٠

وما معنى هذا كله ؟ معناه أن المسجد ، إذا كان مكانا لتأدية فريضة الصلاة ، بحكم ظروف النشأة ، وبحكم التجربة التاريخية الطويلة ، فهو أيضا مكان للقيام ببعض الواجبات والفروض المجتمعية ٠٠٠

إن الذاكرة لم تنس بعد كيف أن المسجد أحيانا ما كان مكانا يجئ إليه بعض الطلاب للمذاكرة ، وخاصة في قرانا المصرية ، وأحيانا ما يكون

مكانا يلجأ إليه من يجئ غريبا ، لبضع ساعات ، وأبرز ما كان المسجد يشهده هو مجالس الدرس والتعليم والتى هى بصورة أو بأخرى تعد من الفرائض الدينية لقوله صلى الله عليه وسلم " طلب العلم فريضة على كل مسلم " . ولو درس البعض تاريخ عدد من المساجد الكبرى – كما أوضحنا في كتابنا سابق الإشارة إليه – مثل الأزهر ، والمسجد الأموى في دمشق ، والزيتونة بتونس ، والقيروان بالمغرب ، بل والمسجد النبوى بالمدينة المنورة ، والمسجد الحرام بمكة المكرمة ، وعدد من المساجد الكبرى الأخرى مثل جامع عمرو بن العاص ، والجامع الأحمدى بطنطا بمصر ، فسوف يجدها ، عبر قرون ، تزخر بمجالس العلم .

وهكذا نجد أن القبضة الأمنية المتوحشة قد تحولت فى وظائفها إلى حد أن تسلب المسجد في مصر وظيفة مهمة من وظائفه ، حيث تحتم الأوامر بألا يفتح المسجد إلا وقت الصلوات الخمس فقط ، فإذا ما قضيت الصلاة ، فلابد من غلقها بالضبة والمفتاح !!

ليست بعض الحركات الاحتجاجية التي كانت بعض المساجد تشهدها هى التي لا تراعى حرمة المساجد ، بل إن إغلاقها فيما بين أوقات الصلوات هو الذى يعتدى على حرمة المساجد .

وعندما لا يستطيع أحد أن يعتلى منبر المسجد إلا بإذن وزارة الأوقاف التي لا تستطيع أن تصرح لأحد بذلك إلا بموافقة الأمن هو اعتداء صارخ على حرمة المساجد لأن ذلك يعنى تسخير المسجد لخدمة الحاكم وحده وليس لخدمة المسلمين ، حتى لنخشى ألا تصبح المساجد بيوتا لله بقدر ما هى بيوت لخدمة النظام !!

لقد انتقدنا وعبنا – وما زلنا – الولايات المتحدة الأمريكية لأنها وسعت من مفهوم الإرهاب حتى أصبحت تحارب – إلى حد كبير – معظم مظاهر التدين الإسلامى ، ونرسل التوسلات إليها بألا تربط بين الإسلام وبين

الإرهاب ، فتحارب تحت هذه اللافتة كل ما يشع فكرا ودعوة إسلامية ، لكن التأمل الدقيق فيما يحدث في بلادنا بشأن المساجد وأئمتها يجعلنا نبصر " توحدا " بيننا وبين موقف الولايات المتحدة !

لقد كانت وظيفة وزارة الأوقاف الأساسية هى " رعاية الشئون الإسلامية " ، ويبدو أنها تحولت في الفترة الأخيرة إلى " المراقبة الأمنية للشئون الإسلامية " ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !!

مقترحات لتفعيل
الوظيفة الأمنية لوزارة الأوقاف* ؟!

الدكتور حمدى زقزوق وزير الأوقاف هو – فيما أعلم – كان تلميذا للراحل العظيم الدكتور محمد البهى ، وعلى الرغم من أنه لم يسبق لى أن كنت على صلة مباشرة بالدكتور البهى ، إلا أن أستاذى الراحل الدكتور أبو الفتوح رضوان ، العميد الأسبق لكلية تربية عين شمس ، كان صديقا للدكتور البهى ، بحكم عمادته لما كان يسمى بمعهد الإعداد والتوجيه بالأزهر ، الذى كان يقوم بوظيفة مماثلة لما كان يقوم به المعهد العالى للتربية للمعلمين ، ومن هنا كان ينقل لنا كثيرا مما كان يدور فى مقابلاته مع البهى ، مما مكننى من أن أعرف الكثير عن شخصية هذا الرجل ، خاصة وإنتاجه من كتب الفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامى عموما أعمال علمية ضخمة وعميقة ، وتركت بصمة واضحة على هذا الفكر .

ومن هنا فعندما عُين الدكتور زقزوق وزيرا ، فى الموقع نفسه الذى كان يشغله أستاذه فى الستينيات ، فرحت كثيرا ، خاصة وأن ظروفا سابقة أتاحت لى فرص قرب ما من الدكتور زقزوق ، تركت فى قلبى الكثير من مشاعر الود والتقدير للرجل ، لكن فيما يبدو ، فإن تباين المناخ الذى شغل فيه البهى موقعه كوزير للأوقاف مع المناخ الذى عمل – وما زال – الدكتور زقزوق ، تكشف عن هوة واسعة بين ما سوف يذكره التاريخ عن كل من الوزيرين ...

كان البهى يعمل مع عبد الناصر ، الذى مهما سحل البعض من انتقادات وسلبيات له ، إلا أنه سوف يظل زعيما وطنيا عملاقا ، لا يستطيع أحد أن

---

* جريدة المصريون الإلكترونية ، فى ٢٠٠٨/٥/١٧

يشكل فى وطنيته وإخلاصه وشجاعته ووقوفه بكل جرأة أما قوى النصب العالمى، فى الولايات المتحدة وإسرائيل ، مما جعل هذه القوى تعمل المستحيل حتى تحطم أحلامه ، ومعها أحلامنا ، وبالتالى تفتح الباب للكفر بكل ما حمل من مبادئ ، بحيث يمهد هذا لمن جاء بعده لإرساء دعائم سياسة أخرى مناقضة ، أبرزها التحالف الواضح بين مصر المعاصرة وبين دولة العدو الصهيونى ، والشيطان الأكبر ، الولايات المتحدة ، وما رافق هذا من تحالف رأس المال مع السلطة ، وهو ما أنتج فسادا وقهرا وطغيانا ، وهو العهد الذى توزر فيه الدكتور زقزوق ٠

ولأن العهد الحاضر ينضح بكل مظاهر الفساد والطغيان ، فلابد أن تسير آلة الحكم كلها وفق نفس النظام ونفس التوجه ، ويشكل استمرار المسئول فى منصبه درجة الرضا ومستواه ، فى هذا النظام المتسم بالعفن الناهج نهج القهر ٠

والنظام عندما يكون مفروضا على الناس بالقوة وبالتزييف ، ولا يرى فى الأفق أى اتجاه لتغيره وإفساح المجال لآخرين يتناوبون على السلطة كما فى النظم المتقدمة الديمقراطية ، تزداد حاجته إلى الاعتماد على عصا الأمن الغليظة ، والتى يبررون بطشها بمحاربة الإرهاب ، وهى الحجة نفسها التى تستخدمها دولة العدو الصهيونى فى محاربة القوى الوطنية الفلسطينية ، وهى الحجة نفسها التى تستخدمها قوى البغى الأمريكى فى محاربتها واستغلالها وتمزيقها للدول العربية ، وهم بذلك يسيرون على نهج الخاطىء الذى لا يعالج الأسباب وإنما يوجه جهده للنتائج ، ولو ساد عدل وتداول للسلطة ، وجفت ينابيع الفساد لاختفى الكثير من هذا الذى يسمونه إرهابا ٠

هنا برزت وزارة الأوقاف لتلعب دورا مميزا فى أوركسترا القهر والبغى ، خاصة وأنها مسئولة عن آلاف المساجد التى هى " بيوت الله " ،

ومن على منابرها يمكن بث الوعى الدينى الموجه بمبدأ أن صلاح الدين يكون بصلاح الدنيا ، وبالتالى فلابد من تسليط أدوات التحليل والشرح والنقد للأوضاع والأزمات والمشكلات التى يواجهها أبناء الوطن ،والإرشاد إلى كيفية معالجتها ، حتى يستقيم أمر المواطن فى دنياه ، ومن ثم يستقيم أمره فى دينه .

لكن العقلية الأمنية ، لها منطق آخر ، قد تربوا عليه ، ألا وهو منطق العصا والكرباج والسجن والضرب والتعذيب ، والاعتماد على مبدأ أن المواطن " متهم " حتى يثبت العكس ، والنظر بعين الشك إلى الكثرة الغالبة من الناس ، ذلك مثل " المغتصب " و " السارق " ، كل منهما ينظر بعين الشك دائما إلى الغير ، والنظام القائم على الغصب وفرض الذات بالقوة ، هو صورة من صور سرقة الأوطان ، مما يعزز منطق الشك والريبة فى كل مواطن .

وهكذا كان لابد من وضع اليد على منابر المساجد ، والحجة أنها كانت مفتوحة – كما يقولون – لكل من هب ودب ، ومن ثم فلا يجوز لأحد أن يصعد المنبر إلا إذا كان مرخصا لذلك من قبل وزارة الأوقاف ...قولة حق أريد بها باطل ، كيف ؟

لو كان الحكم لوزارة الأوقاف وحدها بالفعل ، لكان هذا المنطق مقبولا ومرحبا به ، إذ أنه يعنى أن تطمئن الوزارة إلى الأهلية العلمية والتربوية والدعوية لمن يقف على المنبر ، فمن ينكر ضرورة ذلك ؟

لكن الذى يحكم بالدرجة الأولى هو المعيار الأمنى ، أى درجة الولاء للنظام الحاكم ، فليس مطلوبا الاختلاف فى الرأى والموقف ، ذلك الاختلاف الذى يُفسر دائما بأنه " تحريض " و " إثارة للفتنة " والتحرك والكلام " بفعل قوى تخريبية إرهابية " ...نفس المنطق الذى نعيشه ونسمعه ، منذ الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، حتى الآن .

ووصل الأمر إلى ألا تفتح المساجد إلا فى أوقات الصلاة فقط ، وهى منذ ظهور الإسلام ، حتى عهد الدكتور زقزوق ، أى أكثر من أربعة عشر قرنا ، تُعد " بيوتا لله ، مفتوحة للعابدين والعاكفين والركع السجود والمتبتلين ..لماذا الآن يحدث مع يحدث من الإغلاق ؟ لأن المواطنين " متهمون " حتى يثبت العكس ؟!

ثم تجئ الفضيحة الكبرى ، فى شهر رمضان منذ ما يقرب من ثلاثة أعوام ، حيث درجت العادات والموروثات الإسلامية أن هناك من يعتكفون للعبادة ، فيكون منع وإبعاد وقيود وعراقيل وتحقيقات فقد وصلنا على اللحظة التى يعد فيها المتدين موضع شبهة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وإذا كان صلاح الدين كما أوضحنا يتطلب صلاح الدنيا ، إلا أن التعليمات الأمنية جعلت الوزارة المسئولة عن الشئون الدينية لا ترحب بحديث على المنبر يحدث الناس فى هموم بلادهم ومشكلاتها ، وقضاياها ومستقبلها ، فهذا كما قلنا يدخل فى باب الإثارة والتهييج ، ومن ثم فلا مانع أن يحدث الخطيب الناس عن عذاب القبر ، لكن ليس عليه أن يحدثهم عن عذاب الشارع !

ولما وجد الخطباء أن ليس عليهم أن يقربوا هموم البلاد ومتاعب الناس من خبز ومياه وكهرباء وتعليم وأمن ، ركنوا إلى " المجرد " الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع ..أهمية الصدق ..الأمانة ..التقوى ، كلها قيم مهمة ، لكن لا يفيد الحديث فيها إن لم تقرن بأمثلة وحالات مما تعانى منه الأمة ، ويقاسيه الناس!

ومن هنا فإننا ما دمنا أمام وزارة اصبح اسمها الحقيقى هو (وزارة الأوقاف والشئون الأمنية) – لا الإسلامية – يمكننا أن نسهم ببعض المقترحات التى تعزز وظيفتها الأمنية ، مثل :

- تعيين وكيل وزارة متخصص للشئون الأمنية تختاره وزارة الداخلية من بين رجالها ، يكون برتبة لواء ، على أن يمر بدورة أو أكثر فى الثقافة الدينية من وجهة نظر المستشرقين ، حتى تتأصل لديه نظرة الشك فى التعليم الدينية الإسلامية .
- تزويد كل مسجد بوابة للتفتيش الإلكترونى مثلما أصبح الأمر فى الفنادق والمطارات ، خوفا من تسرب أى سلاح لداخل المسجد ، كمرحلة أولى حتى يتعود الناس ذلك ويألفوه .
- وفى مرحلة تالية ، تعد بطاقات خاصة " ممغنطة " لابد من الحصول عليها – مجانا – بحيث تكون البطاقة هى مفتاح الدخول إلى أى مسجد ، ولا يحصل أى مواطن على هذه البطاقة إلا بعد مراجعة ملفه من قبل الجهات المختصة فى وزارة الداخلية .
- ألا يسمح بإلقاء أى خطبة جمعة في أى مسجد ، حتى ولو كان زاوية صغيرة ، قبل تسليم نصها أو صورة منها إلى مندوب تعينه وزارة الداخلية لمراجعة الخطبة وإعطاء الموافقة عليها .
- وربما يكون الأضمن هنا أن يُختار كتاب من الكتب الصفراء التى ظهرت فى العهد العثمانى ، حيث كان هو الأكثر تخلفا وتأخرا فى مصر ، وتصنيفه إلى مجموعة موضوعات توزع على الخطباء والأئمة للاستعانة بها فى خطب الجمعة .
- تشكيل لجنة مشتركة بين وزارة الداخلية ووزارة الأوقاف لمراجعة نص كل مخطوط أى كتاب يقدم لوزارة الأوقاف لنشره ، خوفا من تسرب الأفكار المتطرفة والإرهابية .
- تنظيم محاضرات لبعض ضباط الشرطة عن الفرق الإسلامية ، وخاصة المتطرف منها ، وما حدث من أحداث فتنة فى التاريخ ووقائع اغتيال .

- وفى المقابل ، تنظيم محاضرات لبعض الأئمة فى وزارة الأوقاف تمكنهم من اكتشاف مظاهر التطرف والغلو لدى من يؤمون المساجد وكيفية استدراجهم ومعرفة ما يضمرون ، وكيفية الإبلاغ عنهم ، لمعاونة رجال الأمن والمخبرين السريين المنتشرين حول وداخل المساجد حاليا ، وتخفيف العبء الثقيل الواقع على كاهلهم .
- وربما يكون الأهم من ذلك ، هو أن تنظم دراسة بكلية الشرطة لمن يختارون أئمة للمساجد ، يحصل بعدها الإمام على دبلوم يؤهله لوظيفة الإمامة الأمنية .

ولا أظن أننى قد أحطت بالقضية – قضية المقترحات – من جميع جوانبها ، لكن هذا هو ما أعاننى الله عليه ، وحبذا لو ساهم القراء معى فى تقديم اقتراحات أخرى قد يرونها ، فيزداد التفعيل ، وتقوى الروابط ، تمهيدا للإلغاء وزارة الأوقاف – فى مرحلة تالية ، وضمها لوزارة الداخلية ، فهذا يكون صورة من صور الشفافية والصدق والاتساق مع الذات .

وادى الدموع*

ليس هذا عنوانا لقصة كما قد يبدو لأول وهلة ، وإنما هو صور متعددة نرجو من الله أن يوفقنا إلى تناولها من خلال سلسلة من المقالات عن " عذابات " هذا الشعب المسكين ، الشعب المصرى ، الذى تعرض ،ولقرون عدة ، لصور من القهر والاستبداد والاستغلال ، ما لو تعرض له شعب آخر ، لكان قد انمحى من على خريطة الدنيا منذ زمن طويل ، لكن غرادة الله عز وجل أرادت أن تمد فى طاقة أبنائه مما يمكنهم أن " يتكيفوا " مع أعتى صور الظلم والقهر ، ويستمروا فى الحياة ، لتستمر مصر بهم ومعهم ، ولم لا ؟ أليست مصر هى الدولة الوحيدة التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم ؟

ليست هذه " شوفينية " تدفع الإنسان إلى أن يتمحور تفكيره حول وطنه ، فكاتب هذه السطور ممن يؤمنون إيمانا جدازما بالمنطلق العروبى الإسلامى الذى يؤمن أنه لا قوة ولا حياة لكل دولة عربية على حدة إلا بترابطها الوثيق مع الدول العربية الأخرى ، ليس بالضرورة فى شكل وحدة سياسية كالتى رأيناها من قبل عام ١٩٥٨ بين مصر وسوريا ،وإنما فى كل اشكال التعاون والتكامل والترابط ، مثلما هو الأمر الحادث بين دول الاتحاد الأوربى التى لا تحكمها لغة واحدة ،وكان بينها وبين بعض حروب طاحنة استمرت عدة قرون !

ويرتبط بهذا ، الاستناد إلى مرجعية إسلامية تنشد التقدم ، وتمد يدها لكل يد لا تمتد إليها بغدر أو ساتغلال أو سيطرة وهيمنة .

لكنها نقطة البداية فى نهوض الأمة ..الوطن ، فليس من المعقول أن ننشد نهوضا وقوة وعزة لجملة شعوب وبلدان ، والبلد الذى نعيش على أرضه ، والشعب الذى نحن جزء منه ، يعانى من آلام ويواجه ما يواجهه

---

* جريدة المصريون الإلكترونية ، فى ٢٠٠٦/٦/٢٨

من عذاب ، فالقاعدة المعروفة (إبدأ بنفسك ، ثم بمن تعول) هى الحاكمة هنا .

وفضلا عن كل هذا ، فالحديث عندما يكون عن خبرة ومعاناة ومعايشة لمدة قاربت على السبعين عاما ، تكون أقرب إلى الصدق ، مهما تلونت بالرؤية الخاصة ،وتحددت بالمعايير الشخصية ، فهى أصدق على أية حال من كتابة عن أوطان لم نرها إلا أياما أو حتى شهور ، أو حتى سنوات تقل عن أصابع اليد الواحدة أو تزيد قليلا .

ثم ، هل يحتاج الإنسان حقا أن يبرر حبه لوطنه واستثاره بالحديث ؟ لو حدث هذا نكون حقا أمام المقولة المشهورة : هذا شرف لا أدعيه وتهم لا أنكرها!

لكن ، ما الذى دفعنى إلى البدء فى هذا الحديث ؟

مدرس مساعد بإحدى كليات التربية ، أشرف على رسالته للدكتوراه ، جاءنى يسلمنى نسخة الرسالة حتى نستعد لمناقشته ، وكان المفروض أن يجيئنى قبل ذلك بأسابيع قليلة ، فلما سألته عن سبب التأخير ، إذا به يحاول أن يعتذر عن عدم الحديث فى ذلك ، رجاء ، وأنه " أمر " بألا يخبرنى أنا بالذات بهذا !! فإذا بى ألح عليه ، إلى درجة التهديد بعدم إتمام المناقشة إن لم يخبرنى ، ثم إذا به يطلعنى على صورة من صور سلوكيات صغير بدرجة دكتوراه ، مما لا يليق من أى إنسان ، فضلا عن مثل هذا الصغير ، ثم إذا بالمدرس المساعد يفاجئنى بانفجار بكاء لا إرادى ، بصوت مسموع ،والكلمات تتعثر على لسانه ، عندما أشار إلى صور إهانة و " بهدلة " حدثت له من هذا الصغير بدرجة دكتوراه !!

دون استطراد إلى بقية القصة ، فليست هى المرادة فى حد ذاتها من حديثنا الحالى ، ففضلا عما شرعت فى اتخاذه ، فقد سعيت إلى التخفيف من هذا أمام تلميذى العزيز ،وقلت له : يا بنى ! لست وحدك فى هذا ...أنا

نفسى تعرضت لما يشبهه من تلميذ لى هو الآن بدرجة أستاذ ، ويشغل مواقع مرموقة بالكلية والجامعة !!

وبينى وبين نفسى تذكرت كذلك ، ما سبق أن رواه لى هذا العضو هيئة تدريس بجامعة كذا ، وسابق حديث غيره ، وغيره ، وما نسمعه ونقرأه ، ويشاركنا فى القراءة عنه على صفحات الصحف ، وفى باب الحوادث ، مما يكثر حدوثه الآن فى الجامعات التى هى – هكذا المفروض – عقل المجتمع ..وطليعة النهوض فيه ..ومصنع قيادات قطاعات المجتمع لسنوات طويلة قادمة .

وقريب من هذا ، ما شُغلت به مصر عبر شهور قليلة مما حدث بالنسبة لرجال القضاء ،وهم من هم فى حياة المجتمع بصفة عامة ، يصدرون الأحكام التى ترفع الظلم وتقيم العدل ،وترد الحق لصاحبه وتصوب المسار ،وتصحح الطريق ،وتعوض المتضرر ، وتعطى لهذا أو ذاك ما قد يعوضه عما لحق به من أضرار من قبل الغير ...هؤلاء ، الذين لا قيام لحياة اجتماعية إلا بهم ،يصل الأمر بواحد منهم أن يُضرب فى عرض الشارع من قبل قوات أمن ،وحتى الآن لا تهتز الحكومة ، ولا تتزلزل البلاد ، فالإهانة لم تقع على قاض فرد فحسب وإنما وقعت لمهنة العدل ، وغذا حدث هذا ، فقل على الأمن والأمان السلام ...إن الإهانة وقعت على كرامة جملة المصريين لأن كرامتهم من كرامة الحكام العدول بينهم !

ولو قدر لك أن تجلس مع هذا أو ذاك ،من قطاع ، وآخر ، وثالث ، ورابع ، سوف تفاجأ بأنك أمام نفس الشكوى ..تفسخ فى القيم ...تحليل حرام وتحريم حلال ..صاحب الرشوة وممارس النفاق ، وضعيف الشخصية ، واللص ، تجدهم يتقلدون المناصب الرفيعة ، ويوالون الصعود بقدر ما يرتشون ويرشون وينهبون وينافقون ، حتى أصبح الإنسان الآن

عندما يسمع أن فلانا قد أختير لهذا المنصب أو ذاك من المناصب التى نسميها بالعالية ، نقول فى أنفسنا : لابد أنه غير نظيف !

وفى المقابل ، تجد الشريف قد انزوى إلى ركن مغمور ، أ، وقع عليه اضطهاد ،وتجد صاحب الكلمة الشريفة مجهولا ،وتجد صاحب الفكر الراقى والباحث المتميز، لا يذكرونه ضمن قائمة الحاصلين على الجوائز الكبرى !

وهكذا فى كل رجأ من أرجاء البلاد ،وفى كل ركن ...

فى كل فترة ، يقول مثلى فى نفسه : لقد وصلنا إلى القاع ، قاع الخلل ، وقاع التدنى ، فلابدأن يتوقف الانحدار ، ولابد أن نشهد علامات تنبئ بقرب طلوع الفجر ، فقد اشتد الظلام بنا طويلا ، وطال انتظار الفرج، لكن ساعته لا تجئ !

فما الذى جرى للمصريين ؟

صحيح أن الدكتور جلال أمين قد أخرج لنا كتابه المبدع الذى يحمل التساؤل نفسه : ما الذى حدث للمصريين ؟ الذى هو أصدق عنوان لما اريد كتابته ، لكن مسيرة التدهور ما زالت مستمرة ،وما كتبه المفكر الكبير ،منذ الثمانينيات حتى التسعينيات ، يبدو أنه كان " نعمة " أمام ما نحن مستمرون فى الاتجاه إليه ، مما يجعل من الكتابة فى هذا الاتجاه فريضة على كل من يكتب وتشغله هموم هذه الأمة ،وهو ما ارجو أن أستمر فيه بإذن الله تعالى .

وديان دماء*

إذا كنت قد بدأت سلسلة مقالات عما أسميته (وادى الدموع) قاصدا بذلك مصر ، فإننا فى هذه الأيام نقف أمام مشهد أشد ضراوة ... مشهد يطن لنا بكل وضوح أن أى شعب عربى وإسلامى يريد أن يستقل بقراره ومصيره ، لابد أن يتحول إلى واد تسيل فيه دماء أبنائه ، حتى لقد تحولت جملة بلدان العالم العربى والإسلامى بحق إلى وديان دماء !

المشهد الحالى ، مجرد مثال واحد من عشرات الأمثلة الممتدة منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى كتابة هذه السطور ...

المشهد الحالى يتم فيه قتل وتشريد آلوف الفلسطينيين ، وهدم أبنيتهم وإحراق أراضيهم ، بعد عدة شهور من الحصار والتجويع الذى وصل إلى حد منع المؤن والأموال ، بمباركة من معظم دول العالم ، وفى مقدمتها دولنا العربية والإسلامية ...

كان ذلك أولا عقابا لشعب فلسطين لأنه اختار بكامل إرادته فئة تحكمه .. صحيح أنها لم تتلوث من قبل بالسرقات والعمالة والتآمر ، لكنها تحمل سلاح المقاومة ، فى زمن أصبح الشعار فيه (الانبطاح والخنوع التام أو الموت الزؤام) ..

ثم كان العقاب الأكبر : بسبب أسر حماس لجندى ... جندى إسرائيلى واحد ، حتى يساومون به على آلاف الفلسطينيين المأسورين ، ولا أحد فى العالم يذكرهم ، فضلا عن أن يفعل شيئا من أجل الإفراج عنهم ، رغم ما حملته خطط سابقة من الإفراج عن بعضهم ، وفيهم صبية وأطفال ونساء ..

لاحظ أن هذا الذى يحدث على أرض فلسطين من أجل جندى واحد ،

---

* جريدة المصريون الإلكترونية ، فى ٢٠٠٦/٧/١٩

يذكرنا دائما بعدد من الجنود المصريين الذين قتلهم إسرائيليون ، فما اهتزت شعرة القيادة المصرية ، بل ، واستُقبل الزعيم الصهيونى " أولمرت " بالأحضان والقبلات ..

هل تدرى لماذا حدث هناك ما حدث ، وحدث هنا ما حدث ؟

لأن المواطن الإسرائيلى هو الذى يأتى بحكومته ، وهو الذى يمكن أن يذهب بها ، فلابد أن يكون هذا المواطن ذا قيمة عليا ...

أما المواطن فى مصر ، وفى كل دولة عربية ، فليس هو الذى يأتى بالحاكم ، وإنما يجئ الحاكم أولا ، ثم يؤمر المواطن بأن يسجل موافقته على ذلك ...من هنا كان المواطن العربى غير ذى قيمة عند حاكمه !

وتأسر إسرائيل أيضا عشرات اللبنانيين ، فإذا ما قامت المقاومة اللبنانية بأسر اثنين من الإسرائيليين ، فإن ذلك يكون ذريعة لهجوم شامل برا وبحرا وجوا ..إنهم لا يدمرون حزب الله ، حامل راية المقاومة ، وآخر الرجال المحترمين ، ولكنهم يدمرون كل شئ ..فى طول البلاد وعرضها ، والعالم كله يتفرج ، وينحى باللائمة على حزب الله .

لم يكن هذا وحده هو المؤلم ، فهذه هى طبيعة النازيين الجدد ..الإسرائليين ، ولكن الأشد إيلاما أن تجئ الطعنة من زعماء نُكب بهم العرب ...توجيه اللوم إلى حزب الله ، الذى يصفون سعيه لاسترداد الكرامة المستباحة بأنها " مغامرة " ، والسؤال هو : وماذا فعل تعقلكم عبر عشرات السنين ، إلا أن جر علينا التخاذل والمهانة والاحتلال وضياع الأرض وقتل آلاف من أبناء أمتنا ؟!!

افرض أننا سكان بيت وقام واحد منا بإساءة استعمال مادة مشتعلة ، فشبت النيران فى البيت ، هل يكون من التعقل أن نأخذ فى تقريع من أخطأ – على فرض خطئه – أم نهب جميعا لإطفاء النار ، وبعد ذلك نمارس ما شئنا من لوم ونقد على هذا المخطئ ؟

إنهم يعلمون ذلك ، ولكنهم يصرحون بما يصرحون من تصريحات يندى لها الجبين ، كى يبرروا لنا ولضمائرهم ، إن كان لديهم بقية ضمير ، وللعالم ، تقاعسهم عن المعاونة والمشاركة والمؤازرة ، بأى صورة ، وبأى مستوى لنجدة الشعب اللبنانى !

كنا نلوم عبد الناصر ، أنه كان يبادر بإيقاف كل إمكانات مصر والمصريين لنجدة أى دولة عربية ، بغير حدود ، فى الوقت الذى كان المصريون بحاجة ماسة إلى كل قرش ، ونقول أنه كان يكفى أن يرسل سلاحا أو متطوعين أو يؤازر حرب عصابات ، بغير ضرورة لإرسال جيوش ، كما حدث على أرض اليمن وأرض فلسطين ...

فإذا بنا اليوم نقع فى الطرف المناقض ، فلا يكون لمصر أى دور ، إلا دور المتفرج ...ويهمس بعض من ذوى الدراية فى أذاننا قائلين : يا ليت الأمر وقف عند حد التفرج ، وإنما هناك مشاركة ومؤازرة ، لا للطرف العربى وإنما للطرف المعتدى على العرب !!

نعم دماء العرب والمسلمين تسيل فى كل مكان ...

لا نريد أن نعود إلى الوراء طويلا ونشير إلى عهود احتلال طويلة وما فعلته من تخريب وتجريف وتخلف ، وإنما نعود فقط إلى أول التسعينيات ، عندما سالت دماء عشرات الألوف من أبناء البوسنة والهرسك وكوسوفو ...ومع ذلك ، كل الدنيا تتحدث عن إرهاب المسلمين ودمويتهم ، ويطالبونهم بالحوار مع الآخر !

تنهب منطقة ضخمة من المناطق الإسلامية ، فإذا ما سعى أهلها من الشيشان أن يمارسوا حقهم فى الاستقلال ، تشن عليهم حرب إبادة ، ولا أحد يقف بجانبهم ، ومع ذلك يطالبون المسلمين بأن يحسنوا " التعايش " تعايش مع من ؟ مع قاتليهم ومحتليهم !

وفى الوقت الذى يسمون فيه الشيشان بالانفصاليين ، يشجعون آخرين فى أندونيسيا على الانفصال متغنين بحق تقرير المصير ! ما الفرق ؟ روسيا دولة غير إسلامية ، لا ينبغى أن تنفصل الشيشان عنها ، وأندونيسيا دولة إسلامية لابد من العمل على تفتيتها وتقسيمها ، ومع ذلك يطالبون المسلمين بالسلام ويكونوا مسالمين مع مغتصبى أراضيهم ومغتصبى نسائهم !

وماذا نقول عن درة العالم العربى والإسلامى ؟ مصنع الحضارة الإسلامية عبر قرون ؟ العراق ، الذى زعموا أنه كذا وكذا ، ثم تبين للجميع أنه لم هكذا كما صوروه ...قالوا نظام صدام قاتل وقاهر ، فماذا يحدث للعراقيين منذ أكثر من ثلاث سنوات غير تفجيرات يومية ، وعشرات القتلى يوميا ، وآلاف الجنود الأجانب يسيطرون ويحكمون !

ومع ذلك ، يطالبون المسلمين بالتسامح والغفران ، مع من ؟ مع من احتلوا أراضيهم ودمروا بنية بلادهم الأساسية وأفقروهم ، بعد أن كانوا من أغنى الدول ، وقتلوا العديد من علمائهم !

فى كل فعل يشير إلى مقاومة ...فى كل تحرك يشير إلى ممارسة إرادة وطنية ، يملأون الدنيا تخويفا من إيران ، فهى التى ...وهى التى ... وكلما نددوا بإيران ، كلما زاد حبها فى قلوب الملايين من المسلمين ، فعدو عدوى صديقى !

المثير للكثير من علامات الاستفهام أن هناك من حكامنا من يرددون نفس الموقف الإسرائيلى والأمريكى عن إيران فيحرصون على عدم التعامل معها ، بل وتحذير كل من يفكر فى زيارتها وبهدلته فى أمن الدولة ..والسؤال هو : هل إيران أشد عداوة للعرب والمسلمين من إسرائيل ؟ تفزعون لسعيها لامتلاك القوة النووية ، ولا يزعجكم امتلاك إسرائيل لها ؟ حقيقة ، لم أعد أدرك الفرق بين زعماء مثل أولمرت وشارون وبين هذا وذاك ممن ابتلي العرب بهم من حكام !!

الدولة الأمنية*

الطالب المسكين الذى " فقعت " عينه منذ أسبوعين ، بإحدى مدارس مصر الجديدة ، بعد عمليات ضرب وعراك وتشابك بالأيدى واستخدام أدوات عنف ، دون أن يشعر " عسكرى " واحد من الشرطة بما حدث ،والذى استغرق بالضرورة وقتا ليس قصيرا ، لم يكن هو الأول ،ولن يكون هو الأخير ، لسبب بسيط هو أن الأمر عندما يتعلق بأمن المواطن ،ف " فى ستين داهية " ، أما إذا تعلق بأمن النظام فلابد أن تقوم الدنيا ولا تقعد !

وليست هذه هى المرة الأولى التى أكتب فيها عن هذا الموضوع ، فقد سبق أن كتبته فى جريدة الأهالى عام ١٩٨٦ ، وكالعادة ، فلا أثر دائما لما نكتب ،ومع ذلك فلن نمل أبدا من إبداء الرأى ، لأنه صورة من صور الشهادة ، لا بمعنى " الموت " فى سبيل الحق ، وإنما بمعنى أن نتحدث عما نرى ونشاهد وننطق بالكلمة التى نعتقد أنها كلمة حق ، يقول عز من قال فى سورة المائدة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)) ، ويقول كذلك فى سورة البقرة (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... (١٤٣)) .

وفى الوقت الذى لا نجد فيه " شرطة " بالقرب من المدارس الثانوية ، العامة والفنية ، التى أصبح مشهورا أنها تشهد فى السنوات الأخيرة معارك بين الطلاب ، أحيانا ما تنتهى بإصابات جسيمة ، تجد وجودا مكثفا لهذه الشرطة على أبواب الجامعات ..هل تعرف لماذا ؟

---

* جريدة المصريون الإلكترونية ، فى علم ٢٠٠٦

فى المدارس ، انعزل الطلاب تماما – بفعل عوامل متعددة ، ليس هناك مجال تحليلها – عن الوعى السياسى والانشغال بهموم الوطن والأمة ، وأصبحت مراكز الاهتمام تدور حول نانسى عجرم ،وإليسا ، وهيفاء وهبى وعمرو دياب ، وغيرهم من رموز الزمن الأسود ، وهذا ما يطمئن الداخلية المصرية ، ومن ثم فإذا قامت معركة حول قضية خطيرة تمس مثل هذه المسائل ، فلتكن النتيجة ما تكون ،وليذهب من أصيب إلى الجحيم ٠٠المهم أن هذا لا يمس شعرة من القوم الذين يمسكون بمصير هذا الوطن المسكين ٠

أما على ابواب الجامعات ، فالأمر مختلف إلى حد كبير ٠٠٠

صحيح أن " التجريف " و " التسطيح " قد زحف على عقول كثيرين من شباب الجامعات ، لكن التجمعات الضخمة التى تصل غلى عشرات الألوف ، لا يخلو الأمر من عشرات الأفراد ، أوحتى أحادهم من الوعى بهموم الأمة،والتى نرى جراحها تزداد استاعا وعمقا ، وتزيد الدماء سيلانا يوما بعد يوم ، ولأن العقول والقلوب لدى شبابنا ، مهما بدا على سطحها من " تجريف " ، فإنها سرعان ما تعود إلى الوعى بذاتها ، تسترد عافيتها عندما يصبح أو يصرخ غيره بجواره ممن يظلون مستمرين فى الوعى ، فإذا بالنداء يسرى فى الجموع كما تسرى النار فى الهشيم كما يقولون ، فتشتعل جموع الطلاب بسرعة ٠

هنا ترتعد فرائص النظام ٠٠٠

إنه عدو لدود للوعى ٠٠٠وصديق حميم للتسطيح والتجريف ٠٠

وأى صيحة حق ونداء حرية ومطالبة بالعدل ، هى مؤامرة ٠٠وهى تخريب ٠٠وهى تهديد لأمن مصر ،والمقصود فى الحقيقة : أمن النظام ، لكن من يحكمون يوحدون بين أنفسهم وبين الوطن ،وهذا هو المنطق الذى يسيرهم فى التفكير والسلوك ، فالوطن قد تم اغتصابه وخطفه ، وأصبح

ملكية خاصة لهم ، ومن ثم فالمناداة بحرية التفكير ،والتعددية ، وتداول السلطة " صيحات تخريب " ومؤامرات مدفوعة (دائما) من الخارج ...

فنحن المصريين فى نظر حكامنا فاقدين للقدرة على التفكير الذاتى ، ولابد من أن يكون طرف خارجى هو الذى يحركنا ...ووسف نظل دون سن الرشد ، مهما مرت سنون ،ونحن جميعا فى نظرهم " خونة "، لأننا نخون الوظيفة التى أرادوها لنا ...أن نكون " نعاجا " ..أو عبيدا ، لا نعرف إلا السمع والطاعة ،حتى لو قالوا لنا أن أيام الأسبوع قد أصبحت خمسة أو ستة ، إذ لابد أن نعقب قائلين " فعلا " ،ولو قالوا لنا أن الشهر خمسة أسابيع ، فلابد أن نعقب قائلين " حقا " ، ويبدو أننا كنا غافلين عن ذلك من قبل !!

أضطر فى بعض الأحيان أن أذهب لقضاء بعض المهام فىمناطق مثل عين شمس والمطرية والزيتون وحلمية الزيتون ...مناطق يسكنها مئات الألوف من أهل مصر ، وأنظر يمينا وشمالا لعلى أجد " عسكرى "واحد ، فلا أجد ! ترى ، ماذا لو اشتعل موقف من المواقف فى نزاعبين المواطنين ؟ " موت يا حمار على ما يجيلك العليق " !!

وفى الوقت نفسه أذهب إلى مكتبى خلف جامعة عين شمس ، فإذا بالمنظر الأول يصفع عيناى ..عدد من المسيارات المصفحة ، المتئلئة بالجنود مكفهرى الوجوه ، غلاظ القلوب ،ممسكين بكل ما يؤلم ويؤذى من أدوات الضرب والركل فى أى مكان ..فإذا ما انتهيت من عملى ،يكون النظر نفسه هو آخر ما تصافحه عيناى ، حتى يقر فى ذهنى أنهم من أمام ومن خلف ، يتربصون بى وبالجميع : حذار أن تحتج أو تعارض أو ترفض ..

إن تعارك الطلاب ..لا يهم ...إن أخذ طالب طالبة فى أحضانه ،مقبلا لها جهارا نهارا ..لا شئ يهم ...إن مد طالب يده فى يد زميل له

سارقا ..لا شئ يهم ..فما هو المهم إذن ؟ أن تمس أهل الحكم بفكرة تسئ إليهم ..أو تجهر برأى يكشف عوراتهم .

و هنا تتحرك الجيوش والأساطيل من الأمن المركزى الرابضة أمام أعين الجميع ، جيوش لا تتحرك دفاعا عن غرق الف من المصريين فى البحر الأحمر ،ولا يتحرك مثلها إذا قتل أحد جنود مصر على الحدود المصرية الفسلطينية بيد أحد جنود الدولة النازية الجديدة ، بل لا مانع من أحضان وقبلات على مستوى عال بين البلدين ! كما لا تتحرك إذا سقطت عمارة على عشرات من سكانها !!

أذهب إلى المجالس القومية وأنزل فى نفق عبد المنعم رياض بالقاهرة ، وأريد الخروج من المنفذ المؤدى إلى السير يمينا حيث المجالس فأجده مغلقا ، ولابد من الاتجاه ، الناحية العكسية ، لأنزل إلى الطريق نفسه ، حيث الرصيف محجوز بحواجز الأمن المركزى ، ويكون سيرى غير مقتصر على مشاركة السيارات فى الطريق ، بل وفى الاتجاه العكسى ..لماذا هذه الترسانات المسلحة ؟ يقولون :حماية لدار الآثار!

شئ جميل حقا لو كان صحيحا ، فهذا تاريخنا العظيم ،وتلك حضارتنا الراقية ، لكن ، هل هم بالفعل يحرسون تاريخنا وحضارتنا ؟ أبدا ، وإلا ، فما هذه الألوف من قطع الآثار التى نقرأ دائما عن تهريبها وسرقتها وضياعها ؟

إنهم يحرسون صورتهم لدى الدول الكبرى ، حيث المكان المشار إليه مهبط السياح ! نحن نحب السياح ونسعى مع الحكومة إلى أن يجيئوننا آمنين ، ونحن ، بحكم تقاليدنا نحب أن نكرم ضيوفنا ، ولكن من حقنا نحن أيضا ، أبناء هذا البلد أن نطمع فى أن نتساوى بهم من حيث الاهتمام بأرواحنا !

إن حكامنا يضيعون حاضرنا ومستقبلنا ، فهل نتصور أنهم بالفعل يحرسون ماضينا وآثارنا ؟

وأتجه ليلا إلى فراشى كل يوم ، لأنام مثل سائر خلق الله ، ولكن مبكرا ، على غير عادة خلق الله فى مصر منذ سنوات ، فإذا بصياح ولعب كرة فى الشارع ، وأصوات كاسيت تصرخ بأصوات الرقبيعات والرقع ، فيعز النوم ويهرب من جفونى ، وأبحث عن عسكرى واحد يوحد الله يدافع عن أمنى فلا أجد ، وأطلب شرطة النجدة ، فيعدون ، بعد استفسارات ، لكن لا نتيجة حاسمة ، ويظل هذا الشباب فى صخبه ولعبه وموسيقاه حتى الفجر !

ترى ، لو كان هذا تجمعا للاحتجاج على الدماء الفلسطينية ، والجوع والحصار ..

لو كان نقاشا حول أحقية إيران فى التقنيات النووية ...

لو كان حوارا حول التوريث ...

هنا لابد أن تنشق الأرض لتظهر جيوش الأمن المركزى وتضرب بكل عنف وتعتقل وتسحل وتستخدم الصرم وزالجزم ...ويبررون : لا تسامح مع من يهدد أمن مصر !

إنه أمنهم الخاص ، وليس أمننا نحن المواطنين ...لأن مصر ملكية خاصة لهم ، ونحن الذين نعيش على أرضها رقيق ، وليس لنا حق الاحتجاج ، وإلا فالسجون والمعتقلات ، وأضعف الإيمان (إن كان ثمة إيمان هنا) الضرب ، وتركك تعود إلى البيت ، موجوع القلب ، دامع العين ، مكسور الجناح ..كل ذلك ليس مما يهم ، ما دام أهل الحكم جالسين على الأرائك ينظرون !!

سنوات طويلة ،منذ عام ١٩٨٤ ، كنت أدخل المجالس القومية آمنا ، بسيارتى ، دون أن يحدث ما يعكر صفو أحد ، ومنذ سنوات قليلة ، أجد أحيانا عربة محملة بالكلاب البوليسية ،ومن ، وج ، قبل الدخول ، أحيانا ما أسبق الضابط السائل فأكمل (من باب السخرية والتريقة) ، ووزنى كذا ، ومتزوج ، وأولادى كذا ،وأمى اسمها كذا ، وطولى كذا ...ثم يتقدم ضابط

عظيم بأجهزة كاشفة لفحص السيارة ، وأسأل الرجل مرة : يا بنى لقد قربت من السبعين ، وأنا أستاذ بالجامعة منذ أربع وأربعين عامـــا ، تـــرى : هـــل تتصور أن أحمل قنابل ومتفجرات ؟ لقد دخلنا هذا المبنى سنين طوال بغيـــر تفتيش بهذه الصورة المفزعة ، ولم يحدث أى شئ ، ولو مرة واحدة !

ويكون الرد التقليدى : أنا عبد مأمور ! هل هذا حماية للناس بهذا الموقع ؟ كلا ، فلقد استجد مبنى فخم ضخم اسمه المجلس القومى للمرأة ،وهنا لابـــد لشهرزاد أن تكف عن الكلام المباح ، فأنت عزيزى القارئ لابد قد خمنت ما يتبع هذا مما يتصل بموضوعنا ، وتقدر جيدا كيف أن حكم "العمر " بالنـــسبة لى لا يتيح لى تحمل عواقب البوح بما أكتم !!

وادى الفئران*

هناك قصة معروفة من قصص البطولة للمخابرات المصرية عرفت باسم " وادى فيران " ، عرضت فى مسلسل تليفزيونى ،وإن كان المسلسل قد فشل ، إلا أنه لم يخف صور الذكاء والتضحية والوطنية والبطولة التى حملتها هذه القصة الواقعية ..لكن هذا زمن مضى وانقضى ، ونحن الآن فى زمن آخر ، زمن عنوانه الحقيقى هو الذى عبر عنه القول المشهور : اسد علىّ وفى الحروب نعامة !!

وقد فكرت لحظات أن أصدّر المقال بهذه المقولة ، لكن حال دون ذلك أننى لم أرد أن أهين النعامة ، فأشبه فئة من الناس بها ، فهى حيوان رشيق خفيف الظل ، ريشه ينتفع به وغال الثمن ، ولحمه – كما يقال – من النوع الفاخر ، كما أنها " خوافة " ، وبدلا من أن تواجه الخطر تدفن رأسها فى الرمال متوهمة أنها بذلك تبعد عنه ..

وما هكذا الفئة التى أكتب عنها ...صحيح أن الجبن سمة أساسية لديها ، لكن ، إذا أضيفت إليها سمات أخرى ، تجمع العديد من السيئات التى تضر بنا ، وجدنا أن الفئران يمكن أن تحل محل النعامة ،ويصبح وادى الدموع مقترنا بالفئران التى تتسم بجملة من السمات التى تدفع الإنسان دفعا إلى انتظار لحظة الخلاص منها ، عن طريق الإرادة الإلهية ، حيث لا أتمنى أبدا أن تتلوث يد مصرى أو عربى شريف بدماء كرياتها الحمراء فساد وقهر واستغلال ،وكرياتها البيضاء، الائتمار بالأجنبى ولحس حذائه ، ولم نعد أمام واد واحد مثلما أشرنا فى مقال سابق ، بل أصبحنا أمام عدة وديان تمتلىء بالفئران فى الحقيقة ، وإن لبست أمامنا نحن الشعوب لباس أسود .

---

* جريدة المصريون الإلكترونية فى ٢٠٠٦/٨/٢

لقد كان بعض الحكام العرب يدارون فيلبسون لباس الوطنية والبطولة والعنترية والشهامة ، وكنا نقارن بين ما يقولون ، وبين ما يفعلون فلا نرى تطابقا ، وكنا نقرأ ونسمع قصصا عن عمالة وخيانة ،ونجد دافعا داخليا قويا يدفعنا دفعا إلى الميل إلى عدم التصديق ، لا من أجل عيون هؤلاء الحكام ، وثقة فيهم واحتراما ، ولكن فى الحقيقة دفاعا عن كرامتنا ، إذ كيف يقبل شعب أن يحكمه عملاء وخونة ،ويظل مستسلما لمثل هذه النوعية ؟

لكن الحرب اللبنانية كشفت المستور ،والذى كان قد انكشف زمن اغتيال العراق ، لكن الأمل كان لا يزال يراودنا ،وكأن لسان حالنا كان يقول إنها خطيئة كبرى حقيقة ، لكن ربما يتوبون عنها ، فإذا بالأمر يصبح الآن لعبا على المكشوف ، وتصريحا بالوقوف إلى جانب أعدى أعداء الأمة : الصهيونية ، والإمبريالية الأمريكية ، ترديد نفس مقولاتهم بلا حياء !

فما هو الهدف الاستراتيجى لأعداء الأمة ؟

الهدف الاستراتيجى لهؤلاء الأعداء هو الهيمنة على المنطقة وإعادة توزيعها بحيث تصب فى النهاية فى المصلحة الصهيونية النازية ، والإمبريالية الأمريكية الإرهابية .

وتحقيق ذلك يتطلب جهدا شيطانيا على كافة الأصعدة : سياسيا ،وتعليميا ، واجتماعيا ،واقتصاديا ، وثقافيا ، بل ودينيا ، فكيف يتأتى لهم هذا بأسلوب يختلف عن أساليب الاستعمار القديم القائم على الاحتلال العسكرى المباشر ؟

صحيح أن مثل هذا الاحتلال العسكرى المباشر قد تحقق لهم فى منطقة الخليج عن بكرة أبيها ، لكن كان من المهم أن تتحقق السيطرة ، على بقية المنطقة .

هنا يصبح الحل الأمثل أن يحكم البلدان العربية صنف يكون قناة جيدة تصل من خلالها المرامى والمقاصد الأمريكية ، فتلبس ثوب المحلية والعالمية

والوطنية ،وتسير قوى الهيمنة بذلك وفقا لعكس المقولة المعروفة ، فيرددون : بيد عمرو لا بيدى !

كانت لهم بصمات واضحة فى اختيار بعض الحكام ، واستطاعوا أن يتآمروا على العراق ويغزوه ، وفى الوقت الذى رفض فيه الشعب التركى المسلم العظيم أن يسمح للقوات الأمريكية أن تتخذ من أرض مسلمة معبرا لغزو شعب مسلم هو العراق ، فتح حكام عرب الطريق عبر ظهورنا للقوات الأمريكية كى تغزوا أهلنا فى العراق .

لكن بقيت أصوات نشاز – بالنسبة لقوى الهمينة وأعوانها فى الداخل من الحكام – تنطق بنشيد يختلف جذريا عن العصر الجديد ..أصوات قوى لا تزال تردد أساطير الأولين : العزة ، والكرامة ، والوطنية ،والمقاومة ! فى زمن التراجع والتخاذل والجبن والخيانة ..

فكان لابد أولا من التلويث ، حتى تتهيأ الأجواء للاغتيال ..فوصف كل هذا الجهد الذى لا يزال متمسكا ببقية بطولة وفداء ومقاومة وكرامة ، بالإرهاب!

ووضعت كل من حركة حماس ،وحزب الله فى بؤرة الاستهداف باغتيال ، فهما من بقايا ضمير الأمة ..بقايا شرف وعزة وبطولة .

ومن هنا ، فعندما اختار الشعب الفلسطينى زعامة حقيقية غير عميلة ..زعامة تؤمن بأن الإرادة الوطنية لا ينبغى أن تكون مرهونة بإرادة أعداء الأمة ، حدث ما حدث من حرب عنيفة على الحكومة الوطنية الشريفة ..أول حكومة فى الوطن العربى يتم اختيارها اختيارا ديمقراطيا حقيقيا دون أية شبهة تزييف ..حرب بكل الوسائل الاقتصادية والتشويه والعرقلة ،ووصلت نذالة نظامنا الحاكم إلى درجة عدم استقبال وزير للحكومة الفلسطينية من قبل من يمائله ، فضلا عن وسائل أخرى كثيرة كلها تنبئ بأن

نظمنا الحاكمة قد أصبحت جهارا نهارا فى الخندق نفسه الذى تقبع فيه أفاعى النازية الصهيونية ، وحيّات الامبريالية الأمريكية .

ثم أبوا إلا أن يتوجوا عمالتهم بهذه المواقف المخزية التى كشفت عنها تصريحات سوف يكون مكانها مزبلة التاريخ ...

قالوا ، على سبيل المثال ، إن ما فعله حزب الله (الذى دافع عن شرف الأمة وكرامتها) مغامرة غير محسوبة ...

والسبب الظاهر ، أسر جنديين من جنود العدو ،وما قولهم فى ألوف من الأسرى العرب فى السجون الإسرائيلية منذ سنوات ؟ أين كانت حكمتهم ورشدهم طوال سنوات طوال ؟!

إذا هجم لص سافل أو قاطع طريق نذل على ابنتك أو أختك أو زوجتك أو أمك ، لا قدر الله ، فهل يمكن أن تجلس ممسكا الورقة والقلم لتحسب السيناريوهات والاحتمالات ،وخطط المواجهة ، أم تتصرف تصرفا فوريا مهما كانت النتائج ؟

ويزيفون الحقائق بالقول بأن جيشنا هو للدفاع عن أرضنا ، ولا يمكن أن يحارب من أجل بلد آخر ...ونسأل : وعندما ذهب جيشنا إلى الكويت سنة ١٩٩٠ ، هل كان يدافع عن مصر ؟ إنه فى الظاهر كان يدافع عن الكويت ضد غزو العراق ، ولكنه فى الحقيقة ذهب غطاء للغزو الأمريكى للخليج الذى بدأ بالكويت . ولما كانت المصالح الأمريكية الصهيونية الآن تقتضى تدمير لبنان ، من هنا لا ينبغى لجيشنا أن يدافع عنها .

لكن ، من قال أصلا أننا نريد أن يذهب جيشنا إلى هناك ؟

هل هذه هى السبيل الوحيد لمؤازرة الشعب اللبنانى ؟

ألم يكن ممكنا إصدار تصريح ،وقرار من مجلس الوزراء ، قرار من مجلسى الشعب والشورى ، أو بيانات بإدانة الاعتداء الصهيونى ، وتحية للمقاومة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية ؟

التحرك الديلوماسى على أصعدة مختلفة من أجل مؤازرة للمقاومة اللبنانية والفلسطينية ...

تلك أمثلة لما كان يمكن فعله ،وعلى حد قول ذلك الرجل الذى أعتبره أمل الأمة العربية والإسلامية ، حسن نصر الله ، عندما عبر عن أنهم لا ينتظرون شيئا من الحكام العرب لأنهم أسقطوهم من الحساب منذ زمن ، ولكن فقط يأمل فى أن يصمتوا ، ذلك لأنهم عندما تكلموا ، كانوا كمن سكت دهرا ونطق كفرا ...أدانوا حامل لواء المقاومة فى لبنان ، حزب الله ، وحاملة لواء المقاومة على أرض فلسطين .

إنهم فى الحقيقة يريدون بذلك أن يذهب هؤلاء الذين يكشفون عورات نظم الحكم العربية المدججة بالسلاح الضخم ، لكنها توجهه ضد شعوبها ، بينما حماس وحزب الله ما زالوا يدافعون عن شرف الأمة وكرامتها ..ولو تأملت سلوك كل لص ، ومرتش ، وعاهرة ، فسوف تجد هذه الفئة تفزع كثيرا إذا طلت فى الساحة نماذج أخرى مناقضة : شريفة ، أمينة ، صادقة ، حتى لا تتكشف حقيقتهم المخزية ..حقا ، لقد انكشف المستور !!

زمن الوَهَن ..
وأيام الهوان* !

نشرت إحدى الصحف الحزبية منذ أسبوعين على وجه التقريب نص مكالمة تليفونية جرت بين حاكم عربى حالى وبين الرئيس الأمريكى " بوش " ، حيث كان الحاكم يأمل أن يزور واشنطن ، ويقابل بوش طلبا لعونه فى وقف هذه المجازر البشعة التى يرتكبها حاكم الدولة الصهيونية النازية ، وكان طلب الحاكم العربى من الأمريكى بالنص " هل يمكن أن أزوركم لبحث كيف نتدبر الأمر ، وكيف نفعل شيئا لإنقاذ الموقف حتى لا نشهد المزيد من التدهور " ، فماذا كان رد بوش ؟

رد بعد أن ضحك بصوت عال " أنا ذاهب الآن فى إجازة لصيد السمك ، هل تحب صيد السمك ؟ إذا رغبت فى ذلك فتعال لنصطاد معا ، ولكن لا حديث فى السياسة " لكن الحاكم العربى " بلع " هذا العبث وقال " فى الحقيقة الهدف من زيارتى هو بحث الأوضاع المتردية لإيجاد مخرج من الأزمة ، وأنا واثق من أن جهدا من جانبكم يمكنه أن يهدئ الأوضاع ويتيح مخرجا لهذه الأزمة ، ويصعد بوش وتيرة الاستخفاف فيرد " فى هذه الحالة سوف أنتظر منك مكالمة فى منتصف سبتمبر ، ثم استدرك قائلا : أو بالدقة فى منتصف أكتوبر ، وساعتها نحدد موعدا لزيارتك فى منتصف نوفمبر " !!

فبماذا يمكن للقارئ أن يصف هذا الموقف إلا بأنه صورة من صور ما وصلنا إليه من " هوان " هو نتيجة طبيعية لحالة " الوهن " المزرية التى نعيشها منذ سنوات .

أما بداية هذه الحالة من " الوهن " ، فهى من غير شك منذ الخامس من

---

* صوت الأزهر، فى ٢٠٠١/٨/٣١

يونية ١٩٦٧ ،ولاستكمال الصورة المفجعة فليتأمل القارئ معى هذه الصورة ، وهى تجمع عددا من السفراء العرب فى واشنطن ، الذين قـابلوا الـرئيس الأمريكى فى ذلك الوقت " جونسون " فى قاعة الاستقبال فى وزارة الخارجية فى واشنطن ، وفقا لرواية محمد حسنين هيكل فى كتابـه (الانفجـار) ص ٨٦٨ ، نقلا عن برقية كان قد أرسلها السفير المصرى محمد القونى ، وكان هناك تصور أن هذا اللقاء بين السفراء العرب ، الذين بقوا فى واشنطن رغم قطع العلاقات بين بلادهم والولايات المتحدة ، والرئيس الأمريكى سـيخفف من حدة هذه المشاعر ٠

واعتبر السفراء العرب أن لقاء الرئيس جونسون مفاجأة سارة لأنها تتيح لهم التحدث معه والتعبير عن مشاعرهم ، لكن الدهشة سصرعان ما استبدت بهم حين دخل جونسون وهو يمسك وثاقا من الجلد يقود به كلبه الذى يـسبقه إلى الدخول ، ثم جلس ، وكانت بداية حديثه – لذهولهم – موجهة إلى الكلب ،واسمه على نفس فصيلته " بيجيل " قائلا له وبالحرف الواحـد تقريبـا : " اسمع يا بيجل ٠٠حكاية رجل شرير تخانق مع جاره الطيب متصورا أن هذا الجار الطيب لا يستطيع الرد عليه ، ولكن الجار الطيب يا بيجل استجمع كل قواه ،ولكم جاره الشرير لكمة قوية طرحته أرضا ٠٠له حق يا بيجل ، أليس كذلك ؟ لماذا يحق لأصحاب هذا الرجل أن يشتكوا للآخرين ؟ ما هو رأيك يا بيجل ؟ "

بطبيعة الحال ، فقد كانت الصفعة قوية حتى لقد كاد يغمى لا على هؤلاء السفراء وحدهم ، ولكن على بعض السفراء الأمريكيين الحاضـرين كـذلك ،وبعد ذلك قام جونسون مغادرا القاعة ومعه كلبه الأثير !!

صحيح أننا استطعنا أن نمحو عار ٦٧ بالانتصار العسكرى فى حـــرب ٧٣ ، لكننا ، سياسيا ، لم ننتصر لأن امكاسب التى حصلنا عليها كانت أقـــل بكثير من الثمن الذى دفعناه بدمائنا ٠

وما حدث أثناء غزو العراق للكويت فى تقديرنا أخطر وأسوأ مما حدث عام ٦٧ ، فالنتيجة النهائية أن احتلت الولايات المتحدة عدة مناطق فى الخليج ، وخصمت القوة العراقية من القوة العربية ، وأصبح عشرون مليونـــا مـــن عرب العراق داخل سجن يتضورون جوعا ، أو يكادون ، وزرعت مشاعر بغضاء وكراهية وشك وريبة بين كثير من الدول العربية ، وتغلبت النظـــرة القطرية الضيقة على النظرة القومية ٠ وفى الوقت نفـــسه انطلقـــت الدولـــة الصهيونية على طريق القوة ، حيث ضمنت لها الولايات المتحدة التفوق فى القوة على جميع الدول العربية مجتمعة ٠

وفى وسط هذا الوهن يتمادى البعض فى الهوان ويظل يصرخ مرة بعد أخرى مناشدا الولايات المتحدة أن تتدخل ، وهو لغز أدعو الله عز وجل ألا ينهى حياتى قبل أن أصل إلى حل له ، أو يتطوع قارئ بحله ، أما هذا اللغز فهو أن كل الوقائع التى تحتاج إلى مجلدات لإحصائها تؤكد بما لا يدع مجالا للشك لهذه العلاقة التى لا مثيل لقومتها بين أمريكا وإسرائيل إلى درجة التأييد لما يفعله النازيون الجدد! من مجازر وحشية على أرض فلسطين كل يـــوم ، تتضاءل مع كان يزعمه أن هتلر يفعله باليهود ٠ وآخر هذا هو ما صرح به بوش يوم الجمعة ٨/٢٤ من أن على عرفات أن يوقف استخدام العنف ضـــد الإسرائيليين أولا ! هل هناك فرق بين هذا الموقف وموقف جونسون عام ٦٧ ؟ فكيف يتنادى الزعماء العرب دائما مسمين الولايات المتحدة بأنها " راعية السلام " ؟ وكيف يلجأون إليها باعتبارها " وسيطا " بين الفسطينيين والنازيين الجدد ؟

لو سألت طفلا صغيرا عن الشروط التى يجب أن تتوافر فيم يقوم بـدور الوسيط ، لقالها بكل سهولة ، ولو طبقت هذه الشروط على دول العالم فسوف تكون الولايات المتحدة هى أول من يخرج باعتبارها " راعية دولة الصهيونية النازية " .

لقد كنا نقول دائما إننا لن نحارب نيابة عن الفلسطينيين ، وأنهم لابد أن يتولوا أمر تحرير بلادهم ، لكن هل يعنى هذا أن نتركهم يتآكلون يوما بعـد يوم ويشردون وتهدم بيوتهم ويحرمون الغذاء والـدواء ، ونقـف عـاجزين متفرجين لا هم لنا إلا استجداء الولايات المتحدة أن تخفف من غلواء السفاح النازى شارون ؟

أ صارح القارئ خجلا أننى لا أعرف الفائدة من هذا الذى أقول ، وأنه لن يغير من الأمر شيئا ،ولكنى أحاول أن أجد منفذا لمشاعر سخط وغضب تكاد تجعل منى " إنسانا ملغوما " يمكن أن ينفجر فى أى لحظة ، لكن ، ويا أسفاه ، داخل جدران اربع ، لا أحد معه ،وهو يردد مع نزار قبانى :

أنا منذ خمسين عاما
أحاول رسم بلاد
تسمى " مجازا " بلاد العرب
رسمت بلون الشرايين حينا
وحينا رسمت بلون الغضب
وحين انتهى الرسم ساءلت نفسى
إذا أعلنوا ذات يوم وفاة العرب
ففى أى مقبرة يدفنون ؟
ومن سوف يبكى عليهم
وليس هناك حزن
وليس هناك من يحزنون !!

كلمة الحق
التى أرادوا بها باطلا* !

أما الكلمة ، فهى الديموقراطية ، وأما من نقصدهم ، فهم أصحاب القوى المهيمنة الكبرى ...

فقد استند اليمين الفاشى الذى يسيطر على الدولة الأمريكية ، من خلال حديث لرئيسها " بوش " ، أن ما واجهوه مما سموه بالإرهاب إنما مرده أن الإرهابيين يعيشون مجتمعات مستبَد بها ، فيضيق صدر مواطنيها ، وتمتلئ قلوبهم بغضب يزيد شيئا فشيئا نتيجة عدم وجود فرص للتنفيس ، فيبحث له عن أى جهة ينفس فيها عن غضبه ، ومن ثم فإن الطريق للقضاء على مثل هذا الإرهاب هو " دمقرطة " المجتمعات المستبد بها ، والتى تمثلها بصفة خاصة دول الشرق الأوسط .

وفى هذا الكلام جزء كبير من الصحة ، لكنه لا يحمل كل الصحة ..

فشعوب الوطن العربى لا تعانى فقط من الاستبداد ، وإنما تعانى كذلك من سعى حثيث للدول الكبرى لاستمرار الهيمنة من جانب ممثلى الاستعمار القديم ، وزرع الهيمنة من جانب زعيم الاستعمار الجديد ألا وهو الولايات المتحدة ، وهذه القوى ، ربما هى أدرى منا بما تفعل .

وشعوب هذه المنطقة ، ينزف الدم من جسمها منذ عام ١٩٤٨ عندما زرعت فيه دولة النازية الصهيونية ، إسرائيل ، بتشجيع ومباركة من نفس القوى التى أشرنا إليها ، فيكون شعور كل عربى وكل مسلم ، أن كل شبر فقدناه ، وكل نقطة دم أريقت من أجل فلسطين ، إنما يعود السبب الرئيسى فيه – مع عدم تناسى دور قوى داخلية عربية – راجع إلى نفس القوى

---

* جريدة المصريون الإلكترونية فى ٢٠٠٦/٩/٧

المشار إليها. وبالتالى ، فلا يكون غريبا أن تتجه طاقات الغضب إلى كبرى هذه القوى فى عصرنا الحاضر ... ربما يكون التعبير فى بعض الأحوال خاطئا ، لكن له مبرراته التى يجب ألا ننكرها .

بيد أن القضية الأساسية حقا هى التساؤل عن مدى صدق زعماء هذه القوى فى أنهم يريدون لنا حياة ديموقراطية حتى نصبح مثلهم ، وحتى تنحسر موجات الإرهاب ؟

جوابى المستقى من استقراء التاريخ الحديث والمعاصر ، يؤكد على أن الإجابة هى بالنفى الكلى !

فمنذ أول خطوة على طريق الديموقراطية فى هذه المنطقة ، كانت فى عهد الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٦ عندما تأسس أول مجلس نيابى ، بغض النظر عن بعض التفسيرات التى تذهب إلى أن إسماعيل لم يكن جادا ، بل لم يفكر فى هذا إلا بعد أن حاصرته الديون ، فضلا عن رغبته الدائمة أن يقلد الغرب ، فيما يقال.

لقد بدأ الحديث فى مصر يتسع حول حق المواطنين فى اختيار من يمثلهم ، إلى أن بلغت الدعوة ذروتها فى الفترة العرابية ، حيث كان المطلب الأساسى للثوار هو أن يكون لمصر مجلسها النيابى الذى يعبر عن مواقف أهلها ومطالبهم ، فماذا كانت النتيجة ؟

كانت بريطانيا القوة الاستعمارية الكبرى فى ذلك الوقت (عام ١٨٨١) ، ورأت أن مصر غنيمة لابد من الحصول عليها لأسباب متعددة تمتلئ بها كتب التاريخ لا داعى لإثقال القارئ بالحديث عنها ، ووجدت أن حركة التحرير الداخلى تمثل سدا يحول بينها وبين تحقيق مرادها من الاستيلاء على مصر ، فكان أن غزتها عسكريا ، بكل ما أعقب ذلك من تداعيات يصعب حصرها ، تصب جميعها فى الاتجاه بمصر وبالمصريين عدة سنوات إلى وراء ، بحيث تفقد الكثير مما يمكن أن يؤهلها لممارسة الديموقراطية ، ومن

المنطق المعكوس أن هذا التردى المستمر ، كان يُتخذ حجة لتأجيل الجلاء ، وتأخير الممارسة الديموقراطية .

وعلى الرغم من استمرار الاحتلال البريطانى ، إلا أن ثـورة ١٩١٩ استطاعت أن ترغم قوى الاحتلال أن تفتح الباب لاستقلال ، ولو أنه منقوص سنة ١٩٢١ ، والذى أعقبه صدور دستور عام ١٩٢٣ ، وتمـت بمقتـضاه انتخابات فاز فيها حزب الوفد برئاسة سعد زغلول ، وبدأنا بالفعل نشهد عهدا ليبراليا له قيمته ، مهما عانى من نواقص وسلبيات .

ثم إذا بقوة الاحتلال تنتهز فرصة وقوع حادث مقتل السردار لى ستاك ، فتعصف بالحكم النيابى الوليد ، وتطلق يد الملك فؤاد ليتبد ويبطش ، ويختار للوزارات رؤساء يعينونه على الاستبداد والاستغلال ، فيما سمى بـوزارات الأقلية ، وواصل ابنه فاروق النهج نفسه ، ولم يتمكن حزب الأغلبية الشعبية ، حزب الوفد منذ عام ١٩٢٤ ، حتى عام ١٩٥٢ ، أى مدة ثمانية عشر عاما ، من الحكم إلا مدة سبع سنوات ونصف ، متقطعة .

وإذا كانت ثورة يوليو قد رفعت شعار (إقامة حكم نيابى سليم) ، فلابد أن نعترف أن الممارسة العملية ما كانت تؤشر بممارسة ديموقراطية ، على الرغم من وجوب الاعتراف بصفحات عظيمة للثورة على أصـعدة مختلفـة ..لقد غلب احتكار السلطة ، وساد الرأى الواحد ، واختفى التنوع الفكرى ، والتباين والتغاير فى المواقف .

ولكن ، فنتأمل السياقات التى أحاطت بالثورة ، دون أن نقصد أن نلتمس لها الأعذار ...

فمنذ سنواتها الأولى ، عندما رفضت الانضمام إلى حركة الأحلاف التى كانت تنظمها وتديرها أمريكا ، رفضت أمريكا أن تبيع الأسـلحة لمـصر ، فماذا كان هذا يعنى ؟ أن تستمر مصر ضعيفة ، أو تنـضوى تحـت رايـة أمريكا فى حلف عسكرى !

ثم كان ما كان من أحداث اتصلت ببناء السد العالى الذى كان القصد منه " تنمية " اجتماعية واقتصادية ، فتم رفض المساهمة فى تمويله ، فإذا بعبد الناصر يضطر إلى تأميم قناة السويس ، ليجرى ما جرى من عدوان ثلاثى عام ١٩٥٦

لقد كان لهذا أثره على طريق الديموقراطية :

فأولا ، اضطرت مصر إلى الاتجاه شرقا ٠٠نحو منظومة الدول الاشتراكية ، حيث حصلت على ما كانت تريده من سلاح ، ثم تمويل لمشروع السد العالى ٠٠

وسارت العلاقات مع هذه المنظومة فى طريق متصاعد ، وكان لابد أن يحدث نتيجة هذا تأثر ببعض ما كان يسود الدول الشيوعية من نظم سياسية وأفكار اجتماعية واقتصادية ، سواء على مستوى الممارسة أو على مستوى الفكر ، وكان لهذا تداعياته المؤسفة فى الوقوع فى شرك ما يمكن تسميته بالنظام الشمولى الذى يفتقد فيه المواطنون حقهم فى الممارسة الديموقراطية٠

وثانيا ، فإن اشتداد ضراوة المعاداة بين مصر والولايات المتحدة ، ومن سار فى فلكها ، وما جره هذا من مؤامرات مستمرة ، وحربين دمرتا الكثير من الزرع والأرض والمبنى والبشر ، ٥٦ ، و٦٧ ، جعل قادة الثورة ينظرون بشك دائم إلى كل من لا يتعاطف معهم ، وارتفعت شعارات شكلها طيب وباطنها عذاب ، مثل : لا حرية لأعداء الشعب ، حيث فتح هذا بابا للبعض من أن يضعوا من يريدون فى فئة أعداء الشعب حتى يسلبوهم حريتهم ، ومثل لا صوت يعلو على صوت المعركة ، فكان تأجيل الكثير ، لا من صور الممارسة الديموقراطية ، بل أحيانا بعض البنى التحتية الأساسية للممارسة الديموقراطية ، مثل اختزال الإنفاق على التعليم مثلا ، بالنسبة إلى ما كان يتطلبه ، فنشأت لأول مرة فكرة عمل المدرسة لأكثر من فترة ، وبدأ

اكتظاظ الفصول ، وغير هذا وذاك من خطوات أدت إلى بدأ التدهور والتدنى فى التعليم .

فلما انتقلنا إلى السبعينيات ، لاحظنا بوضوح كامل كيف أن الولايات المتحدة حرصت على مساندة نظم حكم مكروهة من شعوبها ، فهى التى تؤمن حياة ملوكها ورؤسائها ، بمخابراتها الخاصة ، وبدعمها المستمر لأصحاب هذه النظم.

وإذا بهذه الصيحات التى تطلقها الولايات المتحدة طلبا للديموقراطية إنما هى لابتزاز حكامها ، فإما أن ينفذوا الأجندة الأمريكية ، وخاصة فيما يتصل بالتقارب المستمر من إسرائيل ، والتخلى عن المقاومة الفلسطينية ، والمحاربة المستمرة للتيارات الإسلامية ، وإلا صدرت تصريحات هنا وهناك من جهات أمريكية ودولية عن خروق لحقوق الإنسان ، وتنديد بما يحدث فى السجون والمعتقلات ، وتشهير بما يحدث لصحفيين أحرار وكتاب ، وفضح لبعض المخازى التى يرتكبها حكام ومن يتصل بهم من الأقارب والأعوان ، فيجد الحاكم أن ظهره قد تعرى وأن حقيقته بدأت تظهر على المكشوف أمام العالم ، فيهرع إلى الامتثال لما يريدون !

ألم تحدث على الأرض الفلسطينية انتخابات حرة بصورة لم يحدث لها مثيل فى العالم العربى ؟

لكنها خطوة ديموقراطية لم يرحب بها ، لماذا ؟ لأنها جاءت بفريق ينهج نهجا وطنيا ، يصر على مقاومة الاحتلال ، لا يريد خنوعا ، لا تتلوث يداه بفساد ..

ويصل الفُجر إلى درجة أن تعتقل إسرائيل نصف مجلس الوزراء الفلسطينى المنتخب انتخابا حرا ، بل ورئيس المجلس التشريعى وعددا من النواب ، ولا يرتفع صوت حامية الحرية والديموقراطية ، أمريكا ، احتجاجا

وتنديدا ، بل ولم يرتفع صوت واحد ممن أجلسوا على قمة النظم العربيـة ، الذين أقلقهم أسر أسير إسرائيلى فى فلسطين واثنين فى لبنان !

ومع ذلك حدث ما حدث إلى درجة تجويع علنى شامل حقير ، لـشعب كامل ، وتشارك فيه دول عربية ، فإذا مرت شهور على الفلسطينيين دون أن يحصلوا على القوت الضرورى للحد الأدنى للحياة ، كان لهم أن يثوروا على من انتخبوهم ، الذين أعجزهم أن يقوموا بما يجب على حكام من مسئوليات نحو شعوبهم ، فتفشل حماس ، ويعلن على الجميع أنهم إذا اختاروا مثل هذه النوعية ، فسوف يلاقون المصير نفسه ، فما علـيهم إلا أن يختـاروا مـن يخنعون ، ومن يرضون بموقع الذيلية ، ومن يحمدون الله أن هيأ لهم رضـا السيد الأمريكى !

حقا ... إنها كلمة حق أرادوا بها باطلا ...

الحق والرجال*

لن أقول تعليقا على بعض ما ورد من تعقيبات على مقالى الأسبوع الماضى ٢٠٠٦/٩/٧ أن أصحاب هذه التعقيبات يبدو أنهم لم " يفهموا " ما قصدته جيدا ، وذلك لأننى أومن بأن الكاتب يتحمل المسئولية الأولى فى حال ما إذا ذهب فهم بعض القراء فى اتجاه آخر غير ما يقصده ، ومن هنا أقول أننى – فيما يبدو – لم أكن واضحا بالدرجة الكافية بحيث يصل معنى ما أقول إلى الأذهان مثلما قصدت .

ودون أن ألتمس لنفسى العذر ، فإن ما لابد أن أوضحه هنا هو أن القضية التى ركز عليها بعض القراء الأعزاء لم تكن هى القضية الأساسية للمقال ، وهذا أشد ما حزنت له ، مما ذكرنى بموقف مماثل إلى حد ما وقع لى فى مؤتمر كبير كان قد عقد بالأردن عام ١٩٩٠ بعنوان (نحو نظرية تربوية إسلامية) ، ففى أثناء عرض دراستى التى كانت عن اجتماعية المعرفة فى التربية الإسلامية ، وكان من الأمثلة التى سقتها بيانا لتأثير السياقات المجتمعية على مجرى الفكر ، ما حدث لبعض توجهات الفلسفة فى العالم الإسلامى منذ عدة قرون ، إذ ترك البعض جوهر الموضوع وراحوا يستنكرون الفلسفة عموما وتحولت المناقشة إلى : هل يجوز الاشتغال بالفلسفة أم لا ؟

فإذا عدنا إلى مقالنا السابق ، فسوف نجد أن لبه وجوهره يكمن فى التأكيد على أن ما ترتكبه الولايات المتحدة الأمريكية ، وخاصة منذ تولى جورج بوش رئاستها هو عين الفاشية وهو عين الإرهاب الذى لا يمل من اتهام الإسلام به ، وأن خطأ بعض المسلمين لا يجوز أن ينسحب على العقيدة

---

* جريدة المصريون الإلكترونية فى ٢٠٠٦/٩/١٤

الإسلامية نفسها . وكان الأساس المنطقى لقولى هذا هو تلك المقولة الشهيرة والمتداولة بين رجال الفقه أن الحق لا يقاس بالرجال وإنما الرجال هم الذين يقاسون بالحق .

وأنا لم أزعم أننى " أستاذ فى المنطق " حتى يجئ فى عنوان أحد المعقبين مخاطبا لى " يا أستاذ المنطق " ، لأننى ببساطة " أستاذ فى أصول التربية " ، لكن يمكن أن أقول أننى " درست " المنطق ، وهو ما تضطرنى الظروف أحيانا إلى ترديده ، وفرق كبير بين أن أدعى أننى " درست " المنطق ، وبين أن أقول أننى " أستاذ " فى المنطق ، وهذا ما لم أزعمه فى يوم من الأيام !

أما مقولة الحق والرجال هذه ، فهى بالفعل تستند إلى مبدأ منطقى متفق عليه بين أهل الاختصاص ، بل ويتسق تماما مع العقل العام ، وبيانه كالتالى:

فعندما نقول كلمة مثل " شجرة " ، فهذه تشكل " مفهوما " يجمع فى طياته جملة الخصائص الأساسية التى تتوافر فى الشجرة أيا كانت ، وتحت هذا المفهوم الكلى الجامع ، يمكن أن نجد مفاهيم أخرى أصغر مساحة فى عدد أفرادها ، كأن نقول شجرة البرتقال أو شجرة التفاح ، أو غيرهما .

كذلك الأمر عندما نقول " إنسان " و " حيوان " ...وهلم جرا .

هذا الاسم الكلى ، نسميه " مفهوما " ، أما الأفراد الذين يندرجون تحته ، مثلى أنا وأنت وهى من أبناء بنى الإنسان ، فيسميها أهل المنطق " ما صدق " ، أى الفرد الذى يصدق عليه ما يضمه المفهوم من جملة الخصائص والمعانى .

من هنا يكون من غير المنطقى أن يكون " الفرد " – الماصدق – معيارا نقيس به المفهوم ، وإنما يكون المنطقى أن نفعل العكس ، أى يكون المعيار هو المفهوم نفسه .

ومن هنا تأتى أحد جوانب العظمة فى الفقه الإسلامى ، فهو مع إلهيــة مصدره ، نجده يتسق تماما مع المنطق والعقل ، وهذا ليس غريبا لأن المولى عز وجل هو الأدرى والأعلم بطبيعة تفكير مخلوقه الإنسان ، وكيــف أنــه الدعوة القائمة على البراهين العقلية والأدلة المنطقية تكون أسرع إلى اقتناعه ومن ثم إلى الإيمان بها ، وهو ما يفسر كثرة المواقف التى يشير إليها كثيــر من آيات القرآن الكريم ، والتى تقوم على تقديم الحجج العقليــة والبــراهين المنطقية .

والاستناد إلى " المفهوم " للحكم على " الماصدق " أمر يبعد تماما عما تصوره أحد القراء الأعزاء من أن هذا قد يعد صورة مــن صــور إضــفاء قدسية على المذاهب والأفكار ، مما يعنى تحريم مناقشتها ومراجعتها .

هنا نقول أننا نفرق بين ما هو معروف " بالثوابت " ، وما هو معروف " بالمتغيرات " ، فالنص القرآنى الذى يقرر ضرورة أن أفعل كذا وكــذا وألا أفعل كذا ، وكذلك ، السنة النبوية ، ثوابت نحتكم إليها فى تقييم هذا وذاك من الأفعال والأقوال التى تصدر من المسلمين ، بينما أقوال العلماء واجتهاداتهم وممارسات الناس على وجه العموم فى الحياة هى " متغيرات " قابلة للأخــذ بها أو ردها ، أى قبولها أو رفضها .

وهناك من يخطئ الفهم الخاص " بالثوابت " كذلك ، لكننا نلفت النظــر إلى أن حياة كل أمة لابد لها أن تقوم على " ثوابت " ، حتى لو لم تكن مؤمنة بعقيدة دينية ، فلها دستور على الأقل يقرر جملة القواعد الكلية التى لابد من الاحتكام إليها ، ولها " علم " يرمز إلى البلاد ، ولها سلام وطنى ، ولها حدود ، ولها ..ولها إلخ ، كل هذه " ثوابت " يُحتكم إليها .

ومن هنا فإذا قام شخص ما بقتل شخص آخر متعمدا مع سبق الترصد والقصدية ، كان للقاضى أن يحكم بإعدام القاتل ، بالاحتكــام إلــى القــانون الفاصل فى هذا الشأن ، وهذا يعنى أن القاضى هنا يحتكم إلى الحق فى الحكم

على الرجل ، ولا يفعل العكس ، فيحكم على القانون فى ضوء ما فعل القاتل .

وعقب سقوط الاتحاد السوفيتى ومنظومة الدول الاشتراكية ، ثار جدل طويل ، استخدم فيه هذا المنطق الذى نستند إليه ، إذ تساءل البعض : هل هذا السقوط يرجع – فضلا عن العوامل الخارجية التى ينبغى أن توضع فى الاعتبار – إلى خلل قام بالنظرية الماركسية التى رفعت هذه الدول شعارها ، أم يرجع إلى سوء التطبيق ، بل وذهب البعض إلى القول بأن هذه الدول لم تطبق النظرية الماركسية ، وإنما طبقت تصورات غير سليمة عنها .

ومن هنا فلا ينبغى أن يضيق صدرنا بوجوب وجود ثوابت نحتكم إليها ، إذ لا يستقيم أمر الجماعة الإنسانية إلا بهذا .

لكننا فى الوقت نفسه ، نجد أن الثوابت التى تواضع عليها البشر ، ليست بعيدة كلية عن التغير ، فسنة التطور البشرى كثيرا ما تفرض ذلك ، لكنه عادة ما يتم ببطء شديد ، وتدريجيا .

لكن هذا قد يتم – فى ظروف استثنائية – بسرعة ، كما نجد فى حالة الثورات ، فمصر قد غير قادتها اسمها الذى استقر آلافا من السنين ، بعد الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ ليصبح " الجمهورية العربية المتحدة " ، إلى أن عاد مرة أخرى عام ١٩٧١ ، وكذلك حدثت تغييرات لعلم الدولة وسلامها الوطنى .

وأنت إذ تتأمل جيدا فى هذه الأقوال التى تتردد على ألسنة القادة الأمريكان ، قد تعجب وتتساءل : كيف تغيب هذه الحقيقة المنطقية عن أذهانهم وهم من هم من حيث التفوق الفكرى والعلمى والحضارى ؟

والرد بسيط ، فيبدو أن العقلية المتقدمة ، مثلما تستثمر تقدمها فى مزيد من التقدم والإنشاء والتطوير ، تستثمرها فى الشر ، تمام كما نرى – مثلا – بالنسبة للعصابات الكبرى الخطيرة ، والتى يمكن أن " تكوخ " أجهزة الأمن

فترات طويلة قد تمتد إلى سنوات ، ثم تنتهى إلى لا شئ ، فكبار المجـرمين المحترفين ، يكونون أيضا على درجة عالية من الذكاء ، تتيح لهـم فرصـا متعددة من الكر والفر ، لكن ، حكمة الله قضت بأن يستعمل هؤلاء ما وهبوه من ذكاء فى الشر ، وأن يستعمله آخرون فى الخير ٠

وهكذا لابد أن القادة الأمريكيين يعلمون أن الذين فعلوا ما فعلـوه ممـا وصف بالإرهاب من المسلمين ، هم بضعة آلاف – على أحـسن تقـدير – بينما المسلمون يقدر عددهم بأكثر من مليار ، فكيف يحكم على مليـار بمـا فعله عدة آلاف ؟ إن الحديث قد يملأ مئات الصفحات لو حاولنا أن نشير إلى أن الإسلام نفسه لا يقر بعض ما ارتكبه مسلمون ٠

إن القادة الأمريكيين الحاليين هم بالفعل يمثلـون الوجـه الآخـر مـن الإرهاب ٠٠٠إرهاب الدولة ، وصفحات الصحف والمجلات وشاشات التلفاز تمتلئ بالعديد من الأمثلة المؤكدة كيف أن أمريكا قد تفوقت على من تـتهمهم بالإرهاب فى الإرهاب ، بل إن التحليل الدقيق لمسار السياسة الأمريكية فى السنوات الأخيرة ، يكاد يؤكد أنها هى المتسبب فى اتساع دائـرة الأعمـال العدائية التى تُوجه إليها ، إذ لا يتصور أحد أن يقف الضحايا مكتوفى اليـد وهم يرون صور الاستغلال والإذلال البشعة تتزايد وتتوحش يوما بعد يوم ، وكلما اتسعت دائرة العدوان الأمريكى اتسعت دائرة الأعمال العدائية الموجهة إليها ، وليقارنوا حجم ونوع مثل هذه الأعمال قبل غزو كل من أفغانـستان والعراق وبعده ، وليفكروا فيما يحاولونه الآن على الأرض اللبنانية ، حتى لا تتسع دائرة العداء المضاد ٠

للمؤلـــــف

١. الفلسفة ، للصف الثالث الثانوى ، وزارة التربية والتعليم ، القـاهرة ، ١٩٦٨

٢. المجتمع المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢

٣. دراسات فى التربية والفلسفة ، عالم الكتب ، القاهرة ،١٩٧٢

٤. تدريس المواد الفلسفية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢

٥. التربية اليهودية الصهيونية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤

٦. قضايا التعليم فى عهد الاحتلال ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٤

٧. الأزهر على مسرح السياسة المصرية ، دار نشر الثقافة ، القـاهرة ، ١٩٧٤ ، وصدر فى طبعة أخرى فى سلسلة كتاب الهلال ، دار الهلال ، ١٩٨٦ بعنوان : (دور الأزهر فى السياسة المصرية) ، مـع بعـض التعديلات .

٨. أصول التربية الإسلامية ، دار نـشر الثقافـة ، القـاهرة ، ١٩٧٦ ، وأعيد طبعه ، مع بعض التغييرات ، دار الفكـر العربـى ، القـاهرة ، ١٩٩٣

٩. التصور النبوى للشخصية السوية ، دار نـشر الثقافـة ، القـاهرة ، ١٩٧٩

١٠. أوضاع المربين العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩

١١. التعليم الثانوى ، الواقع والمستقبل ، دار نـشر الثقافـة ، القـاهرة ، ١٩٧٩

١٢. نشأة التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩

١٣. دراسات عن التعليم فى المملكة العربية السعودية (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠

١٤. دراسات فى اجتماعيات التربية ، (بالاشتراك مع د٠ زينب حسن حسن) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، وكان قد صدر (بالاشتراك مع آخرين) بعنوان : التربية ومشكلات المجتمع عام ١٩٧٣ ، الأنجلو المصرية

١٥. دراسات فى فلسفة التربية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١

١٦. المدخل إلى العلوم التربوية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١

١٧. ديموقراطية التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢ (وكانت الطبعة الأولى منه وقد صدرت عام ١٩٧٤ ، عن دار نشر الثقافة ، القاهرة)٠

١٨. دراسات فى التربية الإسلامية ، عالم الكتب ،، القاهرة ، ١٩٨٢

١٩. تجربة ثورة يوليو ١٩٥٢ (بالاشتراك مع د٠ زينب حسن) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣

٢٠. الأصول السياسية للتربية (بالاشتراك مع د٠ فاروق اللقانى) ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٨٣ ، ثم صدرت طبعة منفردة مع تغييرات جذرية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧

٢١. النبات والفلاحة والرى عند العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ثم صدرت طبعة ثانية ، مزيدة ومنقحة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ٢٠٠٦

٢٢. تطور إعداد معلم المرحلة الأولى فى مصر (بالاشتراك مع د٠ زينب حسن) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣

٢٣. محنة التعليم فى مصر ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٤

٢٤. معاهد التربية الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، وكانت قد صدرت منه طبعة مختصرة عام ١٩٧٨ ، عن دار نشر الثقافة بالقاهرة
٢٥. إنهم يخربون التعليم ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٦
٢٦. الفكر التربوى العربى الحديث ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٧ ، ثم صدرت طبعة ثانية ، مزيدة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ٢٠٠٦
٢٧. بحوث فى التربية الإسلامية ، مركز تنمية الموارد البشرية ، القاهرة ، ١٩٨٧
٢٨. تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، القاهرة ، ١٩٨٩
٢٩. الأمن التربوى العربى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩
٣٠. هموم التعليم المصرى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩
٣١. هوامش فى السياسة المصرية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٩٠
٣٢. اتجاهات الفكر التربوى الإسلامى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩١
٣٣. تعميم التعليم الابتدائى فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١
٣٤. محو الأمية وتعليم الكبار فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١
٣٥. الأصول الإسلامية للتربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٢
٣٦. دراسات فلسفية (بالاشتراك) ، للصف الثالث الثانوى (المستوى الرفيع) ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٢

٣٧. نظرات فى الفكر التربوى ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٩٩٢

٣٨. رؤية إسلامية لقضايا تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣

٣٩. التربية والحضارة فى بلاد الشرق القديم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ثم صدرت طبعة أخرى منه موسعة ، الناشر نفسه ، ١٩٩٩

٤٠. مقدمة فى التأريخ للتربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ثم أعيد طبعه موسعا عام ١٩٩٩ ، الناشر نفسه

٤١. التربية فى الحضارة اليونانية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥

٤٢. سقوط تربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥

٤٣. فلسفات تربوية معاصرة ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٩٥

٤٤. التربية علم له أصول ، دار أخبار اليوم ، سلسلة كتاب اليوم الطبى ، القاهرة ، ١٩٩٥

٤٥. التعليم فى مصر (العنوان الأصلى : قصة تطوير التعليم فى مصر) دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، نوفمبر ١٩٩٥

٤٦. التربية فى الحضارة المصرية القديمة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦

٤٧. سياسة التعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦

٤٨. التربية العربية فى العصر الجاهلى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، كانت الطبعة الأولى منه بعنوان (تمهيد لتاريخ التربية الإسلامية) ، الناشر نفسه ، ١٩٧٩

٤٩. التعليم والخصخصة ، كتاب الأهرام الاقتصادى ، الأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٦

٥٠. – التربية عند بنى إسرائيل ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧

٥١. التربية التحليلية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧

٥٢. البناء القيمى فى مجتمع الكويت (تحرير) ، الديوان الأميرى ، مكتب الإنماء الاجتماعى ، الكويت ، ١٩٩٧

٥٣. التعليم على أبواب القرن الحادى والعشرين ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٨

٥٤. التربية (بالاشتراك) لمعلمى التعليم الفنى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٨

٥٥. عرب فى قاع الزمن عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩

٥٦. شجون جامعية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩

٥٧. رؤية سياسية للتعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩

٥٨. نظرات فى التربية الإسلامية ، مكتبة وهبه ، القاهرة ، ١٩٩٩

٥٩. دفتر أحوال التعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩

٦٠. مستقبل التعليم قبل الجامعى فى مصر ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الأهرام ، سلسلة كراسات استراتيجية (٨٣) ، القاهرة ، ١٩٩٩

٦١. الأصول الفلسفية للتربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ٢٠٠٠

٦٢. القرآن الكريم ، رؤية تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ٢٠٠٠

٦٣. فقه التربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ٢٠٠١

٦٤. السنة النبوية ، رؤية تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ٢٠٠٢

٦٥. تراث طه حسين فى التعليم (دراسة وتحرير) ، دار الكتب ، القاهرة ، ٢٠٠٢

٦٦. نشأة الفكر التربوى وتطوره ، عالم الكتب ، القاهرة ، ٢٠٠٢

٦٧. ثقافة البعد الواحد ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٣

٦٨. التعليم والتنشئة السياسية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٣

٦٩. مماليك هذا الزمان ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٣

٧٠. تجريف العقول ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٤
٧١. التربية الإسلامية (بالاشتراك) ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ٢٠٠٤
٧٢. التعليم فى ظلال ثورة يوليو ١٩٥٢ ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥
٧٣. التعليم والهوية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥
٧٤. الخطاب التربوى الإسلامى ، الدوحة سلسلة كتاب الأمة (١٠٠) ، ٢٠٠٥
٧٥. تجديد العقل التربوى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥
٧٦. العدل التربوى وتعليم الكبار ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥
٧٧. تعليمنا بين الأمس والغد ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٥
٧٨. الحركة الفكرية فى التربية الحديثة (ج٠ نيللر)، مترجم ، بالاشتراك مع د٠ بدر جويعد العتيبى ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ٢٠٠٥
٧٩. أصول التربية الإسلامية ، القاهرة ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، ودار السلام ، ٢٠٠٥
٨٠. هاؤم اقرءوا كتابيه (قصة حياة أستاذ جامعى) ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٦
٨١. أصول التربية العامة ، عمان ، دار المسيرة ، ٢٠٠٦
٨٢. أصول التربية الإسلامية ، عمان ، دار المسيرة ، ٢٠٠٦
٨٣. التربية الوالدية ، رؤية إسلامية ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة ، ٢٠٠٦
٨٤. التطور الحضارى للتربية ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ٢٠٠٦
٨٥. التربية الإسلامية وتحديات المستقبل ، القاهرة ، دار السلام ، ٢٠٠٦
٨٦. النزعة العقلية فى الفكر التربوى الإسلامى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٦

٨٧. نحو استراتيجية لتطوير التعليم الجامعى ، القاهرة ، الأهرام ، كتاب الأهرام الاقتصادى ، ٢٠٠٧

٨٨. عسكرة التعليم ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٧

٨٩. ثقافة الإصلاح التربوى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٧

٩٠. التخطيط للكتب المدرسية (دوجلاس بيرس) ترجمة بالاشتراك مع محمد الألفى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٧

٩١. الإسلام والغرب ، تعايش أم صراع ؟ القاهرة ، عالم الكتب ، دار الفكر العربى ٢٠٠٧ (حصل على جائزة مبارك للدراسات الإسلامية ، وزارة الأوقاف)

٩٢. اجتماعية المعرفة في الفكر التربوى الإسلامى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٧

٩٣. الحوار ، ثقافة ومنهجا ، القاهرة ، دار السلام ، ٢٠٠٧

٩٤. التربية السياسية للأطفال ، القاهرة ، دار السلام ، ٢٠٠٧

٩٥. كيف نربى أبناءنا ، سلسلة كتاب اليوم الطبى ، أخبار اليوم ، ٢٠٠٧ القاهرة .

٩٦. اختراق العقل الإسلامى ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨

٩٧. الفساد في التعليم ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨

٩٨. جامعات تحت الحصار ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨

٩٩. واتعليماه ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨

١٠٠. التربية الإسلامية والنهوض بالأمة ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ٢٠٠٨

١٠١. ثقافة المقهورين ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨

١٠٢. ثقافة المقاومة ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨

١٠٣. غروب الضمير ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٨

١٠٤. أعلام تربية فى الحضارة الإسلامية ، القـاهرة ، دار الـسلام ، ٢٠٠٨
١٠٥. من هنا يبدأ تطوير التعليم ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٩
١٠٦. ما الذى جرى للتعليم فى مصر ؟ القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٩
١٠٧. فلسفة التربية ، رؤية تحليلية ومنظور إسلامى (بالاشتراك مـع الدكتور هانى عبد الستار) ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ٢٠٠٩
١٠٨. مستقبل تعليم الأمة العربية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ٢٠٠٩

فهرســـــت

الموضوع	الصفحة
مقدمـــــة	٣
١. عذاب القبر وعذاب الشارع	٥
٢. انتماء	٧
٣. الانتماء والولاء	٩
٤. اللغة عماد الهوية	١١
٥. لغة النصر	١٣
٦. نعم مسلمون ، ولكن..	١٦
٧. الحرية لنا والإقصاء للآخرين	١٨
٨. هل أخجل من عروبتى ؟!	٢٠
٩. ثلاث حالات	٢٢
١٠. وباء المحمول	٢٤
١١. شبهات حول الوحدة الوطنية	٢٦
١٢. درس النصر	٢٨
١٣. عودوا من حيث جئتم	٣٣
١٤. إسلاموفوبيا	٣٧
١٥. عرب فى قاع الزمن	٤١
١٦. الخلاص الفردى	٤٧
١٧. دفاع إنجليزى أمريكى عن الإسلام	٥١
١٨. احتموا بشعوبكم	٥٣

١٩.	حكام ودول فى بيت الطاعة الأمريكى	٥٧
٢٠.	تجربة فى لبنان	٦١
٢١.	عواصف الجبل	٦٥
٢٢.	غضب تأخر	٦٩
٢٣.	حتى أنت يا هيكل ؟!	٧٣
٢٤.	عندما أصبح السلام " خيارا "؟!	٧٨
٢٥.	ثمرات انتصار	٨٢
٢٦.	نفثات مصدور	٨٧
٢٧.	هذا عذب فرات سائغ شرابه ...	٩١
٢٨.	تجوع الحرة ...	٩٥
٢٩.	نعم ، سينكره التاريخ ؟!	٩٩
٣٠.	عندما نام قرير العين	١٠٣
٣١.	آخر الرجال المحترمين	١٠٦
٣٢.	ليس دفاعا عن الجماعة المحظورة	١١٠
٣٣.	عندما يكون الغباء نهجا ...	١١٤
٣٤.	ضرورة التقارب العربى الإيرانى	١١٨
٣٥.	عنصرية فكرية	١٢٠
٣٦.	عفوا ، دكتور زقزوق	١٢٤
٣٧.	التربية الصهونية	١٢٧
٣٨.	حزب الرئيس	١٣١
٣٩.	الحرية لنا والسجن للآخرين	١٣٧
٤٠.	الويلات الأمريكية المتحدة	١٤٣
٤١.	متى يبلغ الشعب سن الرشد؟	١٤٧
٤٢.	قراءة فى المشهد اللبنانى	١٥١

٤٣.	متى نحرر مصر المأسورة	١٥٥
٤٤.	حرية النباح	١٥٩
٤٥.	راعى الغنم	١٦٢
٤٦.	حكم العسكر	١٦٢
٤٧.	وهم التغيير	١٧٥
٤٨.	هل يستقيم الظل والعود أعوج ؟	١٧٩
٤٩.	..وانكشف المستور ؟!	١٨١
٥٠.	عنترية مغشوشة	١٨٥
٥١.	الوساطة الأمريكية بين الجرح ..	١٨٩
٥٢.	عندما يفرز المجتمع لصوصا	١٩٢
٥٣.	لا عفا الله عما سلف	١٩٧
٥٤.	كيف يخلط النظام الحاكم ...	٢٠٢
٥٥.	أوهام تبددت ،وحقائق تأكدت	٢٠٨
٥٦.	الشحاتين أهمه !	٢١٣
٥٧.	كيف أصبحت مصر غير محروسة	٢١٩
٥٨.	تفكيك وإعادة تركيب	٢٢٣
٥٩.	أعتذر للشهيد أمام قبلة الموت	٢٢٨
٦٠.	افهمونا قبل أن تتهمونا	٢٣٣
٦١.	بيوت الله تحت الحصار	٢٣٧
٦٢.	مقترحات لتفعيل الوظيفة الأمنية	٢٤٣
٦٣.	وادى الدموع	٢٤٩
٦٤.	وديان ودماء	٢٥٣
٦٥.	الدولة الأمنية	٢٥٧
٦٦.	وادى الفئران	٢٦٣

٦٧.	زمن الوهَن وأيام الهوان	٢٦٨
٦٨.	كلمة الحق التى أرادوا بها باطلا	٢٧٢
٦٩.	الحق والرجال	٢٧٨
للمؤلف		٢٨٣